رواية

نصف ملتزمة

تأليف
السيد عبد الكريم

جميع حقوق الطبع محفوظة لدى المؤلف

إهداء

إلى كل إنسانة سقطت من قاموسها كلمة (بابا) .

مقدمة

أعرف أنه ليس لديكم وقت لتلك المقدمات السخيفة ...
وأنا لا أجيد إلا كتابة المقدمات السخيفة ...
لذا يمكنكم أن تقلبوا الصفحة .

الفصل الأول
(نورا قاسم)

أنا الآن ابنة سبعة عشر ربيعاً ، عشتُ مع أمّي تسع سنوات لا أتذكر منها إلا شيئين : شجارها الدائم مع أبي ، وتحذيراتها لي بألا أقع في الحب ، وكأنها كانتْ تعلم أنها ستموت مبكرا ، وقد فعلتْ ، فعلتْ ذلك بسرعة البرق ، لدرجة أنى وجدتُ نفسي وحيدة وأنا في سن العاشرة ، وتكفّل أحد رجال القرية بتربيتي والإنفاق عليّ ، لم يكنْ ثريا ، بل كان أفقر أهل القرية ، وإلى الآن لا أعلم سر رعايته لي ، لم أقم معه في بيته ، فهو لم يكن يملك واحدا ، كان يسكن كوخاً مغطى بالقش خلف مسجد القرية ، وحين كبرتُ علمتُ أنّ ما كان ينفقه عليّ (عم حسين الأعرج) لم يكن إلا صدقات وتبرعات من أهل الخير ، كنتُ في عمرٍ لا يسمح لي بأن أعرف كيفَ مات أبى ، لكنّى عرفتُ معنى أنى يتيمة حينما كنتُ أحصل على ما تبقى من طعام الآخرين ، وحينما كان يُحضر لي عم حسين ملابس مستعملة لم تكن إلا صدقات من الأغنياء ، و حين طلبتْ معلمة اللغة العربية أن نكتبَ موضوعا في التعبير عن الأم فلم أجد ما أكتبه ، فحياة أمّي معي لم تكن إلا قطرة ندى سرعان ما اختفتْ مع شروق الشمس .

قضيتُ ثلاث سنوات في الثانوية العامة بثوبين فقط ، وحجاب واحد ، أمّا الأحذية ، فكنتُ أمتلك واحدا أكلَ عليه الدهر وشرب ، وحينما طلبتُ من عمى حسين أن يجلب لي حذاء جديدا أخبرني أنه يعرف سيدة ثرية في القرية المجاورة لديها ابنة في مثل عمري ، وسوف يعرف منها إن أرادتْ أن تتصدق بواحد من أحذية ابنتها الكثيرة لفتاة يتيمة ، وطبعا هذه اليتيمة

هي أنا ، لم تتصدق السيدة بحذاء ابنتها ، فقام عم حسين بإصلاًح حذائي الممزق في الناحية اليسرى .

وأنا أسبحُ في تلك الذكريات سمعتُ مَنْ يطرق باب بيتي ، فوضعتُ غطاءً على رأسي ، وفتحتُ الباب .
ـ هنسافر بالليل يا نورا .
قالها عم حسين فى فرح .
أطرقتُ نحو الأرض وأنا أشعر بهزات قلبي غير المنتظمة ، ثم سمعته يقول :
ـ خلاص حلمك هيتحقق يا بنتي .
قلتُ في تردد :
ـ بس أنا خايفة يا عم حسين .
قال وهو يضع في يدي ألف جنيه :
ـ بالعكس ، أمك كان نفسها تعيش لحد ما تشوف اليوم ده .
نظرتُ إلى النقود وصمتُ فترة طالتْ ، فقال وهو ينهض :
ـ الساعة عشرة بالليل هنسافر ... ولمّا نوصل القاهرة هدّيكى ألف جنيه تانية .
قالها ثم غادر .
(عم حسين الأعرج) ليس من أقاربي ، أقاربي ؟!
في الحقيقة لم أعرف أن لي أقاربا ، لكن أهل القرية كانوا يطلقون عليّ (نورا بنت حسين الأعرج)، والأعرج لقب التصق به منذ يوم الحريق ، ذلك اليوم الذي فقد فيه أبيه وأمه وأخته ، لم أعاصر ذلك الحريق لكن عم حسين حكى لي أنه في طفولته شبّ حريق هائل التهم بيته وثلاثة عشر بيتا ، فأصيب هو بحروق مازالتْ تترك أثرا حتى الآن ، وحين قفز من الطابق الثاني محاولاً الهرب كُسِرتْ ساقه ولم تعد كما كانتْ ، واستولى عمه على أرض أبيه ، فترك عم حسين دراسته وبحث عن عمل ، فلم يجدْ مَنْ يقبله بسبب إعاقته ، واستعان بعصا يتكأ عليها لتكونَ بديلا عن ساقه التالفة والتصق به لقب الأعرج بعدما وجد نفسه وحيدا يتيما عاطلا ، ولعلّ وحدته وحياة اليتم والحرمان التي عاشها هي التي جعلته يتكفّل بي حين صرتُ مثله بلا أب وأم وأنا في سن العاشرة ، لكنني كنتُ حمقاء مغفلة حينما اعتقدتُ ذلك ، لأن عم حسين كان يخفى سرا عظيما .

في العاشرة مساء كنتُ أسير خلفه وهو يحمل حقيبة سفري التي لم يكن بها إلا ملابس قليلة ، وبعض الكتب وأوراقي الشخصية ، سرنا على الأقدام حتى محطة القطار ، وحين حملنا القطار متجهاً بنا القاهرة مال نحوى قائلا :

ـ اسمعى يا نورا ... أبوكى لسه عايش .

لم انبهرْ كما توقع عم حسين ، ولم تهطل دموعي كما توقع عم حسين ، ورأيته ينظر إليّ منتظرا ردة فعلي ، فلمّا لم يجد أكمل حديثه قائلا :

ـ أبوكى ساب أمك وسافر لمّا عرف إنها مش هتخلف تانى .

كانتْ كلماته تختلط بصوت هدير عجلات القطار :

ـ أبوكى دلوقتى متجوز فى القاهرة ومعاه بنت ، ومحدش يعرف السّر ده غيرى ، حتى أمك ـ ربنا يرحمها ـ كانتْ تعرف إنه عايش بس مكنتش تعرف أنه اجوز عليها .

بدا الإمتعاض على وجهه ، وقال متأثرا :

ـ معقولة أبوكى يسيب أمك الست الكاملة العاقلة ويجوز غيرها ... بس مراته الجديدة طلّعت عليه كل القديم والجديد وورياه النجوم فى عز الضهر .

ثم تحسس عكازه ، ونظر إلى الحقول من نافذة القطار وقال :

ـ انتى هتعيشى عنده لحد ما تخلصى الجامعة .

اهتزّ بنا القطار استعدادا لوقوفه في إحدى المحطات ، فسمعتُ صوت عم حسين بوضوح وهو يقول :

ـ الدراسة في الجامعة بدأتْ من شهر ونص ... بس مكنش معايا فلوس ساعتها ... علشان كده تأخرنا فى السفر ...كان المفروض نسافر الشهر اللى فات ...بس انتى كبرتى يا نورا ولازم تعرفى انى فقير ومحدش عايز يشغلنى عنده بسبب ...

ثم صمتَ متحسسا ساقه التالفة ، فمددتُ يدي نحوه وربّتُ على كتفه فقال :

ـ لازم تعرفى إن كل الفلوس دى من جميعات خيرية وناس طيبة تحب تتصدق على الأيتام ... أنا بقولك كده يا نورا علشان تعرفى قيمة الفلوس اللى بجيبها ليكى ... فى القاهرة يا بنتى هتشوفى كل أنواع الناس ، أوعي تطلعى من توبك يا نورا ... عيشى عيشتك .... واوعى تفتكرى إن أبوكى بتزيد منه فلوس علشان يصرف عليكى ... واوعى تتوقعى إن حد هينفعك غير ربنا ... أنا بقالى أكتر من شهر بجمعلك ألفين جنيه تشترى بيهم كتبك وتصرفى على نفسك .

ثم مسح بكف يده على رأسي وقال :

ـ جايز يكون كلام قاسى وجايز تكونى أول مرة تسمعيني بتكلم باللهجة دى ... بس أنا بقول كده علشان تعرفى إن عليكى مسئولية كبيرة ... أنا مستعد أحرم نفسي من الأكل عشان انتى تاكلى ... المهم دراستك وتعليمك وبس ...هو ده اللى كانتْ بتتمناه أمك ..

هنا قاطعته قائلة :

ـ ليه بتعمل كل ده علشانى ؟

قال متحاشيا النظر لي :

ـ متقلقيش ... هبطل أعمل كده لمّا أموت .

ثم أردف :

ـ الشيخ بتاع المسجد وعدنى إنه هيخصص ليكى جزء من فلوس التبرعات .

وحين رأى دموعي قال وهو يربّتُ على كتفى :

ـ دموعك دى دليل إنك هتتحملى المسئولية ومش هتبصى غير لمستقبلك بس ... ودا اللى بتمناه .

جففتُ دموعي وساد صمت لم يدمْ طويلا لأنني سمعته يقول :

ـ انتى رايحة لحياة جديدة ... حياة ملونة ... واللى فى سنك هيشوف كل حاجة فيها متلونة بلون الحب ... اوعى تسلّمى قلبك لحد ... البنت الشاطرة هى اللى متسلمش قلبها غير للى ييجى يطلب إيدها فى النور .

ثم ابتسم وهو يقول :

ـ متنسيش إني درست سنة في كلية التجارة ... ولولا الحريق وعمّى الطماع كان زمانى خريج جامعة معايا شهادة ووظيفة .

بعد الفجر كنا نسير في شارعٍ ضيق في إحدى المناطق الشعبية ، كنتُ أنظر إلى اللافتات منبهرة بما أرى ، أنا التي لم أغادر قريتي قط لابد أن تأخذني تلك المباني المتلاصقة التي تفوح منها رائحة العتق ، كنتُ اقرأ اللافتات بتركيزٍ شديد ، لأني سأعيش هنا أربع سنوات حتى أنتهي من دراستي الجامعية ، ولا رفيق يعلّمني الذهاب والإياب إلى ومن الجامعة ، لذلك حينما أخبرني عم حسين أننا وصلنا الحارة التي يسكن فيها أبى نظرتُ إلى شيء مُميز يجعلني أحفظ العنوان بسهولة فلم أجد إلا لافتة متوسطة الحجم قد كُتِبَ عليها (الميكانيكي) .

وكان لابد أن أحفظ تلك الأماكن من خلال اللافتات ، أعرف أنها طريقة ساذجة لكنني كنت حمقاء .

انحرفنا يسارا ، فولجنا حارة ضيقة ناعسة ، سرنا قليلا ثم وقف عم حسين أمام إحدى البنايات العتيقة قائلا وهو يمد نحوى بألف جنيه أخرى :
ـ كده معاكى كل الفلوس اللى جمعتها ليكى .

صعدنا إلى الطابق الثالث ليطرق عم حسين باب الشقة ، ففتح لنا رجل أحسستُ أنى منه وهو منّى ، احتضنني الرجل الذي عرفتُ أنه أبى قائلا :
ـ نورا ... حبيبتى .
لم أشعر بشيء ، كنتُ باردة المشاعر تجاه أبى الذي ظننتُ أنه مات منذ زمن كما أخبرتني أمي ، هذا الرجل عاش معي طفولتي وتركني في فترة كنتُ في أشد الحاجة له معي ، أعني فترة مراهقتي .
رحب بنا أبى ، وحمل عن عم حسين الحقيبة ، ودخلنا إلى صالة بها مقاعد مكسوة بفراش باهتٍ قديم ، أربعة مقاعد قديمة مهترئة ، منها مقعد ممزق الكساء وقد وُضِعتْ سجادة صلاة على الرقعة الممزقة لتخفى هذه الفجوة ، وبعد أن جلس ثلاثتنا سمعتُ بابا يُفتح ، فرأيتُ سيدة تنظر نحونا بنظرات متشككة ، هذه إذن زوجة أبى ، لم أستخف لها ظلا من الوهلة الأولى وعلمتُ أن أيامي هنا ستكون ألوانا من العذاب ، ناداها أبى قائلا :
ـ تعالى يا سعاد سلّمى على نورا .
حضرتْ مثل الطاووس في بطءٍ ومكر ومدّتْ لي يدها وقالتْ :
ـ تشرفنا .
ثم نظرتْ لأبى نظرة ذات معنى وغابت في حجرتها ، فتبعها أبى في رعب ، كنتُ منقبضة حزينة متوجسة لما ينتظرني في هذا العالم الجديد ، قطع تفكيري صوت عم حسين :
ـ حافظى على الفلوس ... وكونى حذرة في الإنفاق .
وقبل أن أرد سمعتُ أبى وزوجته يتشاجران ، وعرفتُ من خلال ما وصل أذنيّ من كلام أنهما يتشاجران بشأن الحجرة التي سأمكث فيها ، الشقة مكونة من صالة وغرفتين كما بدا لي ، لكن لا بأس ، يمكنني المبيت في الصالة ، فأنا عشتُ طوال حياتي وحيدة يتيمة وقد اعتدتُ على قسوة المعيشة ، وكثيراً ما عملتُ خادمة في بيوت الأثرياء في الإجازة الصيفية مقابل مالٍ قليل ، وحين أشتدّ الشجار سمعتُ زوجة أبى تقول :
ـ ووفاء هتبات فين ؟
ردّ أبى :
ـ في أوضتنا يا سعاد .
هنا نظرتُ إلى عم حسين وقلتُ :

ـ عم حسين ... أنا خايفة .
قال هامسا :
ـ دا بيتك زى ما هو بيتها وأكتر كمان .
خرج أبى وعلى وجهه علامات الاستسلام وقبل أن يتكلم قلتُ :
ـ يا والدي أنا هبات هنا في الصالة .
قال وهو يتحاشى النظر لي :
ـ اعذرينى يا نورا ... شقتنا أوضتين ... بس متقلقيش ... وفاء هتبات معايا وانتى هتاخدى أوضتها .
ثم نادى بصوتٍ مرتفع :
ـ الفطار يا سعاد .
بعد نصف ساعة كنا نجلس جميعا على سجادة ـ ذهب وبرها ـ على الأرض حول الطعام ، ورأيتُ أختي وفاء ، كانتْ سمراء نحيفة لم تتجاوز السابعة ، وللحظة حسدتها على نعمة أن تعيش مع أب وأم ، تناولنا طعامنا في صمتٍ تقطعه أسئلة أبى كل فترة وهو يسألنا عن القرية وأحوالها ، ثم قال عم حسين في ضعف :
ـ أنا هرتاح شوية وبعد صلاة الضهر هرجع القرية .

وبعد قليل اقتادني أبى إلى غرفة أختي ، ورأيتُ سعاد زوجة أبى تشيّعني بنظراتٍ نارية ، كانتْ الغرفة ضيقة ، ضيقة جدا ، سرير صغير وخزانة ملابس لا تتجاوز قامتي ، ومقعد واحد ومنضدة ، وضعتُ حقيبتي ، وأخرجتُ ملابسي القليلة وبدأتُ أرتبها :
ـ ثوبان قديمان من السنة الماضية ، هما قديمان لكنها يصلحان للذهاب إلى الجامعة ، ثم تذكرتُ أنّ عم حسين أعطاني ثوبا جديدا تصدقتْ به إحدى الثريات ، فقررتُ أن أرتديه في أول يوم لي بالجامعة ، ثم انقبض قلبي حين علمتُ أنّ هذا الثوب لا يناسبه الحذاء الوحيد الذي أملكه ، ثم إنّ الناحية اليسرى من الحذاء ممزقة من الأمام ، لكن لا بأس ، سأحاول أن أوفر المال لأشترى حذاءً مستعملا غير ممزق ، ألقيتُ بجسدي على السرير وسرحتُ بفكري ، هل كُتب عليّ أن ألبس ما استعمله الآخرون ؟
تذكرتُ أمي وبكيت ، حتى غبتُ في نوم عميق .

حين استيقظتُ كان عم حسين غادر القاهرة وأبي لم يكن في الشقة ، وجاءتْ أختي وفاء تيقظني ، وحين خرجتُ إلى الصالة وجدتُ زوجة أبى تجلس على مقعد في تراخٍ تشاهد التليفزيون ، قلتُ :

ـ مساء الخير .
كانتْ الساعة تجاوزتْ الرابعة ظهرا ، لم تلتفتْ لي سعاد وهى تقول :
ـ وانتى إن شاء الله هتقعدى معانا لحد أمتى ؟
قلتُ بعد أن جلستُ على مقعد قديم :
ـ أيام الدراسة بس ... وفى الإجازة هرجع القرية.
قالتْ ومازالتْ تشاهد التليفزيون :
ـ أبوكى قرب ييجى .
ثم نظرتْ نحوى وأشارتْ ناحية اليمين قائلة :
ـ المطبخ من هنا ، جهزى الأكل يلا.

نهضتُ وسرتُ إلى المطبخ في بطء ، سعاد إذن ستفعل بي ما فُعِلَ بسندريلا من زوجة أبيها ، يبدو أنني سأعيش أسوأ أيام حياتي هنا ، بالطبع في ظل هذا الأب المستسلم والزوجة الجبارة لن تكون أيامي سعيدة في هذه الشقة ، لكن لا بديل ، عليّ أن أتحمل ، لكن كيفَ أتحمل أربع سنوات معها ؟!
فقط لو أن أمي على قيد الحياة ، ثم لماذا هجر أبى أمي ؟
ولماذا أخبرتني أمي أنه مات ؟
أنا أذكر ذلك اليوم ، كنت في التاسعة من عمري ، اختفى ذلك الرجل الذي كنت أناديه يوما بابا ، وحين تكرر سؤالي عنه أخبرتني أمي أنه مات ، وبعد عامين ماتت أمي ، ولم يظهر أحد من أقاربي يوم الوفاة ، ظهر عم حسين ، كان يزورني كل أسبوع ، يأتي لي بالمال ويسأل عنى ثم يرحل ، مال قليل ، مال لا يسد الحاجة لكن الرجل فقير ، ورأيت كيفَ كان يحرم نفسه من الطعام من أجل إطعامي ، كنتُ أعتقد وقتها أنه عمى أو خالي ، لكنه مجرد رجل عطوف قرر أنْ يتكفل بي ويرعاني ، ولم تنقطع عادة عم حسين حتى تخرجتُ من الثانوية العامة العام الماضي ، عندها أخبرني أنني سأسافر للإقامة في القاهرة لاستكمال دراستي ، لماذا تكفّل بى عم حسين ؟
لماذا كذبتْ عليّ أمي ؟
لماذا تزوج أبى من امرأة أخرى ؟
هل حقا من أجل إنجاب ولد ؟!

في المساء كنا نجلس على سجادة على الأرض حول الطعام ونشاهد التليفزيون ، قالتْ سعاد :
ـ أمتى هتشترى لينا حاجة نحط فيها التليفزيون بدل عمود الطوب العالي ده ؟

عندها نظرتُ إلى التليفزيون فوجدته فعلا يستقر فوق مستطيل خرسانى مرتفع ، مرتفع بشكل يجعل وجهك يتجه للأعلى قليلا وأنت تشاهده ، قال أبى :

ـ قريب أوى ... وكمان هغيّر حوض الحمام المكسور .

قالتْ وفاء في مرح :

ـ عاوزه عجلة ألعب بيها في الحارة زى هيام جارتنا .

قبّلتها سعاد وقالتْ :

ـ حاضر يا حبيبتى ... هخلّى أبوكى يشتريهالك .

نهضتْ سعاد حين فرغتْ من طعامها وقالتْ لي :

ـ اعمليلى شاى وهاتيه أوضتى ومتنسيش غسل الأطباق .

قال أبى معترضا :

ـ بس نورا لازم تنام بدري ... عندها جامعة الصبح .

قالتْ سعاد وهى تتجه ناحية غرفتها :

ـ وأنا بقا اللي هقوم بدور الخدامة ولا إيه ؟

قلتُ في انكسار :

ـ لا يا مرات أبويا ... أنا اللى هقوم بدور الخدامة ... أنا متعودة على كده.

ثم اختفتْ داخل غرفتها ، نظرتُ لأبى وأشفقتُ عليه وأومأتُ برأسي أنني سأفعل ما تريده سعاد ، فنهض في انكسار وتبعته من خلفه وفاء .

أعدتُ بقايا الطعام إلى المطبخ ، ثم غسلتُ الأطباق ، ونظرتُ في هاتفي فوجدتُ أن الوقت قد تأخر ، وبينما أنا عائدة إلى غرفتي وجدتُ أن التليفزيون مازال مفتوحا ، فبحثتُ عن جهاز التحكم عن بعد (ريموت كنترول) وهممتُ أن أغلقه ، لكنى رأيتُ أن الإرسال انقطع فجأة ، ليظهر مشهداً لم يكن بالألوان ، وكنتُ أول مرة في حياتي أرى هذا المشهد ، مشهد بالأبيض والأسود كأنه من فيلم قديم ، ظهر على الشاشة رجلان ، رجل قصير القامة نحيل الجسم مقوس الظهر أسمر الوجه يمد يده بسمكة إلى رجل أطول منه ، لكن الرجل الأطول قامة لم يأخذ منه السمكة ، بل هوى على رأسه بقطعة من حديد ، فشُجتْ رأس الرجل القصير ، فاقترب الثاني من الشاشة بعد أن سقطتْ منه السمكة وهو يمسح الدماء عن جبهته ، وقال كلمة واحدة :

ـ انقذيني .

الفصل الثاني
(نورا قاسم)

سقط جهاز (ريموت كنترول) من يدي ، وتجمعت ْدمائي متدفقة إلى وجهي ، وشعرتُ بشعر رأسي يتحرك من الرعب ، وقبل أن أصرخ عاد الإرسال كما كان ، وقد ظهر على الشاشة سمير غانم وهو ينظر باشمئزاز رافعا حاجبيه لجورج سيدهم ، كتمتُ صرختي حتى لا تصحو سعاد فتخرب بيتي ، أغلقتُ التليفزيون وأسرعتُ إلى غرفتي ، ارتديتُ حجابي وصليتُ ، ورحتُ أتمتم بآيات الله حتى هدأ روعي ونمت .

حينما استيقظتُ صباحا بدا لي ما حدث ليلة أمس مجرد خيالات وأوهام ، وقررت أن أنسى ما حدث ، أخرجتُ من خزانة ملابسي الثوب الجديد ومسحتُ حذائي ، وأحكمتُ وضع حجابي ، وخرجت .
كانتْ الساعة السابعة والنصف صباحا ، لقد دوّنتُ كل ما قاله لي أبي في ورقة :
ـ عند الميكانيكى تمشى يمين لحد ما توصلي نهاية الشارع الرئيسي ... هتلاقى عربيات أجرة رايحة محطة الزهور .... وفى محطة الزهور هتركبى عربية من اللى بيرحو الجامعة ... يدوبك عشر دقايق هتلاقى نفسك قدام باب الجامعة .

وحينما وصلتُ محطة الزهور وجدتُ نفسي في ازدحام شديد ، ارتبكتُ حينما شعرتُ أنى ضللتُ الطريق ، ثم سألتُ فتاة نزلتْ من نفس السيارة :
ـ أروح الجامعة إزاي ؟
ابتسمتْ الفتاة وقالتْ لي :

ـ تعالى معايا ... أنا رايحة الجامعة .
ركبتُ معها سيارة أجرة ، وبعد عشرة دقائق وصلنا ، وعلى باب الجامعة شكرتها ، وبعد ساعة كنتُ قد استخرجتُ (الكارنيه) ، وحصلتُ على جدول المحاضرات ، واشتريتُ الكتب الدراسية .

كنتُ منبهرة حينما ولجتُ مدرج الكلية ، وسرتُ بخطوات مترددة ، وكنتُ حريصة ألا تظهر الناحية اليسرى من حذائي الممزقة مقدمته ، كان الأولاد يجلسون بجوار البنات ، يتحدثون ويضحكون ، أحسستُ نفسي غريبة بملابسي هذه ، البنات يلبسون مثل الأولاد ، (جينز وبديهات وتيشيرتات) فانزويتُ بعيدا وبحثتُ بعينيّ عن مكان بجوار البنات فلم أجد ، توغلتُ لآخر المدرج حتى وجدتُ فتاة تجلس بعيدا عن صف الأولاد وبعيدا عن اختلاط الأولاد بالبنات ، جلستُ بجوارها .
ثم دخل أستاذ المادة ، وقال :
ـ في هذا الشهر هنتعلم البحث المكتبى ... وهنعمل زى ما عملنا الشهر االلى فات ... علشان كده حددت عشرة موضوعات تعملوا فيها الأبحاث ... طبعا شغل الفهلوة وأنكم تجيبوا البحث من مواقع الانترنت ممنوع .

فضحك الجميع وابتسم الأستاذ وأردف بعد أن أخرج بعض الأوراق :
ـ في كل بحث هيشترك طالب وطالبة ، ومش هقبل أي بحث
يقل عن 60 صفحة مكتوبين بخط الأيد ... ودلوقتى اللي يسمع اسمه يتفضل يقف .
وبدأ يقرأ الأسماء .
هل قال كل طالب مع طالبة ؟!
ما هذا المأزق ؟ معقولة !
دعوتُ الله في سرى أن يكون بحثي مع بنت ، كيفَ أتشارك مع ولد في كتابة بحث ، ثم سمعتُ الأستاذ يقول :
ـ حسام عبد المجيد .
هنا نهض أحد الطلاب ، رأيته من الخلف لأنه كان يجلس أمامي بصفين بجوار فتاة ، سرعان ما قال حسام :
ـ بس أنا قدمت بحث الشهر اللي فات يا دكتر .
قال الأستاذ :
ـ بحثك معجبنيش يا سيدى ... البحث مش موثق بمصادر .. تفضل اقعد .
فقال حسام :

ـ ومين هتكون معايا فى البحث ؟
قال الأستاذ بعد أن نظر في أوراقه :
ـ نورا قاسم .
أحسستُ بقلبي يسقط بين قدميّ ، وشعرت بأن ريقي قد جف ، واحمرّ وجهي ، وعرتْ أذنيّ سخونة ، وسمعت الأستاذ يسأل :
ـ هي فين ؟
نهضتُ في تردد ولم أتكلم ، استدار حسام ينظر نحوى ، كانتْ نظرته مزلزلة ثابتة ، شعرتُ أنه تفحص فيها وجهي وهيأتي ، غير أن نظرة الفتاة التي كانتْ تجلس جواره كانتْ نظرة مربكة لم استرح لها ابدأ .
قال الأستاذ :
ـ موضوع البحث : مسرحية الضفادع الكاتب المسرحي اليوناني أريستوفان دراسة نقدية .

ـ يا نهار أبيض ... هي وصلت للضفادع ... دا اللي كان ناقص ... ضفادع في الكلية ومرات أبويا في البيت .

طلب منا الأستاذ الجلوس وأخذ يتحدث بالفصحى :
ـ تتعلمون من خلال هذه الأبحاث المكتبية القدرة على البحث والنقد وتكوين رأى والوقوف على الأدب الروماني واليوناني من حيث القوة والضعف و.........و.......
لم انتبه لبقية كلامه ، لأنني كنتُ أنظر إلى الفتاة التي تجلس بجوار حسام ، كانتْ كل ثلاث دقائق تميل نحوه وتهمس له بكلام فيضحك ، كان شعرها أصفرا طويلا يتدلى على ظهرها في غير نظام ، وحينما كانتْ تنظر لحسام كنت أرى أديم وجهها الغض الأشقر وجزء من حواجبها المتمردة المرسومة بعناية .
قلتُ في نفسي :
ـ كل ده مكياج على وشك ... انتى أصلاً حلوة وناعمة من غير مكياج ...اه طبعا... لا عندك مرات أب تنكد عليكى ولا مستنيه صدقة من حد .

انتهتْ المحاضرة ، فنظرتُ للفتاة التي تجلس بجواري ، لأسألها لماذا لم يكلف الأستاذ جميع الطلاب بأبحاث ، لكنى تعجبتُ حينما وجدتها نفس الفتاة التي قابلتني في محطة الزهور فقلتُ :
ـ ايه ده انتى هنا ؟ ... أنا اللى سألتك على عربيات الجامعة ؟ فكراني ؟

قالتْ :
ـ هو انتي معانا في القسم هنا ؟
قلتُ :
ـ أيوه ، أنا معاكم في نفس القسم بس لسه منتظمة في الدراسة .
قالتْ :
ـ أهلا بيكى ... أنا هستأذنك بقا .
قلتُ وقد شعرتُ براحة كبيرة تجاه هذه الفتاة :
ـ رايحة فين ؟ مش احنا المفروض نستنى هنا لحد ما تبدأ المحاضرة اللي بعدها ؟
ابتسمتْ من جهلي وقالتْ :
ـ لا ... كل محاضرة بتكون في مدرج معين ... أنا هحضر ندوة في قاعة (ج) وبعدين هقابل واحدة صاحبتى على الكافتيريا .
قلتُ :
ـ كافتيريا ؟!... طيب هي فين الكافتيريا دى ؟
قالتْ مبتسمة :
ـ قدام كلية الآداب ... مبنى (ص) .
وقبل أن تنهض سألتها :
ـ وليه الدكتور مكلفش كل الطلاب بأبحاث ؟
قالتْ :
ـ في كل شهر بيكلف مجموعة معينة ... وأنا مجموعتي كانتْ في الشهر اللي فات .

وقفتُ أمام الكافتيريا ، فوجدتُ الازدحام شديدا ، كل منضدة تحيطها مجموعة من المقاعد التي يجلس عليها الأولاد والبنات جنبا إلى جنب ، وعلى كل منضدة كتب وحقائب يد ونظارات شمس وهواتف جوالة ومشروبات وسندوتشات ، كنتُ مأخوذة متلاحقة الأنفاس وأنا أرى كل هذا ، فتحتُ حقيبة يدي ، وبدأتُ أعدّ نقودي ، وقلتُ لنفسي :
ـ لا يا نورا ، الميزانية كده هتبوظ .
وتذكرتُ عم حسين حينما نصحني بأن أحافظ على النقود وأكون حذرة في الإنفاق ، ثم درتُ بنظري وسط الازدحام فرأيتُ بعض الفتيات يجلسن على مقاعد خشبية ممتدة تشبيه مقاعد استراحة المسافرين على محطات القطار .
ـ أيوه هقعد هنا أحسن ... بدل الكافتيريا وتضييع الفلوس .

توجهتُ إلى أحد المقاعد وجلستُ أكثر من نصف ساعة ، ثم أخرجتُ جدول المحاضرات ، لأعرف موعد المحاضرة القادمة ، كانتْ الساعة الثانية عشرة ، وموعد المحاضرة التالية الساعة الثانية ظهرا ، ماذا أفعل طوال هذه الفترة ، لقد استرحتُ كثيرا للفتاة التي كانتْ تجلس جواري في المحاضرة لكن أين هي الآن ؟ لابد أنها مازالت في الندوة ، ثم تذكرتُ أنني لم أسال الفتاة عن اسمها ، وبينما أفكر سمعتُ من يناديني باسمي فاهتزّ قلبي ، ونظرت لأرى حسام يقف أمامي بثقة وجراءة وقال :

ـ نورا ، تعالى نتكلم على الكافتيريا.

قالها كأنه يعرفني منذ سنين

ـ يخربيتك ! كافتيريا إيه ونتكلم إيه ؟

قلتُها في نفسي .

وحين وجد الارتباك والغباء على وجهي قال :

ـ اه ... أنا حسام زميلك في البحث .

قلتُ بخجل وبصوت متهدج وبقلبٍ تتصارع دقاته :

ـ بس .... بس البحث المفروض يتعمل في المكتبة .

كانتْ هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها مع ولد .

قال بابتسامة جذابة رقيقة :

ـ عارف ... بس فيه حاجة لازم تعرفيها .

ـ الله يخربيتك ... لو أبويا شافنى ممكن يدبحنى أصلاً ... غير كده حرام أصلاً إني أتكلم مع ولد .

قلتُها في نفسي وتخيلتُ أن زوجة أبي تراني ، ثم تمصمص شفتيها قائلة لأبى :

ـ شوف البت السهتانة .

كنتُ كالمسحورة وأنا أسير خلف حسام ناحية الكافتيريا ، وجلستُ على مقعد ، فجلس أمامي والتفتَ للوراء مناديا على النادل وقال :

ـ تشربى إيه ؟

سأشرب شاي ، فهو المشروب الوحيد الذي أستطيع دفع حسابه هنا ، هكذا حدثتُ نفسي ثم انتبهتُ لحسام وهو يقول :

ـ هتشربى إيه يا نورا ؟

قلتُ في ارتباك :

ـ شاي .

فابتسم وتحدث مع النادل ثم قال :

ـ أنا عملت بحث الشهر اللي فات مع شيرين ... بصراحة أنا عاوز أقولك إنى مش بتاع أبحاث ... علشان كده خليت واحد صاحبي يعملنا البحث ويحطى اسمى واسم شيرين عليه ... بس صاحبي ده الله يخرب بيته جاب البحث من النت من غير أي مصادر ... وأنا قدمته للدكتور من غير ما أبص فيه ... والدكتور كشف الحيلة ... علشان كده كلّفني أعمل بحث جديد... فأنا عايز منك طلب .

قلتُ في خجل وأناملي ترتعتش وفى حلقي مرارة حلوة :

ـ طلب ... طلب إيه ؟

قال في ثقة :

ـ تعملى البحث لوحدك وتكتبي اسمي معاكى فى مقدمة البحث .

حمدتُ الله في سرى، فلم أكنْ أتصور أن أتشارك في بحث مع ولد ، وأنا لا أعرف لماذا وافقت أن أتحدث معه ، ولكن كما قلتُ لكم كنت كالمسحورة ، قلتُ مسرعة :

ـ أكيد .. حاضر .

هنا حضرتْ الفتاة الشقراء ، وجذبتْ مقعدا ، وجلستْ معنا قائلة :

ـ فينك يا حسام كل ده ؟

هنا رأيتها بوضوح ، وجه مستطيل قليلا ، وأنف صارم ، وفم مختصر دقيق ، عينان خضراوان ووجه أشقر ، أمّا عن ملابسها فأجارك الله ، جينز ضيق و..... لا لن أصف أكثر من ذلك ، نظر حسام لها قائلا وهو يشير نحوى :

ـ أعرّفك يا شيرين ... نورا زميلتي في البحث .

فقالتْ الفتاة :

ـ أهلا .

قالتْها في مكرٍ وتكبر ، ثم أشار حسام نحوها قائلا :

ـ شيرين .

إذن هي شيرين التي كانتْ تشاركه في البحث الذي رفضه أستاذ المادة.

قلتُ :

ـ أهلا بيكى .

نهضتُ طالبة الاستئذان ، فقال حسام مسرعا :

ـ والشاي يا نورا .

قلتُ :

ـ مش لازم .

وجلستُ أمام إصراره المتكرر حتى حضر النادل بكوب من الشاي وكوب من العصير ، حين وضع النادل المشروبات على المنضدة طلب حسام مشروبا لشيرين التي قالتْ على الفور :
ـ فيه حتة فيلم جديد نازل السينما إنما إيه .
ثم أخرجتْ من حقيبتها الأنيقة تذكرتين ووضعتهما أمامه فقال :
ـ بس أنا انهارده لازم أروح الشركة لبابا .
قالتْ شيرين :
ـ مش مشكلة ... أنا هتصل بيه واعتذرله .
قالتْها بعد أن وضعتْ ساقا على ساق في تبسط وتجرد من الحياء ، وأخرجتْ هاتفا جوالا من الطراز الحديث ، هاتفها ملونا مزركشا وقد لُصِقَتْ على ظهره قلوب بجوار سلسلة دائرة . قال حسام :
ـ مش هينفع يا شيرين ... هو قالي لازم أعدّى عليه انهارده في الشركة .
قالتْ :
ـ الفيلم من النوع اللى تبحبه ... قصة حب جامدة ... وبعدين أنا جبتلك تذكرة .
ثم ضغطتْ على أزرار هاتفها وتحدثتْ مع والده تعتذر له .
ـ يالهوى ... وكمان تعرف نمرة باباه وبتكلمه عادى .
كنتُ أجلس بينهما صامتة كجثة ، كيفَ تجردتْ هذه الفتاة من كل درجات الحياء لتفعل كل هذا مع شخص ليس بزوجها ، رحتُ أستغفر الله في سرى ، وتذكرتُ زميلاتي في قريتي في المدرسة الثانوية ، كيفَ كنّ يتهامسن عن الحب وعن أولاد مدرسة البنين بكل جراءة ، وتذكرتُ الرجلين اللذين يتصارعان بداخلي ، أحدهما يمثل العشق ، والأخر يمثل الخجل ، ثم شعرتُ بالاختناق وكنتُ قد فرغتُ من الشاي فاستأذنت .

في المحاضرة الثانية لم أجدْ الفتاة التي كانتْ تجلس بجواري في المحاضرة الأولى ، فانزويتُ بين كومة من البنات ، لم أكنْ منصتة لأستاذ المادة ، بل كنتُ شاردة في هذا العالم الجديد الذي لا أعرف ماذا ينتظرني فيه ، ولمّا انتهت المحاضرة ، خرجتُ وأنا أراجع في عقلي طريق العودة ، كانتْ الساعة الثالثة والنصف عصرا ، قررتُ أن أسير على قدمي حتى محطة الزهور توفيرا للمال ، سرتُ قرابة عشرين دقيقة ، ومن حسن الحظ أن الطريق كان مستقيما ، لذلك لم أضل الطريق ، ثم ركبتُ سيارة ، وبعد نصف ساعة كنتُ في شقة أبى .

لم يكنْ أحد في الشقة ، لأن أبى يعود كل يوم بعد الساعة الخامسة ، أمّا زوجة أبى فقد أخبرتني بالأمس أنها ستبيت الليلة عند والدتها لأنها مريضة ، وطلبتْ منّى أن أجهز الطعام لأبى وأغسل ملابسهم ، بدّلتُ ملابسي وصليتُ ما فاتني من فروض ودخلتُ المطبخ ، وبعد دقيقتين سمعتُ مّنْ يطرق الباب ، هل عادتْ زوجة أبى ؟

خرجت إلى الصالة وقلتُ :

ـ مين ؟

سمعتُ من يقول :

ـ أنا يا قاسم .

وضعتُ غطاءً على شعري وفتحتُ الباب ، ابتسم الرجل قائلا :

ـ فين قاسم ؟

قلتُ :

ـ لسه مرجعش من الشغل ...أنا بنته .

مدّ لي يده بلفافة وقال :

ـ دى لأبوكى .

قلتُ له :

ـ طيب أقوله مين ؟

قال مبتسما :

ـ هو عارف .

ثم انصرف

كان الرجل طويل القامة ممتلئ الجسم له شارب أسود عريض ووجه أبيض باحمرار ، وشعره كان بني اللون ، أغلقتُ الباب وولجتُ إلى المطبخ لأفتح اللفافة ، فوجدت كمية كبيرة من الأسماك ، هل أرسل أبى هذه الأسماك مع هذا الرجل ؟

وبينما أجهز في الطعام انتبهتُ لشيء أفزعني ، ملامح الرجل تبدو مألوفة لدى ، أين رأيت هذا الوجه يا نورا ؟ أين ؟ أين ؟

ثم تذكرتُ ، هذا الرجل يشبه الرجل طويل القامة الذي رأيته يشج رأس الآخر على شاشة التليفزيون حينما انقطع الإرسال .

الفصل الثالث

(نورا قاسم)

حاولتُ أن أنسي أمر الرجل إلى أتى لي بالأسماك ، وعاودت تجهيز الطعام ،وبينما أنا واقفة في المطبخ راح عقلي يقارن بين الرجلين : الرجل الذي أتى بالأسماك والرجل الذي رأيته على شاشة التليفزيون ، نفس القامة ، نفس الجسم الممتلئ ، نفس العينين ، لكن الشكل مختلف ، الرجل الذي ظهر على الشاشة كان أصلع الرأس محتقن الوجه قليلا ، بينما الرجل الذي طرق الباب كان له شارب أسود عريض وشعر بني اللون ، طردتُ هذه الخواطر من عقلي وعدتُ أفكر ، أفكر في حسام ، ماذا يريد منى هذا الشاب ؟!

لا أريد أن أعلق نفسي بقصص الحب السخيفة هذه ، كلها أوهام وخرافات ، وقطعا ما أراه على شاشة التليفزيون من أفلام رومانسية مجرد خيالات المؤلفين ، وما فعلته ماجدة حينما ابتعد عنها رشدي أباظة هو نوع من السخف ، وما فعله عبد الحليم حافظ حينما فقد لبنى عبد العزيز مجرد سيناريو مكتوب ، وهنا تذكرتُ نصائح أمي :

ـ إياك والحب يا نورا .

كنتُ صغيرة وقتها لا أفهم هذه النصائح ، ثم إن حسام سيتزوج من شيرين ، وأين أنا وأين شيرين ؟!

اعتقد أن مصروفها اليومي يفوق مصروف عامي الدراسي كله ، هذه الخواطر جعلتني أتذكر الميزانية ، لقد أنفقتُ ألف وخمسمائة جنيها على الكتب الدراسة وعلى استخراج (الكارنيه) ، ولم يتبقَ إلا خمسمائة جنيه ، لقد صدق إذن عم حسين :

ـ حافظي على النقود .
لا مفر إذن من أن أحافظ على الـ خمسمائة جنيه المتبقية وأنفق منها بحذر حتى نهاية الفصل الدراسي الأول .

فى تلك الأيام القليلة التي عشتها مع أبى وسعاد علمتُ أنه يضع مرتبه بين يديها كل شهر لتقوم هي بالإنفاق ، لذلك سأكون سمجة إن طلبتُ منه مالا ، والرجل لم يعرض عليّ مساعدته من الأساس ، ولم يلمح حتى لذلك .

في اليوم التالي توجهتُ إلى الجامعة ، كانتْ المحاضرة الساعة العاشرة صباحا ، وبطريقة لا إرادية وجدتني أبحث بعينيّ عن حسام ، ثم استغفرتُ الله في سرى وعدتُ انتبه لأستاذ المادة ، كان يشرح لنا نماذج من الشعر العربي الحديث ، ثم طلب من أحد الطلاب أن يقرأ بعض أبيات الغزل ، ويبدو أن هذا الطالب معروف بحسن إلقائه للشعر ، لأن أستاذ المادة قال :
ـ أين شاعرنا ؟
نهض الشاب وكان أسمرا نحيفا له شعر ثائر ، وبدأ في الإلقاء ، صاد صمت مثل صمت القبور ، صمت لم تكن تقطعه سوى تنهيدات الزميلات ومصمصة الشفاه ، وما إن أنهى الطالب القصيدة حتى علتْ أصوات الإعجاب ، وصفق الجميع ، وطال وقت التصفيق ، سمعتُ مّنْ بجواري تحدث زميلة أخرى :
ـ إحساسه جميل أوى .
فردتْ الثانية :
ـ أكيد بيتخيل شيرين وهو بيقول القصيدة بالإحساس الجامد ده .

ما شاء الله ، الدفعة كلها بتعانى .
قلتُها في نفسي ساخرة ، ثم رأيتُ أحد الطلاب يستأذن أستاذ المادة في الدخول ، لم يكن هذا الطالب إلا حسام ، اهتزّ قلبي وشعرتُ بتوتر لا أعرف له سببا ، اخترق حسام الصفوف ، وأفسحتْ له إحدى الطالبات مكأنا فجلس بجوارها ، حين دققتُ النظر في الفتاة عرفت أنها شيرين .

انتهتْ المحاضرة وهرولتُ من فوري إلى مكتبة الكلية ، قدمتُ لأمين المكتبة (الكارنيه) ، وطلبت منه بعض الكتب والمراجع التي تساعدني على كتابة البحث ، طلب منى اسم البحث ، ثم قادني إلى أحد الأركان وأشار نحو بعض الرفوف ، بحثتُ بين الكتب ، ثم جمعتُ ثلاثة كتب عن

الأدب اليوناني والروماني ومسرحية الضفادع ، جلستُ على مقعد ووضعتُ الكتب على المنضدة ، كنتُ حريصة ألا يظهر حذائي المقطوع ، لذا مددتُ ثوبي للأسفل أكثر ،وبدأت اقرأ ، وبعد قراءة تسع صفحات وجدت أنني لا افهم شيئا :

ـ كان مالي أنا ومال قسم اللغة العربية ده ... ما كنت دخلت كلية .... كلية ماذا ؟

ثم سألت نفسي ، هل كانتْ في مخيلتي كلية معينة أود الالتحاق بها ؟

هل كان لي هدف أو حلم من الأساس ؟!

غياب الأب في حياتي وفقداني لأمي وأنا صغيرة جعلاني شخصية مهزوزة متأرجحة لا تعرف ماذا تريد ، جذبتُ الكتاب الثاني وبدأت اقرأ ، انهمكتُ في القراءة وحين رفعتُ عينيّ عن الكتاب وجدته واقفا مبتسما ، حسام طبعا ، اهتز الكتاب بين يدي ، وبلا إرادة مددتُ يدي على ثوبي لأخفى حذائي أكثر ، ثم سمعته يقول :

ـ ممكن أقعد ؟

لم أردْ من فرط الارتباك ، وحسدتُ في سرى تلك الفتيات اللاتي لديهن القدرة على التحدث مع الأولاد ، تذكرتُ تنهيدات الطالبات حين ألقى الطالب أبيات الغزل في المحاضرة ، لمح حسام الغباء على وجهي فقال :

ـ مالك مرتبكة يا نورا ... لو دايقتك أنا ممكن أمشى .

قالها وهو يهم بالانصراف ، وبدون وعى قلتُ :

ـ لا .. أقصد ...

ثم سكتُ ولم أجدْ ما أقوله ، ثم سألتُ نفسي في سرى :

ـ هو المفروض أقول إيه ... مش هو ولد وحرام انى أتكلم معاه وأقعد قدامه وجها لوجه طالما هو مش جوزي ... المفروض أصده وأمنعه يقعد معايا زى ما ربتني أمي ...ولا أعمل زى ما بشوفهم يعملوا في الأفلام وقصص الحب .

وحين طال شرودي قال حسام مبتسما وهو يجلس :

ـ بصراحة أنا حبيت أسألك لو عاوزة مساعدة في كتابة البحث .

قلتُ مرتبكة في خجِل وخوف :

ـ بس احنا اتفقنا انى هعمل البحث لوحدى لأنك مش بتحب الأبحاث .

رد مسرعا ومازال يحتفظ بتلك الابتسامة الصافية :

ـ بس يظهر انى هحبها .

سمعتُ دقات قلبي تتزايد وقلتُ وأنا أنظر في الكتاب :

ـ إزاي يعنى ... مش فاهمة .

قال وهو يضغط على كلماته التي اخترقتْ فؤادي:
- طول عمرى بكره كتابة الأبحاث لانى مكنتش أعرف انها حلوة كده .

- يانهار أبيض .
قلتُها في نفسي بعد أن شعرتُ بدوار يعمل في رأسي ، نهضتُ وخرجت من المكتبة وأنا أسير بخطوات مترددة دلّتْ على انفلات الأعصاب .

جلستُ على أحد المقاعد بالقرب من الكافتيريا ،أخرجتُ هاتفي ، نظرتُ في جدول المحاضرات لأعرف المحاضرة التالية ، في الحقيقة لم تكن هناك محاضرة تالية ، إذن كان من الممكن أن استغل هذا الوقت في كتابة البحث ، لكن يبدو أن حسام سيتتبعني مرة أخرى ، لا بأس ، سأستريح قليلا ثم أعود للبيت ، بدأتُ في لذة أتابع ازدحام الطلاب حول الكافتيريا ، أنظر إلى الفتيات وملابسهن الغريبة وطلاء وجوههن ، وسرحتُ بفكري ، هل لو وضعت على وجهي (مكياج) سيعرف أبى ؟
أعتقد أن أبى لا يهمه من الأمر شيئا ، لا أعرف لماذا لم أشعر نحوه بأي حب أو عاطفة ، ومازلتُ لا افهم لماذا هجر أمي وتركنا ؟
ولماذا أخبرتني أمي انه مات ؟
تلك الأسئلة التي طالما رفض عم حسين الإجابة عنها رغم أنى متيقنة أنه الوحيد الذي يعرف الإجابة ، أفقتُ من أفكاري حين رأيتُ إحدى الفتيات تجلس على الكافتيريا بين مجموعة من الأولاد وقد أخرجت مرآة من حقيبتها تنظر فيها ، وتعدل من وضع شعرها المتناثر بفعل النسيم ، اطمأنت على مكياج وجهها ، ثم أعادتُ المرآة الى حقيبتها .
- يالهوى ! كده عادى قدام الولاد !
قلتُ ذلك في نفسي ، وبدأتُ أغيب في خيالاتي مرة أخرى ، هل ما أشاهده من أفلام الحب هو حقيقة ؟!
هل ما أراه من صداقة الفتيات للأولاد هو أمر طبيعي وأنا جئت من العصر الحجري ؟!
منذ أن ماتت أمي وأنا أسيرة بين رجلين : أحدهما يشدني نحو صلاتي وحجابي وهذا ما ربتني عليه أمي ، والآخر يشدني نحو تصديق أفلام الحب والغرام ، أنا الآن في أشد الحاجة إلى أمي ، لو أنها معي لنصحتنى ، ولأخبرتني أين الصواب وأين الخطأ ، لكن يبدو أن أمي ربتني على أشياء ليست موجودة في الحياة الواقعية .

نظرتُ في هاتفي وقررتُ أن أغادر ، وما إن نهضتُ حتى رأيته أمامي يقول :
ـ أنا آسف ... مكنش قصدى أدايقك ... كنت بعرض عليكى المساعدة مش أكتر .
نما عرق وهمي على جبهتي من الارتباك وقلتُ :
ـ أنا هكتب البحث لوحدى ... ومتقلقش هكتب اسمك معايا .
قال وهو يتفحصنى :
ـ طيب خرجتى ليه من المكتبة ؟
قلتُ مرتبكة :
ـ علشان هروح .
قال مبتسما :
ـ بس لسه الوقت بدرى ... ما تيجى تفطرى معايا على الكافتيريا .
قلتُ في تلعثم :
ـ لا ... لا .... أفطر إيه ، أنا فطرت أصلاً .
قال مسرعا :
ـ خلاص هفطر أنا ... وانتى اشربى حاجة وبعدين تروحى .
قالها وهو يمد يده نحوى ليحمل عنى ما أحمله في يدي من كتب ، ولم يعطني الفرصة للاعتراض لأنه جذب برفق الكتب وحملها ، وكالعادة وجدتُ نفسي أسير خلفه كالمسحورة .

جلسنا حول منضدة دائرية على الكافتيريا ، حضر النادل ، فطلب حسام لي عصيرا وطلب لنفسه إفطارا ، ثم نظر في عينيّ وقال :
ـ أنا مش باجى الجامعة كتير ... واحتمال أغيب الأسبوع اللى جاى ... فياريت تكلميني لو احتجتى أي مساعدة .
قلتُ بأنفاس متلاحقة :
ـ شكرا ... أنا لو احتجت حاجة هطلبها من مشرف المكتبة .
قال وهو يمد يده نحو حقيبتي الموضوعة أمامي على المنضدة :
ـ هاتى تليفونك .
قلتُ مرعوبة :
ـ ليه ؟
قال وهو يفتح حقيبتي :
ـ هسجل رقمى ... علشان لو احتجتى حاجة ...علشان البحث يعنى .

كنتُ في غاية الخجل حينما أخرج هاتفي ، لأنه هاتف قديم الشكل والطراز ، هاتف (زراير) فقط ، ليس له (شاشة لمس) ، اشتراه لي عم حسين حين نجحتُ في الثانوية العامة ، بدا العجب على وجه حسام حينما رأى الهاتف وقال :

ـ الخط بتاعك في العدة دى ولا معاكى عدة تانية ؟

قلتُ في خجل :

ـ لا ... هو ده تليفوني .

قام بتسجيل رقمه وأعاد الهاتف إلى حقيبتي ، ثم نهضتُ وقلتُ :

ـ طيب أنا هستأذن .

قال متعجبا :

ـ ليه ديما مستعجلة كده يا نورا ... والعصير يعنى أرجعه تانى .

قلتُ :

ـ بس أنا أتأخرت أصلاً .

قال :

ـ خلاص العصير مش هيتأخر ،... بس أنا عاوز أقولك حاجة قبل ما تيجى الشلة وتهجم علينا .

قلتُ في تعجب :

ـ شلة إيه ؟

قال :

ـ الشلة بتاعتى يا ستى ... زمانهم بيدورا عليا .

حينما لم يجد منّي ردا قال :

ـ أنا عيد ميلادي بكرة ... وطبعا انتى معزومة ومفيش اعتذار .

ـ الله يخرب عقلك ... انت طلعتلى منين بس .

قلتُها في نفسي ، ثم قلتُ له مسرعة :

ـ عزومة إيه ... لا لا ... أنا ...

قاطعني قائلا :

ـ كل الشلة جاية ... ومش عاوزك تكسفينى .

قلتُ :

ـ مش موضوع اكسفك ... بس بصراحة أنا مش بتاعت حفلات وأرقام تليفونات وكده ... مش هينفع أصلاً .

قال :

ـ أنا ملاحظ انك بتستخدمى كلمة (أصلاً) كتير .

قلتُ :

ـ مش عارفه ... بس تعودت أقولها .
جاء النادل بالعصير وبالطعام ووضعهم على المنضدة وانصرف ، قدم لي حسام العصير وهو ينظر في عينيّ قائلا :
ـ طيب هي الحفلة عيب ولا حرام ؟ ... معظم زمايلنا هيكونوا موجودين ، اقعدى معانا شوية وروحى .
قلتُ ومازلتُ أرتعش بداخلي :
ـ بس مينفعش أصلاً اروح بيت ولد ... وأنا جديدة فى الكلية ومعرفش حد منهم .
قال :
ـ بس تعرفيني أنا .
ثم صمتَ قليلا وتابع :
ـ أنا مش هضغط عليكى ... بس الشلة كلها جاية بكرة ... الورقة دى فيها عنواني لو غيرتى رأيك.
كدتُ أن أقول شيئا لكنني صمتُ حينما رأيت شيرين وشابين أحدهم الشاب الأسمر النحيل الذي كان يلقى الشعر في المحاضرة ، حضروا نحونا تسبقهم ضحكاتهم ، قالتْ شيرين في مرح :
ـ كده تفطر من غيرنا ... ايه الندالة دى ؟
قال الشاب الأسمر :
ـ شكله يا ستى عاوز يهرب من عزومة عيد الميلاد .
قال الشاب الآخر وهو يمد يده نحو الطعام قائلا :
ـ اعمل حسابك يا حسام أنا مش هقعد فى الحفلة إلا نص ساعة
قالتْ شيرين وهى تجذب مقعدا لتجلس بجوار حسام :
ـ ليه يا أبو نص لسان ؟
أجابها الشاب :
ـ أختي يا ستى جايلها عريس انهارده .. وبابا راسه وألف سيف إني أكون موجود .
قال الشاب الأسمر وهو يجلس بدوره :
ـ معرفتناش بالانسة يا حسام .
قال حسام :
ـ هو انتو ادتونى فرصة .
ثم أشار نحوى قائلا :
ـ دى نورا زميلتنا في الكلية وزميلتي في البحث .
ثم أشار ناحية الشاب الأسمر قائلا :

ـ ودا شريف يا نورا ... شاعر الكلية .
هززتُ رأسي ولم أعرف ماذا أقول ، فسمعتُ حسام يقول وهو يشير ناحية الشاب الآخر :
ـ ودا أحمد .... ابن عم شيرين .
ـ ياللهوى ... ايه ده ... ابن عمها وهى عادى كده قدامه .
قلتُها في نفسي متعجبة ، ثم سمعت أحمد يقول :
ـ ايه الحظ المنيل بتاعك يا آنسة نورا؟... اللى وقعك مع حسام في البحث .
فضحك الجميع ، ورأيت شريف الشاعر يضرب كفه بكف شيرين انبهارا بما قاله أحمد ، ابتسمتُ دون إرادة ، ثم سمعتُ شيرين تقول لي :
ـ هيقولك هساعدك فى البحث وهيعملك من البحر طحينة ومش هتشوفى وشه إلا بعد تسليم البحث .
قال حسام بلهجة محتدة :
ـ خلاص يا جماعة .
ثم نظرة نحوى قائلا :
ـ أنا فعلا هساعدها ... بس هي تأمر .
انزويتُ في مقعدي منكمشة وسمعتُ دقات قلبي تتعالى كطبل ، وسمعتُ شريف الشاعر يقول :
ـ يا سلام ، يحضرني قول الشاعر ....
فقاطعته شيرين في لهجة لا تخلو من عصبية قائلة وهى تنظر نحو حسام :
ـ اه ... ما أنا استغربت لما سألت عليك لقيتك رحت المكتبة اللي عمرك ما دخلتها ولا كنت بتطيقها .
قال حسام بعصبية ملحوظة :
ـ وبعدين يا شيرين ؟
ساد جو من التوتر والصمت ، فقال أحمد :
ـ خلاص يا حسام ... شيرين بتهزر ... وبعدين أنت من أمتي بصحيح بتروح المكتبة
هنا نهضتُ مرتبكة واستأذنت ، ثم غادرت .

خرجتُ من باب الجامعة ، وتوفيرا للمال قررتُ أن أسير على قدميّ إلى محطة الزهور ، بعدها أركب سيارة إلى البيت ، خاصة أن ما معي من مال كان قليلا ، وقد قسّمتُ ما معي من مال ليغطى كل تكاليف الفصل الدراسي الأول ، في محطة الزهور ركبتُ إحدى سيارات الأجرة ، سرحتُ بخيالي

فيما حدث ، كنتُ أنظر إلى الشارع والناس عبر زجاج النافذة وأسأل نفسي ماذا يخبئ لي القدر؟!
قال السائق بصوت متحدرج بعد أن سعل وبصق :
ـ الأجرة يا حضرات .
ورأيت السيدة التي تجلس بجوار السائق تمد يدها له بالأجرة ، فنظر في النقود وقال لها :
ـ الأجرة بقيت 6 جنيه يا مدام .
يا للكارثة !
الأجرة كانتْ بخمسة جنيهات ، ما الذي حدث ؟!
المصيبة أنني لا املك إلا خمسة جنيهات فقط في حقيبتي ، لم تعترض السيدة ولم يعترض أحد ، ورأيت السيدة تعطى السائق جنيها إضافيا ، بحثتُ في حقيبتي على جنيه إضافي فلم أجد .
ـ ايه المصيبة اللي وقعتى فيها يا نورا ... طيب هعمل إيه دلوقتى وهقول إيه.
بدأتُ أبحث في جيوبي وفى حقيبتي مرة أخرى فلم أجد إلا الخمسة جنيهات، كادتْ دموعي أن تسقط ، ثم رأيتُ من تنظر نحوى وتقول :

الفصل الرابع
(نورا قاسم)

بدأتُ أبحث فى جيوبي وفى حقيبتي مرة أخرى فلم أجدْ إلا الخمسة جنيهات ، كادتْ دموعي أن تسقط ، ثم رأيتُ مَنْ تنتظر نحوى وتقول :
ـ خلاص دفعتلك .
حينما دققتُ النظر وجدتها الفتاة التي أوصلتني إلى الجامعة أول مرة ، انتظمتْ دقات قلبي وبدأتْ رعشتي تتلاشى ، وتعجبتُ حينما رأيتها تنزل في نفس المكان الذي أسكن فيه ، شكرتها ثم قلتُ لها بينما نحن نسير :
ـ ايه ده ... انتى ساكنة هنا ؟!
عرفت أنها تسكن أول حارتي في نفس بيت الميكانيكي بالطابق الثالث ، كما عرفتُ أن اسمها (مكة) .
أصرّتْ مكة أن أصعد معها إلى شقتها ، ترددتُ في بداية الأمر ثم قبلتُ حينما علمتُ أنها تعيش مع والدتها فقط ، حينما دخلتُ رأيتُ أمها تقرأ القرآن على سجادة صلاة ، ولا أستطيع أن أصف مقدار ما شعرتُ به من راحة نفسية وطمأنينة في هذا البيت ، ولا أعرف هل لأنني يتيمة فاقدة لجو الترابط الأسرى أم لما وجدته في أمها من حب وعطف ووجه مضيء ؟
رحبتْ بنا أمها وحينما أخبرتها مكة أنني زميلة دعتْ لنا بالنجاح والتوفيق ، وفى حجرة مكة جلسنا ، قالتْ بعد أن قدمتْ لي عصيرا :
ـ عملتى إيه فى البحث ؟
قلتُ :

ـ ولا حاجة ... أنا عمرى ما عملت بحث أصلاً ومش عارفه ابدأ إزاي
قالتْ :
ـ هو البحث عن إيه فكرينى .
قلتُ :
ـ عن مسرحية الضفادع دراسة نقدية .
قالتْ وهى مبتسمة :
ـ يعنى يخلص فى قعدتين .
قلتُ في جهل :
ـ إزاي بقا ؟... دا أنا أصلاً مش فاهمة كلمة دراسة نقدية يعنى إيه .
قالتْ :
ـ بصى يا نورا ... دراسة نقدية يعنى تنقدي المسرحية الشعرية ... تقرأيها وتطلعى منها الجماليات ، الخيال زى التشبيهات وتطلعى المحسنات البديعية وتتكملى عن الشاعر وجو النص ومناسبة المسرحية .
قلتُ مازحة :
ـ يعنى أروح للشاعر وأقوله أنتَ قولت المسرحية بمناسبة إيه .
قالتْ ضاحكة :
ـ الشاعر مش هيرد عليكى .. ربنا يبشبش الطوبة اللى تحت راسه ... انتى تروحى للمراجع والمصادر هي اللي هترد عليكى .
قلتُ في انبهار :
ـ وانتى عرفتى كل ده إزاي ؟
قالتْ :
ـ ندوات ...كتب ... مواقع انترنت .
قالتْها وهى تشير إلى جهاز الكمبيوتر القريب من سريرها .
قلتُ :
ـ بس أنا معنديش كمبيوتر .
قالتْ :
ـ مش مهم ... ما انتى أكيد عندك نت على تليفونك .
قلتُ في حرج وأنا اخرج هاتفي :
ـ لا تليفونى آخره يقول الوو .

نهضتْ مكة وقامتْ بتشغيل الكمبيوتر ، علمتّني الولوج إلى مواقع ومنتديات ، وكيفَية البحث عن المعلومات ، ثم أجلستني مكانها وطلبتْ منّى

أن أتصفح وأتعلم ، بينما غابتْ هي قليلا خارج الغرفة ، ثم عادتْ وقالتْ وهى تمسك بهاتفها :
ـ تعالى أعلمك بقا إزاي تفتحي نت على التليفون علشان لمّا تشترى تليفون حديث تعرفى تبحثى عن اللى عيزاه .
ـ اشترى تليفون إيه يا حسرة ... ما انتى متعرفيش حاجة .
قلتُ ذلك لنفسي ، واستأذنتُ منها وانصرفت .
في الحقيقة قضيتُ معها ساعة لا تُنسى ، وقررتُ بيني وبين نفسي أن أكرر زيارتي لها .

في اليوم التالي ذهبتُ إلى المحاضرة ، لم أجدْ حسام أحدا من شلته ، فتذكرتُ حفلة عيد ميلاده .
ـ أكيد طبعا مشغول في التحضير للحفلة وشيرين معاه .
ثم رحتُ أحدث نفسي .
ـ طيب وأنا مالى أصلاً ؟!
انتهتْ المحاضرة ولم تكن ثمة محاضرات أخرى في هذا اليوم ، ولم يكن مزاجي رائقا لدخول المكتبة ، شعرتُ بالوحدة والاكتئاب ، كانتْ الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة ظهرا ، فقررتُ العودة للبيت .

في البيت كان ينتظرني طنا من الأعمال التي كلّفتني بها زوجة أبى ، كانتْ تشاهد التليفزيون وأنا أصارع الأطباق في المطبخ ، أنجزتُ ما أمرتني به بسرعة ، وارتديتُ ملابسي ، قالتْ زوجة أبى :
ـ على فين إن شاء الله ؟
قلتُ في خوف :
ـ رايحة عند صاحبتي .
لماذا كذبتً عليها ؟
لا أعرف ، لكنها المرة الأولى التي أكذب فيها على أحد ، وكنتُ متيقنة أنها لن تكون الأخيرة.
قالتْ ساخرة :
ـ وكمان بقا عندك صحبات ؟!
قلتُ :
ـ اه هي ساكنة هنا قريب ... تعرفت عليها بالصدفة ... مش هتأخر يا مرات أبويا .

عرجتُ على بعض محلات الأحذية الرخيصة ، وحين راق لي أحد الأحذية ولجتُ داخل المحل ، فابتسم لي الرجل قائلا :
ـ تحت أمرك يا آنسة .
أشرتُ له ناحية الحذاء ، فجذبه ثم وضعه بين يديّ قائلا :
ـ بـ 170 جنيه .
ـ يا لهوى ... أنا أصلاً مش معايا إلا 400 جنيه مصاريف التيرم كله
قلتُ في تلعثم :
ـ هو مينفعش بأقل من كده ؟
لم يتنازل الرجل عن جنيه واحد ، وأخذ يعدد مزايا الحذاء فشكرته وانصرفت .
ـ يا خسارة يانورا ... كان هيبقى تحفه على الطقم ده ... وعلى الأقل ارتاح من الحذاء ده اللى قرب ينطق ويقولى ارحمينى بقا .
عدتُ أصبر نفسي بعبارات على غرار (مش مهم المنظر يابت المهم الجوهر) ، طبعا هي عبارات نصبر بها أنفسنا نحن الفقراء، رغم أن المجتمع لا يعترف إلا بالمظهر .
أخرجتُ من حقيبتي ورقة مدوّن فيها عنوان حسام .
ـ بس اروح المكان ده إزاي ياربّى ؟
ـ اسألى يانورا ..اللى يسأل ميتهش .

بعد عناء وأسئلة استطعتُ الوصول ، كان يقطن في مكان راقٍ غير مزدحم ، لم يكن شقه ولا بيتا كما تخيلتُ ، بل كانتْ (فيلا) ، فيلا أنيقة تقبع وسط الأشجار التي يداعبها الهواء النظيف والنسيم المنعش ، حديقة واسعة ، حمام سباحة ، أزهار ، جراج للسيارات ، أشياء لم أراها إلا في التليفزيون ، ولجتُ إلى الصالة التي تنبعث منها الموسيقي ورأيت الشلة ، ومناضد ومشروبات ، شباب وفتيات ، كل شيء حالم جميل ، لكن انقبض قلبي حينما رأيت ملابس الفتيات لأني شعرتُ أن ملابسي وهندامي لا يتناسبان مع ما أراه لدرجة أنني فكرتُ في المغادرة قبل أن يشعر بى أحدهم .
كان حسام غارقا في ضحكات متواصلة مع الشباب والبنات ، لكن ما إن رأني حتى تركهم مسرعا نحوى ، مما جعل الجميع ينظرون إلىّ ، فشعرتُ بلذة وارتباك، قال حسام :
ـ معقولة ؟!... لا بقا ... دا أنا كل يوم هعمل عيد ميلاد .
يخرب عقلك ... ايه اللى بتقوله ده .. هى ناقصة ارتباك يعنى ..ما أنا مرتبكة لوحدى أصلاً .

شكرته ، ثم جلستُ على مقعد قريب ، بعيدا عن جو الاختلاط والازدحام .
ـ يا ترى اللى أنا بعمله ده صح ولا غلط ؟... حلال ولا حرام ؟
ـ لا مش وقته خالص يا نورا... مش وقت هواجس ونكد وعقد .. خلينى أتفرج وأشوف الناس الاغنيا عايشين إزاي .
أحضر لي حسام مشروبا وقال :
ـ يا ترى فيه موسيقى معينة تحبي تسمعيها ؟
قلتُ مسرعة :
ـ لا لا ... عادى .
قال مبتسما :
ـ لا طبعا مش عادى .
قلتُ :
ـ إزاي يعنى ؟
قال ناظرا في عينيّ :
ـ عيد ميلادي انهارده مش عادى ... دا أحلي عيد ميلاد عملته في حياتي ..عارفه ليه ؟
قلتُ فى غباء :
ـ ليه ؟
أجاب :
ـ علشان نورا الجميلة جات بنفسها علشان تقولي كل سنة وانت طيب .
كاد كوب العصير أن يسقط من يدي ، وقلتُ وأنا أنهض في ربكة :
ـ طيب أنا هستأذن .
أمسك يدي وشدني لأجلس قائلا :
ـ خلاص يا ستى ... انتى مش جميلة ولا قمر حتى ... اقعدى بقا .
قلتُ وأنا اجلس بعدما نزعتُ يدي من يده :
ـ لو سمحت يا حسام أنا مش بحب الكلام ده .
قال :
ـ ومش بتحبيه ليه ؟
أجبتُ :
ـ متعودتش حد يقولي كده أصلاً ... ومعرفش أرد أقول إيه .
قال :
ـ سيبى قلبك هو اللى يقول .
قلتُ في خجل وأنا أتحاشى النظر نحوه :
ـ بص ... روح شوف صحابك وأنا هقعد هنا أتفرج .

بعد قليل دخل خادم يدفع منضدة أمامه عليها (تورته) مرتفعة هرمية الشكل حولها دائرة من الشموع ، ثم تقدمتْ سيدة عرفتُ فيما بعد أنها والدة حسام ، وأشعلت الشموع ، ثم حضر رجل طويل القامة أصلع الرأس يرتدى بذلة أنيقة وصافح الذين يصطفون حول الشموع ، شعرتُ بأنني رأيت هذا الرجل من قبل ، لكن أين ؟!
لا أتذكر ، أسرع حسام نحوى وقال :
ـ بتعملى ايه ؟... يلا تعالى هنطفى الشموع .
نهضتُ في حرج وسرتُ خلفه ووقفت في الدائرة ، كان بجواري شريف الشاعر الذي قال :
ـ عقبال عيد ميلادك يا نورا .

كانتْ الضوضاء تطغى على كل شيء ، ثم أطفئتْ أنوار المصابيح فظهرتْ ظلالنا فوق (التورته) تتراقص ، وبدأ الجميع في الغناء ، كنتُ صامتة أنقل نظري بين وجوههم ، وحين انتهتْ الأغنية أطفأ حسام الشموع ، وعادت أضواء المصابيح فعادتْ الضوضاء معها، اقتربتْ والدة حسام منه وقبّلته وقدمتْ له هدية ، كذلك فعل الرجل الذي يرتدى بذلة ثم انصرف سريعا ، واقتربتْ شيرين من حسام وقبلته وقدمتْ له هدية ، كانتْ ترتدي فستأنا قصيرا مكشوفا من الأعلى ، ثم سمعتُ شريف الشاعر يقول :
ـ سمع هسسسسس ... اسمعوا القصيدة دى بمناسبة عيد الميلاد .
قال أحمد :
ـ يا عم احنا مش في ندوة ... لو قلتُ بيت واحد هقتلك .
قال شريف ضاحكا بعدما حمل هرم (التورته) بين يديه :
ـ طيب وحياة الصداقة لو مش هتسمعوا قصيدتى ولا واحد هيدوق التورته .

صفق الجميع وهتفوا باسم شريف فبدأ ينشد القصيدة ، كانتْ شيرين تنظر بعينين حالمتين نحو حسام ، قابضة بيدها على يده ، حينما أنهى الشاعر قصيدته صفق الجميع ، ثم انتبهتُ أنني الوحيدة هنا التي ترتدي الحجاب ، في الحقيقة لم أكن أعرف ما عليّ فعله ، لذلك كنتُ جامدة صامتة ، ثم انطلقتْ موسيقى هادئة ، واقترب كل شاب من فتاة وأحاطها بذراعه وبدأوا في الرقص على الأنغام الهادئة ، كانتْ شيرين تضع يدها اليسرى على كتف حسام الأيمن ، بينما يضع هو يده اليمنى أعلى خصرها .

انسللتُ خارجة من البهو المتسع ، وهبطتُ إلى الحديقة متجهة للخارج ، وما إن خطتْ قدميّ الشارع حتى شعرتُ بدمعة حارة تسقط من عيني ، لم أكن أعرف لها سببا لكنى جففتها بسرعة ، وسرتُ أبحث عن سيارة أجرة ، اكتشفتُ أن سيارات الأجرة تكون قليلة جدا في مثل هذه الأماكن الراقية ، اكتشفتُ ذلك حينما رأيتُ أن كل السيارات التي تمرق أمامي
هي سيارات (ملاكى) ، وشعرت بالخوف .
- هتروحى إزاي يا نورا؟ ... الشوارع هنا فاضية ومفيش حد تسأليه .
سرتُ للأمام على أمل أن أجد سيارة أجرة أو أجد من يدلّني على أقرب موقف للسيارات ، وفجأة رأيتُ سيارة أنيقة تقف بجواري ، وسمعته يقول :
- نورا ... انتى مشيتى ليه ؟
قلتُ وأنا أقاوم انهمار دموعي :
- لا مفيش ... أنا أتأخرت أصلاً .
قال :
- دا لسه يدوبك الحفلة هتبدأ ... تعالى ارجعي كمّلي معانا الحفلة .
قلتُ :
- لا شكرا ... أهلي هيقلقوا عليا .
ثم قلتُ في سرى :
- قال يعنى عندي أهل ممكن يقلقوا عليا بجد ... دا أنا مرات أبويا بتسألنى رايحة فين وجاية منين علشان نفسها تمسك عليا غلطة تخلى أبويا يمنعني من التعليم .
قال وهو يفتح لي باب السيارة :
- طيب اركبى أوصلك .
قلتُ مسرعة :
- اركب إيه؟... لا مش هينفع .
قال في إصرار :
- أنا اللي مش هينفع اسيبك تروحى لوحدك .
انطلقتْ بنا السيارة وهذا أخر ما كنتُ أتوقعه في حياتي ، أن أركب سيارة مع شاب ليس بزوجي ، قال حسام :
- يعنى ينفع كده كنتى عاوزه تمشى من غير كل سنة وانت طيب .
قلتُ وأنا أضغط على أصابعي من التوتر :
- بصراحة أنا كنت محرجة .
قال متعجبا :
- محرجة؟! ... محرجة من إيه ؟

أجبتُ :
ـ محرجة إني مجبتش هدية زيهم .
قال وهو يختلس النظر إليّ :
ـ حضورك انهارده كان أحلى هدية .
احمرّ وجهي وضغطتُ على أصابعي أكثر ولم أرد ، فقال :
ـ بس انتى ليه كنتى قاعدة لوحدك ومش مندمجة معانا ؟ هي الحفلة معجبتكيش ؟
قلتُ :
ـ لا أبدا ... بس أنا مش متعودة... وكمان مكنتش عارفه المفروض اعمل إيه .
قال مبتسما :
ـ ما أنا قلتلك اعملي اللي قلبك يقولك عليه ... يعنى أنا مثلا قلبي كان بيقولي إني أرقص معاكى .
قلتُ مسرعة :
ـ لا لا ارقص إيه !... أنا مقدرش ...ومعرفش أعمل كده أصلاً ... بس فيه كتير غيري يعرفوا .
قال :
ـ اه ...
قالها طويلة ممدودة لكن قالها مبتسما سعيدا .

نزلتُ بعيدا عن الحارة قبل الشارع الرئيسي ، وشعرتُ أنني في حاجة للمرور على مكة ، صعدتُ الطابق الثالث ، فتحتْ لي والدتها الباب ورحبتْ بي بوجهها المريح المضيء ، حينما دخلتُ وجدتُ مكة تجلس وبجوارها ثلاث فتيات لم يتجاوزن العاشرة ، تمسك كل منهن بمصحف وكانتْ مكة تحفظهن القران ، شعرتُ بوخذة في قلبي ، وعاد الرجلان اللذان يقبعان بداخلي يتشاجران ، رحبتْ بي مكة ، وحينما انتهتْ مع الفتيات وانصرفن وجدتُ نفسي أنفجر في البكاء .

الفصل الخامس
(قاسم عبد العزيز)
لكل منا أسرار يمكن أن تذاع ، وأسرار أخرى دفينة يكره صاحبها أن تُنشر ، أمّا عن أسراري الدفينة التي أكره أن يعرفها أحد ، فهي ستظل معي حتى موتي ، ولن يعرفها أحد سوى حسين الأعرج ، لماذا ؟
لأنه شهد معي تلك الأيام ، أيام الطفولة والشباب ، وفى خلال الصفحات القليلة القادمة سأقصُ عليكم بعض أسراري التي لن انزعج إنْ نُشرت ، لماذا تركتُ زوجتي ليلى وابنتى نورا ؟
يا له من سؤال !
ولنْ أجيب عنه طبعا ، المهم أنى تركتهم ، ذهبتُ إلى القاهرة ، عملتُ سائقا لدى إحدى الشركات ، وكان الأجر زهيدا ، وكنتُ أقيم في الشركة ، وتعرفتُ على سعاد ، واستطعتُ ادّخار بعض الأموال التي شجعتني أن أحصل على شقة بالإيجار ، دلّني أهل الحِلّ على شقة أسكنها ، حارة الميكانيكي ، مكان عشوائي فقير لكن يفي بالغرض ، فلمْ أكنْ أحلم بأن أعيش في قصر على أي حال ، وما أثار انتباهي أن الحاج سعيد صاحب البيت لم يطلب مبلغا فادحا ، بل تركني أنا من أحدد الإيجار ، كنا نجلس على مقهى قريب وتم كل شيء بسرعة :
ـ تدفع كام يابنى ؟
قلتُ :
ـ أنتَ عايز كام إيجار وكام تأمين يا حج سعيد ؟
قال الرجل وهو يكركر النرجيلة :
ـ اللى تشوفه انت .

قلتُ بينما أرشف الشاى :
ـ بصراحة أنا مش معايا فلوس كتير .. يعنى قرشين كده على قد ظروفي .
قال الحاج سعيد :
ـ بلاش تأمين خالص .
معقولة ! هذا الرجل إمّا أن يكون زاهدا أو مغفلا ، قلتُ :
ـ طيب والإيجار ...عايز كام فى الشهر ؟
قال :
ـ قلتلك مش هنختلف ... انت تقدر تدفع كام ؟
قلتُ من فورى :
ـ 200 جنيه حلو ؟
قلتُها متوقعا أن يعترض ، لكن الرجل فاجئني بقوله :
ـ اتفقنا .
قالها بعد أن قبّل يديه وأخرج من جيب جلبابه الواسع أوراقا لأوقع باسمي على عقد الإيجار .

اشتريتُ سريراً وأريكة وبعض الأثاث المستعمل القليل ، وبعد يومين بينما أصعد درجات السلم قابلني رجل في الستين من عمره ، عرّفني بنفسه أنه يسكن الطابق الثاني ، ثم قال :
ـ أها ...أنت الساكن الجديد ... ساكن شقة الطابق الثالث ...صح ؟
تعجبتُ من تدخله في الأمر ، لكنّي أومأتُ برأسي موافقا ، فقال في شفقة :
ـ مسكين ... وكم دفعت للحاج سعيد ؟
هممتُ أن أقول أن هذا ليس من شأنك لكنني شككتُ أن ثمة لغز في الموضوع فأجبت :
ـ 200 جنيه إيجار .
قال الرجل :
ـ وطبعا بدون تأمين ؟
أجبتُ فى تعجب :
ـ نعم .
قال ساخرا :
ـ مغفل ... شقتك مسكونة يا ولدى .
بدا الرعب على وجهي ، وقلتُ مسرعا :
ـ مسكونة ؟! إزاي ؟
قال :

ـ مسألتش نفسك فيه شقة بـ 200 جنيه ومن غير تأمين كمان في زمنا ده .
قلتُ :
ـ قولي أرجوك ... مسكونة إزاي ... وانت عرفت إزاي ؟
قال وهو يهبط درجات السلم :
ـ هتعرف بنفسك .

بعد يومين وفى ليلة لا أنساها ، كنتُ غارقا في نوم عميق كجثة أمنمحات ، وسمعتُ جلبة وحركة في المطبخ ، نظرتُ في ساعتي بعين مغمضة فوجدتها الثانية بعد منتصف الليل ، نهضتُ من سريري وتوجهتُ للمطبخ وكان ما رأيته مرعباً ، رأيتُ المقلاة موضوعة على موقد البوتاجاز وبداخلها ثلاثة أسماك تبقبق في الزيت ، تجمد الدم في عروقي وشعرتُ بأن بقعة سوداء تتسع أمام عينيّ ، فعرفتُ أنني على وشك الدخول في إغماء أو سكتة قلبية ، قرأتُ المعوذتين ورحتُ أبحث بيدي المرتعشة على زر المصباح ، وما إن أضاء المصباح اختفتْ المقلاة بما فيها من زيتٍ وأسماك ، أضأتُ جميع مصابيح الشقة ، وعزمتُ أن أقضى ما تبقى من ساعات الليل متيقظا ، جلستُ في الصالة وبدأت أفكر ، أنا لم أحضر أسماكا ، هل ما رأيته كان حقيقيا ؟ هل أنا مرهق وقلة نومي هي من صورتْ لي هذا ؟ إذن الرجل الذي أخبرني بأن الشقة مسكونة كان على صواب .
يا للكارثة !
أنا سأتزوج سعاد بعد شهر ، كيفَ لو عرفتْ ؟
لولا سعاد ما كنتُ انتقلتُ إلي عملي الجديد ، فقد أوصتْ أحد أقاربها الأغنياء ليجد لي عملا في شركته ، وقد حدث ، ولولا هذا العمل ما كنتُ استطعتُ أن أجد شقة طوال حياتي ، وبينما أنا غارق في تفكيري سمعتُ أذان الفجر، فخرجتُ من فوري لأداء الصلاة في المسجد ، وبعد الصلاة جلستُ على أحد المقاهي أبدد الوقت حتى شرقتْ الشمس ودبّتْ الحياة في الحارة ، وذهبتُ إلى العمل .

لم يتكرر هذا الموقف ، لكن ما حدث بعد ذلك كان شنيعا ، بعد أسبوع من حكاية المطبخ كنتُ جالسا في الصالة أشاهد التليفزيون ، ثم سمعت مَنْ يطرق الباب ، لا أحد يعرفني هنا سوى سعاد ، ولا أعتقد أن عم حسين الأعرج جاء من القرية لزيارتي ، فتحتُ الباب فوجدتُ رجلا يرتدى جلبابا ، قاسى الملامح له شعر بني اللون وشارب أسود عريض ، قلتُ :
ـ عايز مين ؟

قال الرجل مبتسما :
ـ مش انت قاسم .... السواق ؟
أومأت برأسي متفقا ، فقال هو يقدم لي لفافة :
ـ السمك اللي طلبته .
قلتُ :
ـ سمك ؟!... أنا مطلبتش سمك ... وانت مين وعرفت اسمى إزاي ؟
قال في لا مبالاة :
ـ يا عم قاسم ...انت من ساعة طلبت اوردر بـ 3 كيلو سمك .
قلتُ متعجبا ومحدقا في الرجل :
ـ اوردر ؟!... أكيد أنت غلطان .
قال في إصرار :
ـ أنا مش غلطان ... الاوردر باسم قاسم عبد العزيز أمين ، شقة الدور التالت ... بيت الحاج سعيد ...حارة الميكانيكي ... صح ولا أنا غلطان ؟
هرشتُ عقلي الذي توقف عن التفكير :
ـ صح .
قال بينما يضع بين يدي اللفافة :
ـ طالما صح يبقى بتضيع وقتى ليه .
قالها ثم غادر .

حينما فتحتُ اللفافة وجدتُ ثلاثة أسماك ضخمة عملاقة ، وما أثار رعبي أن تلك الأسماك كانتْ في نفس حجم الأسماك التي رأيتها في المقلاة ، هل أنسى الأمر وأتجاهل ما يحدث ؟ أم ..... أم ماذا ؟
لن أترك الشقة إن كنتَ تظن ذلك ، فتركُ الشقة يعنى ببساطة المبيت في الشارع ، ويعنى تأجيل زواجي من سعاد ، وتأجيل زواجي من سعاد يعنى طردي من العمل ، فزواجي من سعاد مقرون باستمراري في العمل ، هي مطلقة وأنا متزوج ، لكنني أخبرتها كذبا أنني طلقتُ زوجتي ليلى ، هي تعلم أن لي ابنتي نورا من زوجتي ليلى ، لكن قطعتُ معها وعدا أن أقطع علاقتي بالقرية وألا أسمح لابنتي نورا بالظهور في حياتي ، لماذا أقص عليكم هذه الأسرار ، أنا أفهمكم ، أنتم تحاولون استدراجي لأحكى أسراري الدفينة ، لكن لن أفعل ، ودعوني أكمل لكم قصة الشقة المسكونة .

بعد يومين تكرر موقف الرجل الذي أتى لي بالأسماك ، لكن هذه المرة جذبته من ملابسه ودفعته لداخل الشقة وأحكمتُ إغلاق الباب وصرخت في وجهه :
ـ انت مين ؟ وايه حكايتك ؟
لم أنتظر منه إجابة لأنني أردفتُ بينما أضغط بكلتا يدي على رقبته :
ـ أنا مطلبتش سمك .... وعايز أعرف انت عرفت اسمى إزاي ؟
قال الرجل وهو يحاول التخلص من قبضتي :
ـ أخزى الشيطان وسيبنى حرام عليك ... أنا مجرد واحد شغال في المحل ... وينفذ أوامر صاحب المحل .
قلتُ بعدما خففتُ من قبضتي عن عنقه :
ـ هات اسم المحل واسم الزفت صاحب المحل وغور في ستين داهية .
قال لاهثا :
ـ محل أسماك الحناوي شارع شوكت وصاحب الزفت اسمه الحناوى .
وما إن تركت الرجل حتى فرّ هاربا لكنه ترك لي لفافة جديدة .

بعد يومين كنتُ واقفا أمام أسماك الحناوى ، كان لابد أن أنهى هذا الكابوس قبل زواجي ، كان محلا فخما مكونا من ثلاثة طوابق بواجهة زجاجية ، أمامه متسع ترتص عليه مقاعد ومناضد ، وحين ولجتُ داخل المحل رأيتُ رجلا وقورا جالسا خلف مكتب متسع أنيق ، وعمال المحل يروحون ويجيئون في نظام ونشاط ، رحب بي الحناوى ثم قال :
ـ تحت أمرك يا ابنى .
قلتُ :
ـ اسمع يا حج ... انت باين عليك راجل محترم... فأنا هتكلم معاك بهدوء قبل ما اتجنن .
رفع الرجل حاجبيه تعجبا وهو يقول :
ـ خير يابنى .
قلتُ :
ـ حد من المحل بتاعك بيجيب لى سمك ...وأنا مش بطلب سمك ولا عايز منكم سمك ... وفى كل مرة يقولى انت طلبت اوردر بـ 3 كيلو سمك ... واللى هيجننى انه عارف اسمى وعنوانى ... نفسي أعرف أنا طلبت منكم سمك أمتى .. وبعدين أنا سواق على باب الله ..هاكل كل يومين سمك .... ليه سواق فى السفارة .
قال الرجل مبتسما :

ـ طيب أهدى كده وقولي اسمك إيه ؟
قلتُ :
ـ قاسم .
فنادي على أحد العمال وطلب منه أن يبحث عن اسم قاسم ، بعد دقائق جاء له شاب يحمل بين دفتر قائلا :
ـ فيه 2 اوردر باسم قاسم عبد العزيز أمين ... واحد يوم السبت اللي فات بتاريخ 25 مارس ...والتانى يوم التلات بتاريخ 27 مارس .
نظر إليّ الحاج الحناوى دون أن يتكلم ، ولكن كانتْ نظرته ساخرة متشككة ، فوضعتُ يدي على صدغي بعدما أحسستُ بصداع خفيف وقلتُ :
ـ الاوردارات دى اتطلبت إزاي ؟
قال الشاب :
ـ بالتليفون .
وقبل أن أتكلم قال الحاج الحناوى :
ـ يا بنى احنا محل كبير وله سمعته وأهم حاجة عندنا هنا السمعة والنظافة والنظام وفيه ناس بتيجى تاكل وهنا وناس تطلب اوردارات.. واى حد بيطلب اوردر بناخد اسمه وعنوانه ورقم تليفونه .
قلتُ مسرعا :
ـ حلو أوى ... أنا بقا عاوز رقم التليفون اللى بيتصل بيكم وبيطلب اوردارات باسمى .
قال الحاج الحناوى في نفاذ صبر :
ـ أكيد الاوردارات دى اتطلبت برقم تليفونك .
قلتُ وأنا أضرب بيدي على المكتب :
ـ عليا الطلاق ما عندي تليفون .
ثم صمتُ قليلا وقلتُ :
ـ بس مش مشكلة ...هات بقا الرقم اللى بيتصل بيكم .
غاب الشاب دقائق ، ثم عاد بنفس الدفاتر ويبدو انه راجع بعض البيأنات على جهاز الكمبيوتر ثم قال :
ـ للأسف الرقم اللى بيتصل بينا مش بيظهر ... بيكون مكتوب رقم غير معرف ...سواء كان الاتصال على الأرضي أو على المحمول .
قلتُ في عصبية :
ـ اه رقم غير معروف... يبقى عفريت بقا اللى بيتصل بيكم .
ثم فطنتُ لما أقول ،
هل قلتُ عفريت ؟!

شردتُ بخواطري ، ثم سمعتُ الحاج الحناوى يقول :
ـ اسمع يابنى ... المرة دى أنا احترمتك وسبتك تزعق وتعطلنا بس المرة الجاية مس هسمح ليك تدخل المحل أصلاً .
نهضتُ وأوليته ظهري وبينما أنا أخرج سمعته يقول :
ـ وطالما مش انت اللى بتتصل شوف مين اللى بيعمل فيك المقالب دى .

مرتْ الأيام وقررتُ أن أتجاهل الموضوع ، وكان الرجل يأتيني بالأسماك مرة كل أسبوع ، وأحيأنا مرتين ، وأحيأنا مرة واحدة كل شهر ، واعتدتُ على ذلك ، واعتدتُ ألا أسأله عن شيء ، يبتسم تلك الابتسامة الصفراء ويقول :
ـ ازيك يا قاسم .
ثم يناولني لفافة الأسماك وينصرف ، لم يتكرر مشهد المطبخ والمقلاة ، لكنى ذات ليلة كنت أشاهد التليفزيون وانقطع الإرسال فجأة رأيت مشهدا بالأبيض والأسود ، مشهدا يجمع بين رجلين ، رجل قصير القامة مقوس الظهر ، نحيف الجسم ، أسمر الوجه يمد يده حاملا سمكة لرجل أخر طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، محتقن الوجه ، أصلع الرأس ، لم يكن رد فعل الرجل الثاني إلا أن يهوى بقطعة من حديد على رأس الرجل القصير فتُشج رأسه ، هنا يسيل الدم على وجه الرجل القصير الأسمر النحيل ، ثم ينظر نحو الشاشة كأنه يحدثني مستغيثا :
ـ انقذنى .
في الحقيقة لم أكنْ مرعوبا بدرجة كبيرة ، لأنني هيأتُ نفسي نفسيا أن عفريتا يسكن معي في الشقة ، واعتبرته ضيفا غير لطيف المعشر ، وسيرحل يوما ما ، لكن أشد ما كان يفزعني هو أن يظهر هذا الشيء لسعاد ، عندها أتوقع أن تملأ الشقة صراخا وتقسم ألا تبيت ليلة أخرى في الشقة ، طبعا سأكون مُطالبا وقتها بترك الشقة وإيجاد شقة أخرى .

قبل زفافي من سعاد بثلاثة أيام استيقظتُ عند منتصف الليل على صوت يأتي من المطبخ ، لكن لا بأس ، فقد وضعتُ خطة بيني وبين نفسي ، تسللتُ خفية حتى لا يراني هذا الشيء ، وحملتُ بين يدي مصباحا محمولا قوى الإضاءة كنتُ قد اشتريته خصيصا لمثل هذا الموقف ، كنتُ أسمع صوت المقلاة وطشطشة الزيت ، لم أضيء المصابيح ، ووقفتُ على حافة مقدمة المطبخ وأنا أخفي الكشاف خلف ظهري ، ورأيته ، نعم رأيت رجلا يمسك بيده اليسرى يد المقلاة في نشوة واستمتاع حقيقي ، بينما يقلب

الأسماك في الزيت بشيء يشبه الملعقة بيده اليمنى ، كان يدندن بأنغام موسيقية بفمه .
ـ ماشاء الله ...عفريت رائق المزاج .
شعرتُ أن اللحظة الحاسمة قد حانتْ ، مددتُ المصباح نحو وجهه ، وضغطتُ زر الإضاءة ، فأضاء المصباح بنور ساطع ، فسقط على وجه الرجل ضوء لا يقل عن ضوء ستاد القاهرة ، شعر الرجل بالضوء فنظر نحوى وتراخت يده التي يقلب بها الأسماك ، فسقطتْ الملعقة على الأرض ، لكن يده اليسرى مازالتْ قابضة على يد المقلاة ، لم يتحدث ولم أتحدث أنا ، كان مشهدا أسطوريا ، لم أكن خائفا قدر ما كنت حذرا من رد فعله ، فلربما تحول إلى أرنب أو أشياء من هذا القبيل ،
كم مر من الوقت ؟
أعتقد ثلاثون ثانية ، ثم اختفى واختفتْ المقلاة وما بها من زيت وأسماك ، حتى الملعقة التي سقطتْ على الأرض اختفتْ ، وخمدتْ نيران موقد البوتاجاز كأن شيئا لم يحدث ، انتهى الموقف لكن صورة الرجل لم تنتهي من خيالي ، لماذا ؟
ببساطة لان وجه الرجل بدا مألوفا لدى ، ورحت أجهد فكرى أين رأيت هذا الرجل من قبل ، لكن أعصابي كانتْ محطة فلم أتذكر شيئا .

عدتُ إلى الصالة وفتحتُ التليفزيون لأرى المشهد الذي رأيته من قبل ، لكن لم يحدث شيء ، وظللتُ ساهرا أمام شاشته لينقطع الإرسال ، لكن ظل اسماعيل ياسين يطلق النكات والضحكات والسخرية من زينات صدقي طوال السهرة .
أغلقتُ التليفزيون ، ورحتُ أفكر حتى صلتُ إلى استنتاج مخيف ، الرجل طويل القامة ممتلئ الجسم الذي يأتي لي بلفافة الأسماك من محل الحناوى هو ذات الرجل الذي يمسك بقطعة من حديد في مشهد التليفزيون ، بينما الرجل الذي كان يقلى الأسماك في مطبخي منذ قليل هو ذات الرجل الذي سالت الدماء من رأسه في مشهد التليفزيون ، هذا ما تصورته ، وربما كنت واهما .

تزوجتُ من سعاد وليتني ما فعلت ، لم أنجب ولدا كما كنتُ أحلم ، أنجبت ابنتي وفاء ، وتغيرتْ حياتي بمرور الأعوام ، صرتُ رجلا واهنا جاوز الثالثة والخمسين ، مجرد زوج ذليل مستسلم بعد أن خبتْ روح الشباب

وتبخرتْ أحلامي ، وكانتْ سعاد تمثل دور الزوجة المسيطرة المتسلطة ، ظلتْ حالتي المادية كما هي لم تتقدم بل تقهقرت قليلا ،
راتب قليل وزوجة قاسية ،
حتى جاء اليوم الذي لم يكن في الحسبان ، زارني صديق طفولتي وشبابي حسين الأعرج ، أخبرني أن نورا كبُرتْ ، وسوف تعيش معي لتكمل دراستها الجامعية ، كانتْ سعاد ترفض إقامتها معنا ، وبعد محاولات كثيرة قبلتْ لكن بشروط :
" ألا أنفق على نورا مليما واحدا "
" أن تقوم نورا بكل أعمال البيت "
" أن تبيت في الصالة أو المطبخ "
وطبعا أنتم تعلمون أن كل شروطها تحققت إلا شرطا واحدا ، فقد حصلتْ نورا على غرفة وفاء .
ورغم كل شيء فأنى حمدتُ الله لأن العفريت لم يظهر يوما لسعاد ولا لوفاء الصغيرة ، فلم تحدثني سعاد أنها رأتْ شيئا غريبا في الشقة من قبل ، أمّا نورا ، الله أعلم ، لكن حتى إن ظهر لنورا فسوف أخبرها كاذبا أنها واهمة ، وأن ما تراه هو مجرد تخيلات وهلاوس .
أرى أن بعضكم يريدون أن يسألوني سؤالا ،
هل مازال العفريت يظهر لي ؟
ياله من سؤال !

الفصل السادس

(نورا قاسم)

بعد عودتي من حفل عيد ميلاد حسام عرجت على بيت مكة ، وانفجرتُ أمامها بالبكاء ، كنتُ في حاجة لأن تدمع عيناي ، لأنني شعرتُ بالراحة بعد البكاء ، أصابها الفزع وطلبتْ منى أن أتحدث ، لم أخبرها بشيء ، فلم أكن أعرف سببا واضحا لبكائي ، عدتُ إلى البيت وكان أبى قد عاد ، وما إن رأتني زوجة أبى حتى انطلق لسانها ينفث سمومه في وجهي :

ـ كنتى فين يا ست هانم كل ده ؟

لم ينطق أبى بشي ، ولم أكن أتوقع منه تدخلا ، فقلتُ :

ـ ما أنا قلتلك إني نازلة أذاكر عند صاحبتي .

كانتْ مثل بالون انفجر :

ـ ما تتنيلى تذاكري هنا ... انتى مش عارفه إن وراكى شغل تخلصيه وتذاكري لوفاء .

قلتُ في غيظ :

ـ بس أنا عملت كل اللى طلبتيه منى قبل ما انزل يا مرات أبويا .

قالتْ بوجهٍ محمر وعينين تشعان نارا :

ـ طيب يلا غورى حضّرى الأكل .

كنتُ مازلتُ بملابس الخروج ، وتوجهتُ إلى المطبخ وسمعتُ أبى يقول :

ـ على مهلك يا سعاد على البنت .
سمعتها تقول بصوتٍ مزعج :
ـ أنت تسكت خالص ... دا بدل ما تشكرني إني خايفة عليها وبسألها راحت فين وتأخرت ليه ...ولوهى تربت على الدلع أنا هعرف أربيها كويس .
حدثتُ نفسي ساخرة وأنا أجهز الطعام :
ـ أنا تربيت على الدلع ... فين الدلع ده ... أنا اللى طول عمري محرومة من كلمة حلوة ...ولا حسيت في يوم إن حد خايف عليا .
ثم تذكرتُ عم حسين ، وتذكرتُ حسام ، وما حدث في الحفل ، كيفَ تجرأتْ شيرين وقبّلته دون حياء أمام الجميع ، وبدأتُ أعقد في عقلي مقارنة بيني وبينها ، هي بنت العز الدلوعة الناعمة الشقراء ذات الشعر الأصفر والعيون الخضراء ، لا مجال طبعا للمقارنة طالما شعرها أصفر :
ـ مقارنة ايه يانورا ... اسكتى خليكى فى خيبتك .
ـ طيب وإيه المانع أحط مكياج زيها وأعمل زى ما هي بتعمل لحسام وألبس زيها .
ـ ألبس إيه بس؟! ...هو أنا قادرة أغيّر الحذاء ده ... اسكتى يا نورا وعيشى عيشتك .
ـ عيشى عيشتك ... مين قالها لى قبل كده ... اه ... عم حسين .

في اليوم التالي ذهبتُ إلى الجامعة وكنتُ متوقعة ما سيحدث ، قطعا سيراني حسام وسيأتي ليتحدث معي ، لكن كان اليوم مملا على عكس توقعي ، حسام لم يحضر ، واليوم مزدحم بالمحاضرات ، كنتُ ساهمة شاردة أحضر المحاضرات بجسدي دون عقلي ، وكان قلبي يبحث عن حسام ، لماذا لم يحضر ؟! لابد أنه على الكافتيريا ، كنتُ بالقرب من الكافتيريا أبحث عنه بعينيّ ، ثم جلستُ على أحد المقاعد في ركن مواجه للكافتيريا ، ظللتُ أترقب وأراقب حضوره لمدة عشرين دقيقة ، ثم قررتُ المغادرة ، وما إن هممتُ بالانصراف حتى رأيتُ شريف الشاعر يسير أمامي ، ابتسم حين رأني وقال :
ـ أزيك يا آنسة نورا .
ـ الحمد لله كويسة .
هل أسأله عن حسام ؟
ترددتُ وتراجعت ، وسألتُ نفسي ، لماذا لا يصيبني الارتباك حينما حدثني شريف ، بينما يحدث ذلك حينما أرى حسام ؟

أخرجتُ هاتفي ، وبدأتُ أقلّب في سجل الأسماء والرسائل ، لا مكالمات ، لا رسائل :
ـ وانتى مين أصلاً يعرفك علشان يتصل بيكى ... حتى عم حسين لمّا بيكلمك بيكلمك من تليفون البقال .
ثم وقع نظري على رقم مسجل باسم حسام عبد المجيد ، ارتعشتْ أنامي واهتزّ كياني حين رأيتُ اسمه ، وقبل أن أضغط على زر الاتصال تراجعتُ :
ـ طيب هتصل بيه ليه ؟!...... وهقوله إيه أصلاً ؟
ـ عادى يا بت نورا ... اتصلى بيه واسألى عنه ... مش هو زميلك .
هممتُ أن أضغط على زر الاتصال مرة أخرى ، ثم وجدتُ أنامي ترتعش وريقي يجف ، فتراجعت .
ـ ايه اللى بتعمليه ده يا نورا؟! .. اتصل إيه وزميلى إيه ..مش كفاية تعلمتي الكدب ... ومكتبتيش ولا صفحة في البحث .
ـ أنا لازم متكلمش مع حسام ده تاني .
ثم ابتسمتُ حينما تذكرته يقول :
ـ سيبى قلبك هو اللي يتكلم .

في اليوم التالي لم يحدث جديد ، لم يحضرْ حسام ولم أرَ أحدا من شلته ، قابلتُ مكة في المحاضرة ، وبعد انتهاء المحاضرة سألتني عن حالي وقالتْ :
ـ ما تيجى تحضري معايا ندوة ...كده كده مفيش محاضرات تانى انهارده .
قلتُ مستفسرة :
ـ ندوة إيه ؟! ...أنا عمري ما حضرت ندوة أصلاً .
قالتْ :
ـ ندوة انهاردة عن إزاي تنظمي وقتك ما بين المذاكرة وحفظ القرآن وممارسة هواياتك .
علمتُ منها أنها تشارك في تنظيم تلك الندوات مع بعض الفتيات تحت إشراف بعض الأساتذة ورؤساء الأقسام بالكلية ، نظرتُ في هاتفي وأنا أقول :
ـ طيب هي الندوة أمتي وفين ؟
قالتْ وهى تهمّ بالانصراف :
ـ بعد نص ساعة في مدرج تربية .
وعدتها بالحضور .

اطمأننتُ على أن الميزانية تسمح بالجلوس على الكافتيريا ، فتوجهتُ مسرعة وجلستُ على أحد المقاعد ، وطلبتُ من النادل مشروب فراولة وابتسمتُ لأنه هو المشروب المفضل لدى حسام ، أخرجتُ هاتفي ، كانتْ يدي ترتعش وقلبي يتراقص اضطرابا وأنا أضغط على زر الاتصال ، بعد قليل سمعته يقول :
ـ الو ... مين ؟
قلتُ في ارتباك وبصوتٍ منخفضٍ كأن أحدا يراقبني :
ـ نورا .
جاء صوته واهنا ضعيفا وهو يقول :
ـ كده متسأليش عليا ؟
قلتُ مسرعة :
ـ مالك ؟ .... أنتَ تعبان ؟
أجاب بنفس الصوت الواهن :
ـ أنا في المستشفى .
قلتُ في فزع :
ـ بعد الشر عليك ... أقصد مالك .....قصدي مستشفى إيه ...قولي اجي المستشفى إزاي ؟

بعد أقل من ساعة كنتُ أمام مستشفى الشفاء الخاصة ، وفى إحدى الغرف رأيته ممددا على أحد الأسرّة ، وعلى يمينه نافذة تطل على أشجار ، وأمامه تليفزيون وبجواره زجاجات مياه وعصائر وبعض الأدوية ، وعلى يسار التلفزيون دولاب صغير أنيق ، قلتُ في نفسي :
ـ مستشفى دى ولا فندق ... اومال المستشفى اللى ماتت فيها أمي مكنتش زى دى ليه ؟
وتركتُ هذه الأسئلة الوجودية التي لا محل لها من الإعراب ، وجلستُ على مقعد ملون على يسار حسام الذي كان وحيدا في الغرفة وقلتُ :
ـ مالك ؟ .... سلامتك .
قال في وهنٍ واضح وهو يتحسس بطنه :
ـ أهو أنا دلوقتى مش خايف من أوضة العمليات .
قلتُ في لهفة :
ـ يا لهوى ... عمليات ؟!
دخلتْ والدته وأنا أقول كلمتي الأخيرة ورحبتْ بي وقالتْ :

ـ من ساعة الحفلة وهو تعبان وكان رافض يروح لدكتور ... وكلمت الدكتور من وراه وخليته جه البيت وحوّله هنا .
قلتُ في ارتباك :
ـ طيب عملية ايه ؟
قالتْ والدته وهى تخرج :
ـ عملية الزايدة ...
ثم نظرتْ نحو حسام وقالتْ :
ـ هشوف الدكتور هيدخلك العمليات الساعة كام وارجعلك .
مال حسام نحوى في بطءٍ وضعفٍ وقال :
ـ انتى تخضيتى عليا .
ضغطتُ على أصابع يدي بيدي الأخرى ونظرتُ للأرض ، وسمعتُ صوت مَنْ يدخل الحجرة ، دخل شريف الشاعر من خلفه أحمد وشيرين التي أسرعتْ نحو حسام وجلستْ بجواره من الناحية اليمنى ووضعتْ يدها على جبهته وقالتْ :
ـ متخفش يا حسام ... هتخف .
قال أحمد في مكر :
ـ عارفه يا آنسة ... أنا حاسس انه خف لما شافك
نظر حسام نحوه نظرة نارية رغم ألمه ، فقالتْ شيرين :
ـ هو كويس وهيبقى أحسن بعد العملية .
قال حسام موجها نظراته نحوى :
ـ روحى انتى يا نورا .... علشان متتأخريش .
قلتُ في ارتباكٍ واضح :
ـ هستنى شوية .
هنا دخلتْ والدة حسام التي قالتْ :
ـ الدكتور هيأجل العملية لبكرة 6 الصبح .
وجلستْ معنا وتبادلوا أطراف الحديث ، كانتْ شيرين تميل نحو حسام وتقدم له مشروبات تارة وتتأمل بعض الأدوية تارة ، فكان أحمد يعلّق قائلا :
ـ متخافيش يا شيرى ... عمر الشقى بَقى ... هيقوم ويتنطط زى القرد .
ضحك الجميع وقال شريف :
ـ أنت بس موت وأنا هكتب فيك قصيدة رثاء إنما إيه .
ابتسم حسام وقامتْ شيرين بإلقاء علبة عصير على شريف وهى تقول :
ـ إن شاء الله أنتَ يا بعيد ...
ثم عادتْ نحو حسام بنظرها وقالتْ :

ـ بعد الشر .
نهضتُ طالبة الاستئذان ، فقال حسام :
ـ ابقي تعالى بكرة يا نورا اطمّني عليا .
قلتُ بوجهٍ متورد من الخجل وبصوت غير متزن :
ـ حاضر .

وأنا عائدة إلى البيت قررتُ زيارة مكة للاطمئنان عليها ولأعتذر لها عن عدم حضوري الندوة ، طرقتُ الباب فرحبتْ بي والدتها كعادتها ، والتي وجدتها تجلس في الصالة مع سيدة وشاب ، ولمّا رأتْ الخجل على وجهي قالتْ وهى تشير ناحية غرفة مكة :
ـ تفضلى يانورا ... مكة فى أوضتها .
هذا الشاب رأيته من قبل ، أين ؟
لا أتذكر ، لكن يبدو مألوفا لدى ، وفى حجرة مكة سألتها :
ـ أنا جيت في وقت مش مناسب ... هو انتو عندكم ضيوف .
قالتْ مكة :
ـ دا معتز ... هو ووالدته بييجو يطمنوا علينا كل فترة .
هنا بدأتُ أتذكر ، فقلتُ مسرعة :
ـ مش دا الميكانيكي اللي تحت ؟
قال :
ـ اه هو .
قلتُ :
ـ بس متغير شوية .
قالتْ مستفسرة :
ـ إزاي ؟
قلتُ :
ـ أصل أنا شفته في المحل هدومه متبهدله .. ودلوقتى لابس كده زى العريس ...دا أنا قلتُ جاى يخطبك
ضحكت ثم قالتْ :
ـ هو أي حد جاى لابس ومتشييك يبقى جاى يخطبنى ... هم عرفوا إن ماما كانتْ تعبانة شوية فجم يطمنوا .... وبعدين هو متعلم تعليم عالى ... هو إمام المسجد القريب و باشمهندس أساسا .
قلتُ في غباء :
ـ مهندس ؟! وشغال ميكانيكي ! وإمام مسجد ؟ ايه الكوكتيل ده ؟

قالتْ وهى تفتح جهاز الكمبيوتر :
ـ كنت صغيرة لما جم هو وأهله سكنوا عندنا ... وباباه مات فجأة وهو أخد المحل اللي تحت و............. .
ثم صمتتْ قليلا وقالتْ :
ـ وبعدين انتى بتوهينى في الكلام ... كنتى فين ساعة الندوة ؟
قلتُ شاردة :
ـ بصراحة جالى مشوار مهم ... وعلشان كده جايه اعتذرلك .
قالتْ :
ـ مشوار إيه بقا ؟...اللى أعرفه انك متعرفيش حد هنا .
قلتُ :
ـ مشوار وخلاص يا مكة ... انتى هتعملى فيها مرات أبويا .
قالتْ وهى تنهض :
ـ لا يا شابة ... لا مرات أبوكي ولا خالتك ... استنى أعملك شاي وجايه
قلتُ وأنا انهض :
ـ لا لا ... أنا اطمنت عليكى خلاص ... هروح .

في اليوم التالي صباحا لم أذهبْ إلى الجامعة بل توجهتُ مسرعة المستشفى ، كان حسام قد خرج من حجرة العمليات وكان مازال تحت تأثير المخدر ، ووجدتُ حوله الشلة المعتادة ، كانوا يتبادلون أطراف الحديث ، وكانتْ شيرين تجلس بجواره من الناحية اليمنى على طرف السرير وتمدّ ساقيها على مقعد أمامها ، وحين رأتني سددتْ نحوى نظرات نارية في استعلاء ونهضتْ ودارتْ في الغرفة وحركتْ ستائر النافذة ، كنتُ قد جلستُ ونسيتُ إخفاء الجزء المقطوع من حذائي الأيسر ، فلاحتْ نظرة ساخرة منها على حذائي ، فغيرتُ من جلستي ، وسحبتُ حذائي ليغطى الجزء الممزق ، شعرتُ وقتها بالاختناق ولمتُ نفسي على المجيء ، وأخرجني من هذا الموقف حركة حسام الذي بدأ يتحرك فاتحا عينيه ، فأسرعتْ نحوه شيرين وأمسكت بيده في فرح قائلة :
ـ حمد الله على السلامة .
نظر إلينا جميعا وهو يحاول أن يجمع شتات ذهنه وقال بصوتٍ واهن :
ـ الله يسلمك .
نهض شريف الشاعر بعدما أخرج من جيب بنطاله ورقة وقال :
ـ سلامتك سلامتك يا حســـام
الدكتور قال بلاش كــــــلام

احنا جينا بس نقولك ســــلام
ونسيبك ترتاح وتنـــــــــــام
و....
هنا قاطعه أحمد قائلا :
ـ اهمد بقا يا عم الشاعر ... شعرك ده أصعب عليه من العملية نفسها .
ضحكوا جميعا وابتسم حسام في ضعفٍ وقال :
ـ أنا ارحملى أرجع أوضة العمليات ولا أسمع شعرك .
قالها ثم نظر نحوي كأنه ينتظر منى أن أقول شيئا ، لكنى لم أتكلمْ ، كنتُ أضغط على أصابع يدي بيدي الأخرى وخشيتُ أن أقول له سلامتك فيتهمونني بقلة الحياء ، لذلك ظللتُ صامتة ، بادرني حسام قائلا :
ـ ازيك يا نورا .
ـ قلتُ في خجل :
ـ كويسة ... سلامتك .
هنا دخلتْ والدة حسام وقالتْ :
ـ الدكتور هيعدّى عليك كمان شويه يطمن على الجرح ويكتبلنا على خروج .
ثم نظرتْ نحونا وأضافت :
ـ اجهزوا يا عيال .
قمتُ لأستأذن ، فقال حسام مسرعا :
ـ تعالى معانا يا نورا .
فقلتُ :
ـ لا لا ... أنا هروح .
فقالتْ والدته :
ـ ما تروحى معانا يا بنتى تطمنى عليه وتتغدى معانا وبعدين تروحى .
شكرتها وغادرت .

وصلتُ البيت وكان أبى مازال بالخارج ، وحين شعرتْ سعاد بدخولي فتحتْ باب حجرتي وقالتْ :
ـ جيتى بدرى يعنى انهارده !
قلتُ :
ـ اه مكنش عندنا إلا محاضرة واحدة .
قالتْ وهى تمصمص شفتيها وتنظر نحوى بسخرية :
ـ طيب شوفى المطبخ عبال ما أجيب وفاء من المدرسة .

قالتْها ثم انصرفت .

أديتُ صلاة الظهر ورحتُ أدعو الله أن يهديني إلى طريق الصواب ، ثم سمعتُ من يطرق الباب :
ـ افتح يا قاسم .
كان صوت رجل ، فتحتُ الباب فرأيتُ الرجل الذي أتى بالأسماك من قبل ، لم يتحدثْ ، وضع اللفافة بين يدي مبتسما وغادر .
للحظة بدأتُ استرجع يوم حفلة عيد ميلاد حسام ، نفس النظرة التي كان ينظر بها الرجل إلى (التورته) حين كانتْ تتراقص ظلالنا ، الرجل الأنيق الأصلع الذي كان يرتدى بذلة أنيقة ، لكن الرجل الذي أعطاني الأسماك ليس أصلعا ، شعره بني اللون وشاربه أسود عريض . يالهواجسى !
ـ انتى خلاص اتجننتى يا نورا ... ايش جاب لجاب .. الراجل اللي شفته في الحفلة غنى وشيك وابن ذوات ... لكن ده غلبان و......
ـ بس بينهم حاجة مشتركة يا نورا ...
هي إيه ؟
هي إيه ؟...
اه العيون .
إن المرء يستطيع أن يتنكر في أي صورة أرادها ويغيّر ملامحه وشعره وأنفه وكل شيء ، إلا شيئا واحد سيظل كما هو دون تغيير ، العيون .
تجاهلتُ هذا الاستنتاج وليتني ما تجاهلته ، لأنه سيكون سر مصائبي في أيامي القادمة .

الفصل السابع
(نورا قاسم)
مرتْ أيام كئيبة على وتيرة واحدة ، كان حسام فيها قد ترك المستشفى ولم يحضر للجامعة ، ورغم الازدحام والضوضاء لكنني شعرتُ أنني وحيدة ، شعرتُ أن حياتي كانتْ راكدة ، وفى حاجة لأن يُلقى أحدهم حجرا في مياهي الراكدة ، كنتُ أبدد الوقت ما بين المحاضرات وكتابة البحث وأحيأنا كنت أزور مكة ، في كل ليلة كنتُ أنتظر اتصالا من حسام أو حتى رسالة وهو الشيء الذي لم يحدث ، وكلّما عزمتُ على مهاتفته كان الشيء القابع بداخلي يتحرك ويحذرني من المعصية ، بينما شيء آخر يشدني أن افعل ، حين أخلو بنفسي وأبدأ في المذاكرة أتذكر كل ما مرّ بي من أحداث ، فكنتُ أكفُّ عن المذاكرة وتأخذني الخواطر .
ذات ليلة بعد أن صليتُ العشاء وفتحتُ كتابي لأذاكر سمعتُ هاتفي يرن ، لم يكن اتصالا ، كانتْ رسالة ، كلمة واحدة قصيرة موجزة لكنها كانتْ كفيلة بأن تريحني وتهون عليّ غيابه هذه الأيام :
- وحشتينى .
وبدأتُ أفكر كيفَ أردّ على رسالته ، وماذا أقول ، ثم كتبتُ كلمة واحدة :

- شكرا .
وضغطتُ زر الإرسال .
كانتْ تعصف بقلبي أحاسيس شتى ما بين الخوف واللوم وشيء آخر لا أعرف اسمه ولا معناه ، ونمتُ نوما عميقا تلونه أحلام وأمنيات .

في اليوم التالي كنتُ في الجامعة ، بدأت المحاضرة ، انتهتْ ، قمتُ بتقديم البحث ، بدأتْ محاضرة أخرى ، استمعتُ لأستاذ المادة بجسدي فقط كعادتي ، كنتُ شاردة ساهمة أفكر في أشياء تسحر العقول وتسكر النفوس ، كنتُ أفكر في تلك الأحاسيس التي تعتريني حينما أتذكر اسمه حتى انتهتْ المحاضرة ، خرجتُ متوجهة إلى أحد المقاعد وجلست ، لم يدمْ جلوسي طويلا لأنني سمعتُ هاتفي يرن ، وكان المتصل حسام :
- نورا ... ازيك .
قلتُ بشفتين مرتعشتين :
- الحمد لله ... وأنت ؟
قال مسرعا :
- اقفي قدام باب الجامعة ... بوابة (ص) هتلاقى عربية مستنياكى .
قلتُ في عدم فهم :
- عربية إيه ؟
أجاب :
- عاوز أشوفك ...
لمّا طال صمتي أردف :
- متخفيش ... أنا بعت السواق بالعربية ... هيجيبك لحد الفيلا .
ثم أغلق الخط .
كنتُ أرتعش ودقات قلبي تتلاحق ، وفى داخلي ذلك الشيء الذي يمنعني ، لكنني توجهتُ إلى باب الجامعة كالمسحورة كعادتي ، توقفتْ سيارة أنيقة وأشار لي سائقها أن أركب ، وكان رجلا متقدم السن أشيب الرأس ، وبعد ساعة توقفتْ السيارة بداخل الفيلا ، صعدتُ إلى الطابق الثاني ، وتركني السائق حينما رأتني والدة حسام ورحبتْ بي وأمرتْ خادما بإحضار العصير ، ثم جاء حسام وكان في صحة جيدة ، جلس على الأريكة بجواري ، فقلتُ مرتبكة :
- اومال فين الشلة ؟
أجاب :
- أكيد هييجو كمان شويه ... بس بصراحة أنا عاوز أتكلم معاكي لوحدنا .

قلتُ وأنا أنظر في أصابع يدي المضطربة :
ـ لوحدنا إزاي يعنى ؟
قال وهو يقترب منّى :
ـ هو لحد دلوقتى قلبك مقلكيش حاجة.
قلتُ وقد شعرتُ بسخونة تلهب وجنتيّ :
ـ انت ... انت ... اه انت خفيت اهو ... كويس
مدّ يده ووضعها على يدي المرتعشة وضغط عليها برقة وحنان وقال :
ـ ياه ... دا انتى خايفة أوى
نزعتُ يدي من يده وقلتُ :
ـ لو سمحت يا حسام ... أنا مبحبش كده .
قال في ثقة بعد أن مال نحوى :
ـ كده إزاي يعنى ؟
قلتُ وأنا أمدّ ثوبي ناحية الحذاء الممزق :
ـ مينفعش أصلاً تلمسنى كده ... مش كده يبقى حرام ؟
قال :
ـ حرام ؟! .... انتى عايشة فى سنة كام ؟
قلتُ في ارتباك :
ـ لو سمحت يا حسام متترقيش عليا
قال بعد أن ثبت نظره في عينيّ :
ـ أنا مش قصدى ... بس قصدى مين اللى قالك الحب حرام ؟
قلتُ في نبرة مهتزة :
ـ حب إزاي يعنى ؟
قال بلهجة واثقة :
ـ أيوه احنا بنحب بعض يا نورا .
ارتبكتُ أكثر وتلاحقتْ أنفاسي واهتزتْ أنامي وأنا أقول :
ـ لا لا ...ايه ده؟ ... أنا مش بحب حد أصلاً .
قال وقد وضع يده على يدي مرة أخرى :
ـ لا انتى بتحبينى .... خايفة ليه تقولى ... ما تسيبى قلبى هو اللى يتكلم ويقول انك بتحبينى .
كان الرجلان اللذان بداخلي في ذروة الصراع ، أحدهما يشدني نحو خوفي وخجلي ، والآخر يشدّني نحو تصديق ما يحدث في قصص الحب وأفلام الغرام ، أفقتُ من سكرتي وأنا أنزع يدي من يده ، لم أتكلم فتراجع هو في جلسته وقال :

ـ انتى هتفضلى لأمتى تخبّى اللى جواكى ... أنتي لو قادرة تخبى أنا مش هقدر أخبى اكتر من كده ... أنا بحبك ... بحبك من ساعة من شفتك أول مرة في المحاضرة .... حبيت فيكى كسوفك وأخلاقك وشخصيتك الجميلة اللى زى قلبك ... حبيت عنيكى دى اللى مش بتفارقنى ابدا ... حتى كلمة أصلاً حبيتها علشانك .

شعرتُ بأن الزمن قد توقف ، وكل شيء حولي صار جامدا ثابتا لا يتحرك إلا دموعي التي تدفقتْ تهطل كالمطر ، ونهضتُ فشعرتُ بدوار يأكل رأسي وقلتُ :

ـ أنا همشى .

كنتُ في سكرة وأنا أنصرف ، لذلك لم أكن أعلم ماذا يقول ، لكنى أعتقد أنه كان يريدني أن أبقى ، وسمعته بوضوح ينادى على السائق ، حين خرجتُ من باب الفيلا كان يتبعني السائق بسيارته ، وأوصلني إلى باب الجامعة ، ثم سرتُ على قدمي إلى محطة الزهور وركبت سيارة ووصلتُ الشقة .

حينما طلبت منى زوجة أبى أن أقوم بأعمال المطبخ لم أتزمر أو أغضب ، أسرعتُ وأخرجتُ كل تلك الأحاسيس في غسل الأطباق وتجهيز الطعام ، وتعجبتُ حين حضر أبى مبكرا من العمل وقد أحضر معه فواكه وبخور على غير عادته وتناولنا الغداء وقبل أن أنهض قال أبى :

ـ حضرى نفسك يا نورا علشان .

ظننته سيخبرني أنه سيزور حماته المريضة ويريدني أن أذهب معه ، لكن حاجبيّ ارتفعا تعجبا حين سمعته يقول :

ـ الليلة فيه عريس جاى يطلب أيدك .

الفصل الثامن

(نورا قاسم)

حينما أخبرني أبي أن شابا سيأتي لخطبتي الليلة غرقتُ في تفكيرٍ عميق ، مضطربة المشاعر مشتتة الأفكار كنت ، لا يكف عقلي عن التفكير :

ـ مين هو ده ؟! وشافني فين أصلاً ؟!

وضعتُ رأسي بين كفيّ وجلستُ على طرف سريري ، بينما طرقات والدي المتتالية تنهال على باب غرفتي كسيل غاضب ، تلك الطرقات المتعجلة التي تطلب مني التأهب ، وعقلي مازال يفكر :

ـ معقولة يكون حسام ؟!.... أكيد حسام ... مش هو قال انه بيحبنى ...واللي بيحب واحدة بيجوزها .

ارتيدتُ ثوبي ووضعتُ حجابي على رأسي وتوقعُتُ أن يكون الخاطب هو حسام ، طرقتْ زوجة أبي الباب ، ثم دلفتْ غرفتي وقالتْ بلهجة لا تخلو من الصرامة :

ـ اطلعى سلمى على خطيبك ... وتروحى المطبخ تجيبى العصير تقدميه ليهم تقعدى معاهم خمس دقايق وتستأذني .

قلتُ في نفسي :

ـ خطيبي ... انتى بسرعة كده خلتيه خطيبي ...أيوه ما انتى عاوزه تخلصي منّي في أقرب وقت .
حينما فتحتُ باب حجرتي وتوجهتُ إلى الصالة رأيتُ أبي يجلس مع شاب أسمر طويل القامة مجعد الشعر دقيق الملامح يرتدى بذلة دون رابطة عنق وطبعا هذه ليست صفات حسام :
ـ هو ييجى ايه جنب حسام ووسامة حسام أصلاً .
هكذا حدثت نفسي بعد أن انقبض قلبي وخيّم عليّ سكون كسكون أهل المقابر ، لم ألقِ السلام عليهما من هول المفاجأة ، أسرعت إلى المطبخ مما جعل والدي يتعجب ويتنحنح في حرجٍ وهو يقول للشاب :
ـ نورتنا يا بني .
حملتُ العصير بعصبية وتوتر بعد أن نويتُ في نفسي أن أقدم العصير إليهما وانصرف مباشرة إلى غرفتي ، سرتُ بخطوات مترددة مضطربة كمَنْ تُساق لتُباع في سوق الجواري ، نظرتُ إليهما نظرة خاطفة لأحدد أين سأجلس ثم نظرت إلى العصير ، وقفتُ أمامهما بالقرب من والدي ولم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة ، فقال والدي وهو ينظر نحوي نظرة عتاب :
ـ مالك يا نورا مرتبكة كده ... يالا سلّمى على الباشمهندس .
سمعتُ الشاب يقول مسرعا :
ـ لا يا عمي سيبها براحتها ....نخلي السلام والكلام بحد بعد كتب الكتاب .
ردّ والدي بعد ضحكةٍ قصيرة :
ـ ما شاء الله على أخلاقك يابشمهندس .
جلستُ في غيظ وانتبهتُ لشيء ، هل والدي قال له (ياباشمهندس)؟!
اختلستُ النظر مرة أخرى إلي الشاب فرأيته ينظر إلى والدي وهو يتحدث ثم ينظر إلى الأرض متحاشيا النظر نحوي ، ويمكن لطفل متوسط الذكاء أن يعرف أن الشاب لم يكن إلا المهندس معتز (الميكانيكى) ، هنا تذكرتُ مكة ، وبدأ عقلي يعقد مقارنة بين معتز وحسام ، حسام الذي تنتطق كل دقة من دقات قلبي باسمه ، فهو الوحيد القادر على زلزلة كياني وزعزعة قلبي ، أرتعشُ فقط لمجرد سماع اسمه ، كم أحب هذا الشعور !
وتذكرته حينما كان يقول لي بابتسامته الجذابة :
ـ سيبي قلبك هو اللي يتكلم .
أخفيت ابتسامتي وعدت أفكر في المأزق الذي أنا فيه ، كيفَ أخرج من هذه الورطة دون أن يغضب والدي ؟!
أعتقد أن مكة هي من حدثته عني ، لكن كيفَ ؟
كيفَ ومكة لا تتحدث مع الشباب كما أخبرتني ؟!

لكن هو رآني عند مكة ، أنا واثقة من ذلك ، هنا انتزعتني يد والدي وهو يهزني قائلا :
- ولا إيه يا نورا ؟
قلتُ دون أن أعرف فيما كأنا يتحدثان :
- أه ... فعلا ... أصلاً.
كانتْ إجابتي بليغة كما ترون ، لذلك سمعتُ معتز يقول في وقار :
- يا عمي خلّى الآنسة نورا تستأذن ... أنا كده كده مينفعش أقعد معاها ولا أتكلم معاها لوحدنا إلا بعد كتب الكتاب .
هنا فهمتُ أن والدي كان ينوي الاستئذان وتركنا لدقائق منفردين أنا ومعتز حينما قال (ولا ايه يا نورا ؟) .
شعرت بأنهما يحددان مستبقاي وحياتي دون رأيي ،نهضتُ ودلفتُ إلى غرفتي ، خلعت حجابي وارتميتُ على سريري كشجرةٍ هوتْ بلا جذوع ، وبدأت في البكاء ، كان بكاء حارا مريرا ، ولم أعلم كمْ مرّ من الوقت ، لكنني سمعتُ خطوات والدي الذي قال حينما رآني أبكي :
- انتي بتعيطي ؟!
ثم سمعتُ زوجة أبي التي دلفتْ الغرفة إثره تقول :
- دي أكيد دموع الفرحة يا قاسم .
- الله يخربيتك يا مرات أبويا ... انتي عايزه منى إيه بس .
قلتُها في نفسي وأنا أجفف دموعي ثم قلتُ :
- أنا مش عاوزه اجوز دلوقتي أصلاً .
أراد أبي أن يتكلم لكن لسان زوجة أبي كان أطول كعادته فقالتْ :
- هى البنت آخرتها إيه إلا الجواز يا حبيبتي ... ولا ناوية تسمعينا الاسطوانة المشروخة بتاعت أنا هكمل تعليمي ودراستي .
استطاع أبي أن يوقف تيار كلامها الجارف فقال محاولا إقناعي :
- يا نورا دا شكله محترم ومؤدب وابن ناس ... دا رفض يقعد معاكى لوحدك إلا بعد كتب الكتاب ... شيخ جامع بقا في الاوقاف ومتعلم في الأزهر .... كمان معاه صنعة ومحل ...يعني هيعرف يعيشك ويصرف عليكي .
قالتْ زوجة أبي في فرح :
- وأمتي كتب الكتاب يا قاسم ؟
قال أبي مبتسما :
- هو قالي إن زيارته انهارده ربط كلام ... ولمّا عروستنا توافق هيجيب الست والدته يتقدموا رسمي ونحدد كتب الكتاب .

قلتُ ومازالتْ أثار الدموع في عينيّ :
ـ بس احنا منعرفوش أصلاً ... إزاي هوافق عليه كده ؟
أجاب أبي في هدوء وقد نجح أن يسبق زوجته في الإجابة :
ـ ما أنا أكيد هسأل عنه قبل ما نوافق ... ومتقلقيش مش هوافق عليه إلا بعد موافقتك .
قالتْ زوجة أبي مسرعة كأنها تعترض :
ـ موافقتها إيه يا راجل ... طالما أبوها اللي يعرف مصلحتها موافق... يبقى هي توافق ... ولا دماغك فيها حد تاني يا حبيبتي ؟
جملتها الأخيرة كانتْ لا تخلو من تلميحٍ واتهام ، فشعرتُ بالاهانة وتذكرتُ أمي وعم حسين ، ثم تذكرتُ حسام ، أنا لن أتزوج سوي حسام ، ولن أكون إلا لحسام ، وشعرتُ بدموعي تهطل ، فقال أبي وهو يجذب زوجته ويهم بالخروج :
ـ متعيطيش يا بنتي ... فكري على مهلك وخدي وقتك ... معتز ساب معايا ده تخليه معاكي .
قال جملته الأخيرة وهو يضع شيئا ما بجواري على السرير ، خرج ومن خلفه زوجته التي أوصدتْ الباب وحين جففتُ دموعي ونظرتُ إلى ما تركه أبي ، وجدتُ مصحفا صغيرا في حجم كف اليد .

مرتْ الأيام وكنتُ أهرب من البيت وأبدد الوقت في الجامعة والمحاضرات والتجول ، لم يظهر حسام ولا أحد من شلته ولا شيرين أيضا :
ـ طبعا ... أكيد قاعدة عنده في الفيلا ... دى عاملة إقامة كاملة أصلاً .
وفى البيت كنا نجلس حول مائدة الطعام متحاشية النظر إلى أبي وزوجته لأفوتَ عليهما فرصة فتح موضوع خطبتي ، لكنها لم يكفا عن الإلحاح عليّ ، كان أبي يلح إلحاح الناصح الحكيم الذي يعرف مستقبلي ، بينما كانتْ زوجة أبي تلح إلحاح مَنْ يريد التخلص منّي في أقرب محطة ، وكنتُ في كل مرة أرفض .

بعد أيام كنتُ في الجامعة ، تلقيتُ اتصالا من حسام فعادتْ رعشتي وارتباكي المحببان لدي وسمعته يقول :
ـ اطلعى دلوقتي قدام باب الجامعة .
قلتُ في غباء وفرحة :
ـ ليه ... فيه إيه ؟
قال مسرعا في نفاذ صبر :

ـ اطلعى بقا يا نورا بسرعة .
سرتُ كالمسحورة وحين خرجتُ وجدته أمامي بسيارته الأنيقة ، سرعان ما فتح لي الباب وأشار إليّ في حركة استعراضية فجلستُ في المقعد الأمامي في تردد ، عادتْ تلك الأحاسيس تعمل في قلبي ، أدار حسام محرك السيارة ، وغبت أنا في هواجسي :
ـ يا ترى أقوله على موضوع معتز ولا بلاش ؟!
كنتُ شاردة بينما تنطلق بنا السيارة بعيدا بعيدا غير عالمة إلى أين نحن ذاهبان ، وعاد الرجلان اللذان بداخلي يتصارعان ، قال الرجل الذي يشدّني إلى اليمين :
ـ ايه اللي بتعمليه ده يا نورا ؟... مش كده حرام ... مش كده انتى بتخونى نفسك وابوكى وعمك حسين .
بينما حدثني الرجل الذي يشدني لليسار :
ـ عادي يابت ... ما هو شيرين بتعمل كده واكتر كمان .
الرجل الذي يشدّني لليمين قال :
ـ وانتي مالك ومال شيرين ... ليه متبقيش زى مكة ... ندوات وصلاة وحجاب وقراءة وثقافة وكمان بتحفظ القران لبنات الجيران .
ثم قال الذي يشدني لليسار :
ـ انتي مش بتعملي حاجة غلط يا نورا ... كل البنات بتعمل كده ...وهو بيحبك ... وطالما بيحبك يبقى هيتجوزك .
أفقتُ من هواجسي حينما سمعتُ حسام يقول :
ـ ياه ... كل ده سَرَحَان ! ... بس عاوزك تصدقيه .
قلتُ مرتبكة :
ـ أصدق مين ؟
قال :
ـ قلبك .

توقفتْ بنا السيارة أمام إحدى الحدائق ، دلفنا للداخل وجلسنا على مقعدين حول منضدة ، طلب لي حسام مشروبا لم يكن إلا فراولة ، فقلتُ :
ـ هو أنت ليه بتحب الفراولة كده ؟
قال وهو يشرب أول رشفة من مشروبه :
ـ الفراولة اكتر ثمرة قريبة من شكل القلب .
قلتُ في جهل :
ـ إزاي يعني ؟

أجاب في استمتاع من جهلي :
ـ الفراولة بتفكرني بقلبي اللى ديما متعذب وهى مش حاسة بيه .
شعرتُ بتيار كهربي يسري في جسدي فنظرتُ إلى النيل والسماء ولم أتكلم ، وبعد أن انتهينا من العصير جذبني من يدي وقال :
ـ يلا بينا
قلتُ وهو يسحبني خلفه كطفلة :
ـ هنروح فين ؟
أجاب :
ـ تعالى بس هنركب المرجيحة .
ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا بجواره في تلك (المرجيحة) التي كانتْ تصعد بنا عاليا فنرى الحديقة والنيل والأشجار من أعلي كأننا في الطابق العاشر أو كأننا طيور تحلق في السماء ، ثم تهبط بنا فجأة إلى أسفل فتهتز أجسامنا وقلوبنا ، وكنتُ كلما تأرجحتُ أو فقدتُ توازني كان يحوطني بذراعه ، وحينما انتهينا كنتُ أشعر بالدوار ، استرحنا قليلا على عشبٍ أخضر ، لم نتحدث كثيرا لكن أعيننا كانتْ تقول كل شيء ، وجذبني
مرة فقلتُ مسرعة :
ـ هنروح فين المرة دى؟
أجاب في مرح :
ـ هنلعب لعبة .
لم يمهلني فرصة الاعتراض ، لأنه اقتادني نحو حجرة محاطة بالستائر في وسطها سيدة تجلس على مقعد صغير وأمامها موقد نار ، شعرتُ بالرهبة فملتُ نحوه سائلة :
ـ إيه ده ؟!
أجاب وهو ينظر للسيدة :
ـ متخافيش .. تعالي بس .
قالها وهو يشدّني من يدي .
أشارتْ لنا السيدة فجلسنا على سجادة أمامها ، وهنا فهمتُ أنها عرافة ، فهمستُ لحسام :
ـ دا حرام أصلاً ... محدش يعرف المستقبل غير ربنا .
قال هامسا :
ـ دى مجرد لعبة ...اسمها لعبة المستقبل .

وضعتْ السيدة كف حسام بين يديها ، ألقت شيئا ما إلى الموقد ،فصعد دخان له رائحة محببة للنفس ومثيرة للمشاعر ، قالتْ العرّافة بعد أن ضيّقتْ عينيها لتوحي بالخطورة :
ـ قدامك القمر ... فاتحلك قلبه .. هتكون أسعد البشر .. لو مخلص في حبه .

تسارعتْ دقات قلبي اثر سماعي ما قالتْه العرافة ، رغم أنى لا أؤمن بالأبراج ولا أصدق تلك التنبؤات وأعتبر كل هذا مجرد تخاريف وسخف ، سحبتْ السيدة كفي المرتعشة ونظرتْ في عينيّ نظرة اربكتني ، ثم حرّكتْ نار الموقد بقطعة خشب ودققتْ النظر نحوي في ثبات وقالتْ :
ـ قدامك كامين ... ولازم تصدقي اللى على اليمين .
لم تزدْ السيدة كلمة واحدة وأنقدها حسام مالا وخرجنا ، وكنتُ أفكر في كلامها (لازم تصدقى اللى على اليمين) .
علمتُ مع مرور السنوات أنها كانتْ صادقة ، لكن عملت ذلك بعد أن فات الأوان

الفصل التاسع
(نورا قاسم)
بعد أن خرجنا من غرفة العرافة ذهبنا إلى أحد المطاعم وتناولنا الغداء ، كان حسام يحاول مرارا أن يضع يده على يدي بمناسبة وغير مناسبة ، كنتُ أعترض تارة ، واستسلم تارة أخرى ، لكن كان استسلامي لا يدوم إلا ثوانٍ معدودة ، ثم أنزع يدي من يده ، وحين انتهينا من طعامنا ركبنا سيارة حسام ، وبينما نحن نسير أخرجتُ هاتفي وأخبرته أنه يجب أن أعود للبيت ، قال وهو ينظر للأمام إلى الطريق :
ـ لسه بدري ... وبعدين تليفونك ده مش عاوز أشوفه تانى .
قلتُ في جهل حقيقي :
ـ إزاي يعنى ؟!
قال وهو ينظر نحوى بنصف عين ويتابع الطريق أيضا :
ـ ميصحش واحدة برنسيسة زيك وتمسك فون قديم كده .
قلتُ في حرجٍ واضح :
ـ اه... ما أنا هشتري واحد جديد إن شاء الله ... بس قولي احنا هنروح فين دلوقتى ؟
قال وهو يضغط على دواسة البنزين :
ـ حالا هتعرفى .

انطلقَ بالسيارة ، وبعد قليل توقفنا أمام محل فخم ، وفتح لي باب السيارة بحركة استعراضية فترجلتُ ، قبض على يدي برفق قائلا :
ـ تعالى .
قلتُ معترضة :
ـ حسام مش كل مرة كده تقولي تعالى من غير ما أعرف احنا رايحين فين .
قال بعد أن ضغط على يدي أكثر فسرتْ قشعريرة محببة في كياني :
ـ المرة دى بالذات مش هينفع أقولك .
ثم جلسنا داخل المحل الفخم ، وتحدث مع شاب أنيق الذي سرعان ما اختفى في غرفة جانبية ثم حضر بعد قليل ومعه علبة ورقية مستطيلة ، خرجنا لكن لم نركب السيارة هذه المرة لأننا سرنا على الأقدام مسافة قصيرة وتوقفنا أمام محل أحذية فاهتزّ قلبي فجأة ، ظننت في بداية الأمر أنه يريد أن يشترى لي حذاء ، وبدأتُ أفكر ، هل رأى حذائي الممزق من قبل ؟ ! لكن كيفَ وأنا كنت حريصة أشد الحرص ألا يظهر الجزء الممزق من حذائي أمامه هو بالذات ؟

شعرتُ بيده تشد يدي لداخل المحل فقلتُ في توتر وعصبية :
ـ لا ..أنا مش هدخل إلا لو قلتُلى هتعمل ايه .
كانتْ أنفاسي متلاحقة وأنا أقول ذلك فسمعته يقول :
ـ أنا عاوز أجيب هدية لأختي ... وعاوزك انتى اللي تختارى الحذاء اللي هجيبه ليها .
وبعد نصف ساعة كنا في السيارة وتوقف بنا فجأة وقال :
ـ هندخل السينما نتفرج على الفيلم ونروّح .
قلتُ مسرعة :
ـ سينما إيه ! ... لا يا حسام لا ... أنا تأخرت ولازم أروّح .
قال بعد أن نظر في هاتفه :
ـ لسه الساعة مجتش خمسة ... وأوعدك بعد الفيلم هنروّح .
وقبل أن أعترض رأيته يقبض على يدي بكلتا يديه وينظر في عينيّ نظرة اخترقتْ فؤادي وقال :
ـ علشان خاطرى بلاش تكسفينى .
وقبل أن نترجل من السيارة رأيته يمد لي العلبة الورقية المستطيلة قائلا :
ـ افتحيها .
قلتُ :
ـ ليه ؟

أجاب :
ـ بس افتحيها .
وحينما فتحتها وجدتُ هاتفا جديدا حديث الطراز ملون الشكل له شاشة كبيرة ذات ملمس ناعم ، فدق قلبي وقدمته له قائلة :
ـ دا تليفون !
فمدّ يده إلى حقيبتي وجذبها وفتحها فشعرتُ بالحرج ، وأخرج هاتفي وضغط عليه عدة مرات حتى أخرج الخط ووضعه في الهاتف الجديد وقال :
ـ مبروك عليكي .
قلتُ في عدم استيعاب :
ـ مبروك ايه ...هي مش الهدايا دى لأختك ؟
قال مبتسما :
ـ أنا معنديش اخوات ...دا تليفونك الجديد .
ثم قدم لي الحذاء قائلا :
ـ وده كمان بتاعك .
ارتبكتُ وابتعلتُ لكنني تحاملتُ وقلتُ :
ـ لا لا ... كده مينفعش خالص ... أنا استحالة أخد حاجة من دول أصلاً .
قال مسرعا :
ـ لا هينفع ...أصلاً هينفع .
فوجدتُ نفسي ابتسم رغما عنّي وقلتُ :
ـ والله مش هينفع خالص ... انت متعرفش حاجة أصلاً .
أجاب وهو يضع يده على يدي :
ـ ومش عايز أعرف حاجة .
سرحت بخيالي :
ـ هتتصرفى إزاي يا نورا ... التليفون غالى أوى أوى ومينفعش أخده .. وأخده بمناسبة ايه أصلاً ... هو مش خطيبي ولا جوزي ... ومرات أبويا لمّا تشوف تليفون زى ده معايا هتقول ايه ... يا لهوى يا نورا ...كله إلا مرات أبويا .. هي شاكة فيا أصلاً من ساعة ما رفضت معتز .
هنا سمعتُ حسام يقول :
ـ انتى ليه كل حاجة بتفكري فيها تفكير أكبر من حجمها ؟!
انتبهتُ أن يده مازالتْ على يدي فنزعتُ يدي وقلتُ :
ـ انت أصلاً متعرفش حاجة .
قال :

- وقلتلك ... مش عايز أعرف .
قلتُ في نفاذ صبر :
- افهم بس يا حسام ... أنا مقدرش أمسك تليفون غالى زى ده قدام أهلي .... هيقولوا جبتى الحاجات دى منين وكده .
أجاب كأنه لم يسمع شيئا :
- قوليلهم هدية من زميلي .
قلتُ بعد أن ظهر العجب على وجهي :
- زميلي !....دول يدبحوني ...لا مش يدبحوني ... دول يدفنوني حية.
قال في تعجب :
- ياه هو فيه ناس بتفكر التفكير ده دلوقتي !
أجبتُ في ضيق :
- مش قلتلك انت متعرفش حاجة .
قال بعد لحظات تفكير :
- بصى مش لازم يشوفوهم ....بس لازم تاخديهم....
ثم أكمل فى ضيق :
- لو شافوهم وسألوكى قولى انك اشتريتيهم لنفسك وخلاص يانورا .
قلتُ دون تفكير :
- اه... وأقولهم اشتريت تليفون بألفين جنيه وأنا أصلاً مش معايا ......
ثم انتبهتُ لما أقول فصمتُ ، فضحك وقال :
- هم كمان هيستغربوا لو عرفوا انك جبتي تليفون بألفين جنيه ...أومال لو عرفوا إن التليفون بـ 9 ألاف جنيه .
قلتُ وأنا أضع أصابعي على فمي من الصدمة :
- يالهوي ... هو التليفون ده بـ 9 الاف ؟!!!
قال مبتسما :
- دا أنا مكسوف منك .. لاني سألت على نوع تاني بـ 27 ألف جنيه بس لقيتهم لسه ماجبوهوش من برة ..وأنا بصراحة مش بتعامل مع حد بتاع موبيلات غيرهم .
- يااه !!! 27 ألف جنيه ... دا المبلغ ده يكفيني لحد ما أخلص رابعة جامعة وكمان يحل كل مشاكلي كمان .
قلتُ ذلك في نفسي وأنا شاردة ، ثم سمعته يقول :
- زى ما قلتلك يا نورا ... لو سألوكي
قوليلهم دي هدية من واحدة صاحبتي .
قلتُ :

ـ مش هعرف أقولهم كده ... أنا بغرق في شبر ميه أصلاً ... وهعترف بكل حاجة من أول سؤال ... وبعدين أنا كده هبقى بكذب عليهم
قال في لا مبالاة :
ـ وإيه يعنى ...دى كذبة بيضه .
قلتُ :
ـ مفيش حاجة اسمها كده أصلاً ... الكذب كله حرام ... اسفه مينفعش .

نظر للأمام ووضع يديه على مقود السيارة وقال في نبرة حزن :
ـ خلاص يا نورا أنا هرجعهم ... وأسف لو دايقتك ... كنت بحسب إن ليّا خاطر عندك .
قلتُ في تردد :
ـ انت زعلت ؟
أجاب وهو ينظر بعيدا عنّى :
ـ لو انتى قدمتيلى هدية في عيد ميلادي وأنا رفضتها ...مش كنتى هتزعلى ... بس خلاص أنا عرفت ان زعلى مبيفرقش معاكى .
قلتُ مسرعة :
ـ لا متقولش كده ... أنا هاخدهم .
تغيرتْ نبرة صوته ونظر نحوي في فرح وقال :
ـ يلا بقا نلحق السينما .

ولأول مرة في حياتي أدخل دار سينما ، لذلك كنتُ منبهرة مأخوذة وأنا أرى تلك الصالة المتسعة والستائر والمقاعد الاسفنجية المصطفة في نظام هندسي عجيب ، وفي قاعة العرض كان الفيلم رومانسيا واختار لنا حسام مقعدين في إحدى الشرفات بعيدا عن مقاعد الصالة الأرضية ، وكلمّا تحدث البطل مع حبيبته كان حسام يحاول أن يضع يده على يدي ، كنتُ استسلم لثوانٍ معدودة ، ثم يعود إلىّ رشدي فانزع يدي ، وفى نهاية الفيلم كانتْ قبلة طويلةً بين البطل وحبيبته ، فشعرتُ بيد حسام تحوطني من أعلى خصري فبدأت أفكر :
ـ اسيبه ولا أمنعه ؟
كان الرجل القابع بداخلي من الناحية اليمنى يحدثني :
ـ تسبيه ايه ؟.... منظرك ايه قدام ربك وقدام نفسك وصلاتك ..... صلاتك لو مش هتمنعك من ذنوبك دي يبقى لازمتها ايه .
بينما يشدّني الرجل الذي على اليسار قائلا :

ـ ما البطل والبطلة في الفيلم مش مجوزين ... ومع ذلك هي سابته يمسك ايدها و......

وحينما أفقتُ من تفكيري كادتْ شفتا حسام أن تلامس خدي الأيسر لولا أنني انتفضتُ مذعورة قبل أن يقبّلني وابتعدتُ عنه ، وكل شيء بداخلي يرتعش كورقة .
في طريق العودة بينما نحن نسير بسيارته لم يتكلم ، وكان عابس الوجه ، وكنتُ أعلم السبب فقلتُ :
ـ مالك ؟
أجاب دون أن ينظر إليّ :
ـ مفيش .
قلتُ محاولة أن أخفف عنه :
ـ انت زعلت تانى ؟!
لم يرد ولم يلتفت إليّ فقلتُ من فوري :
ـ طيب قولي أعمل ايه علشان أرضيك وأنا هعمله .
أجاب :
ـ سيبي قلبك هو اللي يتكلم وهو اللي يعمل ... انتى بتحبينى وقلبك بيقولك انك بتحبينى ... يبقى ليه الخوف ده ؟
أجبتُ في ارتباك :
ـ أنا خايفة من الحرام يا حسام ... انت مش جوزى ولا خطيبي علشان نعمل كده .
قال ومازال الغضب باديا على وجهه الوسيم :
ـ بس كل اللى بيحبوا بعض بيعملوا كده .
قلتُ ومازال التوتر والخجل والحيرة يسيطرون عليّ :
ـ بصراحة أنا مش عارفة أصدق اللي بشوفه في الأفلام ولا اللي تربيت عليه .
قال :
ـ أنا عاوزك تصدقي قلبك .
قلتُ في حيرة :
ـ أنا عمري ما تكلمت مع ولاد قبل كده غيرك... وعمري ما كان لي تجارب أتعلم منها وعمري ما كان لي صاحبات خالص ... طول عمري وحيدة ... ومش عارفه اللي بعمله معاك ده صح ولا غلط .
قال في نبرة لا تخلو من غضب :

ـ وانتى يعنى بتعملى ايه معايا علشان تأنبي نفسك كده ؟
قلتُ في غباء :
ـ انى بخرج معاك واتكلم معاك ... أهلي عارفين انى في الجامعة ...وأنا هنا بتفسح .. مرة مراجيح ومرة سينما ... وهم واثقين فيا .
قال في غضب :
ـ يبقى انتى مش واثقة فيّا .
قلتُ مسرعة :
ـ أنا بثق فيك ... ولمّا بمنعك وبصدك بكون بتعذب من جوه ..بتعذب علشان خايفة تزعل ... وفى نفس الوقت خايفة أكون برضيك وبعصي ربنا .
قال وهو يضغط على كلماته :
ـ انتي نظرتك للدنيا قديمة أوى ... البنت لازم تكون جريئة ومنفتحة ومتحضرة ...أنا عاوزك تنسى التفكير القديم الرجعي ده ... وتبصى لحياة الجامعة ... شوفى البنات وشوفى الأفلام وقصص الحب... ولا دى حرام هى كمان .
قالها بلهجة ساخرة فصمتُ ولم أتكلم .
كنا قد وصلنا الجامعة ، فطلبتُ منه النزول ، فأوقف السيارة ونزلتُ ثم قال لي قبل أن انصرف :
ـ على العموم أنا آسف على اللي حصل منّي ...وأوعدك انى مش هزعجك تانى .
وقبل أن أرد أدار محرك السيارة وانطلق بعيدا .

انزويتُ ناحية إحدى الأشجار أمام الجامعة وجلستُ على سور منخفض وبدأت أبكي ، كم مرّ من الوقت ؟
لا أعلم ، لكنني أعتقد أن عشرين دقيقة مرّتْ وأنا جالسة أبكي في صمت ، ثم نهضتُ وسرتُ إلى محطة الزهور سيرا على الأقدام وأنا أفكر :
ـ كان لازم تمنعيه بس يا نورا ... هيحصل ايه يعنى لو سبتيه .
ـ ما هو في كل مرة بيأكدلك حبه ... انتى كنتى تحلمي إن واحد وسيم ورومانسى ومشاعره رقيقة زيه يحبك ... دا شيرين اللي أجمل منك وتقول للقمر قوم وأنا اقعد مكانك بتموت فيه ...أنا فعلا تفكيري قديم ولازم أكون منفتحة زى ما هو قال .
ـ بس لو بقيت منفتحة ... هخاف يقول عليا اني مش محترمة .

دخلتُ الشقة بعد الساعة الثامنة مساء وحرصتُ على أن أخفي الهاتف والحذاء خلف دولاب الملابس ، وقررت ألا أستعمل هذا الهاتف الجديد إلا عند خروجي فقط ، وأعتقد أن زوجة أبى لن تنتبه لحذائي الجديد ، ومن فرط فرحتي رحتُ أرتدي كل ثوب من ثيابي الثلاثة لأجربه مع الحذاء ، كنتُ سعيدة كطفلة وأنا أمشى بالحذاء داخل الغرفة كأنني أتعلم المشي لأول مرة ، ثم خلعتُ الحذاء وأخفيته ، وجعلتُ هاتفي الجديد على (الوضع الصامت) ، وسهرتُ أتأمله في انبهار، وفى سجل الأسماء رأيتُ اسم حسام ، فانقبض قلبي وتلاشتْ فرحتي بالمشتريات الجديدة شيئا فشيئا ، وبدأتْ دموعي تتساقط .

في الأيام التالية لم أرَ حسام كثيرا ، فقط أراه وأنا في المحاضرة ثم يختفي بعد انتهاء كل محاضرة ، وكنت أفتش عنه بعينيّ على الكافتيريا وأمام الكلية دون جدوى ، كنتُ أعلم أنه مازال غاضبا منّي بسبب صدي له وعدم انفتاحي على حد تعبيره ، لكنني لا أطيق هذا التجاهل ، كان قلبي ينشطر كلّما رأيته يجلس بجوار شيرين في المحاضرات ، كنتُ أود أن أجلس بجواره ، لكن لا أملك تلك الجراءة ، وبعد أن كان هو الذي يبحث عنّي ويختلق الحجج لمقابلتي ، صرتُ أنا من أفعل ذلك .

وبدأتْ الامتحأنات وكان الحدث الرائج وقتها هو افتتاح شركة جديدة لرجل الأعمال (عبد المجيد شاهين) والد حسام ، وفي اليوم الأخير من الامتحأنات كنتُ خارجة من باب الجامعة فرأيته يُسرع نحوى ويقول بأنفاس متلاحقة :

ـ ازيك يا نورا ؟

كدتُ أن أقول :

ـ ياه ... لسه فاكر تسأل عليا .

لكنني تراجعتُ وحمدتُ الله أنني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة ، وقلتُ :

الحمد لله ... كويسة .

قال :

ـ يوم الخميس اللي بعد اللى جاى عاملين حفلة بمناسبة افتتاح شركة بابا الجديدة ...وانتى طبعا معزومة .

قلتُ في تردد :

ـ بس .....

قاطعني :

ـ أصلاً مفيش بس ... أصلاً مفيش أعذار ...أصلاً.
فوجدتُ نفسي أضحك من تكراره لكلمة (أصلاً) لأنها لازمة كلامية تعودتُ أن أقولها ، فابتسم هو الآخر ، ونسيتُ كل الجفاء والتجاهل حينما رأيتُ ابتسامته الجذابة وقلتُ مسرعة :
ـ حاضر .

وفى نفس مساء اليوم عملتُ أن معتز كرر طلبه من أبي ، لكن أبى كان يقول له في كل مرة :
ـ مستسعجلش يا باشمهندس ...إن شاء الله خير .
ولمّا علمتُ بذلك توجهتُ إلى مكة ، كانتْ الساعة السابعة مساء ، رحبتْ بي والدتها ، ودلفتُ إلى حجرة مكة ، وما إن رأيتها قلتُ في عصبية :
ـ إيه يا شيخة مكة ...أجي عندكم مرتين تلاتة الاقيكي باعته عريس ورايا .
قالتْ مكة في جهل واضح :
ـ عريس إيه يا شابه ... هم قالولك عليا خاطبة ولا ايه ؟
قلتُ في غيظ :
ـ استهبلى بقا يا ست الشيخة .... معتز لما شافني عندكم جه تانى يوم يخطبني ... وطبعا انتى اللى اخترتيله العروسة .
قالتْ :
ـ أولا ميصحش تكلمينى كده ... ثانيا أنا لا بكلم معتز ولا غير معتز ...وانتى عارفه كويس انى استحالة أكلم واحد إلا فى حدود طلب العلم وبس .

شعرتُ بالتسرع في حكمي وأنني كنتُ قاسية معها ، ونظرا لما شعرتُ به من صدق في كلامها اقتربتُ منها وربّتُ على كتفها وقلتُ بعد أن سقطتْ دموعي لا إراديا :
ـ أنا آسفة يا مكة ... أول مرة أكون عصبية كده ... غصب عني ... بس أنا بصراحة مش عاوز أجوز معتز ده أصلاً .
قالتْ في نبرة هادئة :
ـ طيب وإيه المشكلة ؟... عرّفي والدك انك مش موافقة عليه .
فقلتُ شاردة وأنا أجفف دموعي :
ـ المشكلة إن أبويا مقتنع بمعتز أوى وشايف انه ملتزم ومحترم ومكافح ومعاه صنعة وفلوس وكده .
قالتْ :

ـ طيب ما باباكى استحالة يقول كده إلا لو كان سأل عنه وعن أهله وعن أخلاقه .
أجبتُ بسرعة :
ـ بس أنا مبحبوش .
قالتْ وهى تنهض :
ـ لا ... دا أنا هروح أعملك شاي بقا ....بس قوليلى ...فيه اتهامات تانى عاوزه تتهمينى بيها قبل ما أعمل الشاي ؟
قلتُ مبتسمة :
ـ خلاص بقا يا مكة ... ميبقاش قلبك أسود .
قالتْ وهى تفتح باب حجرتها :
ـ طيب أعمل شاي ولا شربات .
قالتْ كلمة (شربات) طويلة ممدودة كما كانتْ تنطقها ماري منيب ، فضحكتُ وأنا أقذفها (بوسادة) صغيرة كانتْ تستقر بجواري .

حينما عادتْ مكة من المطبخ وقدّمتْ لي الشاي حكيتُ لها ما فعله معتز حينما جاء ليطلب يدي من أبي بالتفصيل ، فقالتْ في جدية :
ـ وانتي هتعملي إيه دلوقتي يا شابه ؟
أجبتُ :
ـ والله ما أنا عارفه يا مكة ... بس استحالة أوافق عليه أصلاً .
قالتْ :
ـ طيب ما تدّي لنفسك فرصة وتستخيري ربنا يا نورا .
قلتُ في إصرار :
ـ انتى مش فاهمة ...أنا أصلاً مش بحبه .
قالتْ في تعجب :
ـ تحبيه ... هو انتي بتتكلمي جد ولا بتهزري ؟!
قلتُ :
ـ اهزر ايه بس يا مكة .
قالتْ وقد تغيرتْ لهجتها :
ـ يعني انتي عايزه تقعدي معاه وتكلميه وتخرجوا بقا وتتفسحوا وساعتها تشوفى نفسك حبيته ولا لأ ؟
قلتُ في غباء :
ـ مش كل البنات بيعملوا كده ؟
أجابتْ في عصبية :

ـ يا بنتي انتي هبلة ولا عبيطة ولا إيه؟! ... مفيش حاجة اسمها كده ... فيه حاجة اسمها خطوبة ...تتعرفوا على بعض في فترة الخطوبة لو حابة ...وكمان في وجود حد يكون معاكم فى نفس المكان.... ويكون كلامكم محدد فاهمه يعني إيه محدد ...ولا انتي فاكرة إن اللى هيخرج معاكي ويفسحك ويقعد معاكي لوحدك ويسرح فى عنيكي ويمسك ايدك ... هيجوزك فى الاخر .

ـ يالهوي ... يعني اللي أنا بعمله مع حسام ده غلط وحرام ...اومال ليه هو فهمّني إن البنت اللى متعملش كده متبقاش منفتحة ومتحضرة .
قلتُ ذلك في نفسي بعد أن تلاحقتْ دقات قلبي مسرعة ، ثم ابتعلتُ ريقي بصعوبة وقلتُ :
ـ بس البطلة في الفيلم عملت كل ده مع حبيبها وفى الأخر اجوزها عادي .
قالتْ :
ـ يا بنتي فوقي ...دا فى الأفلام ... وحتي لو انتي ضامنة انه هيجوزك ... ليه تبدأي حياتك بحرام ... راقبي ربنا بدل ما تراقبي الأفلام ... وبعدين الراجل رفض يقعد معاكي على انفراد حفاظا عليكي .
قلتُ دون وعي :
ـ أنا بتكلم عن حسام مش معتز يا مكة .
رفعتْ حاجبيها تعجبا وارتسمتْ الدهشة على ملامحها وقالتْ :
ـ حسام ؟!..... حسام مين ؟
وهنا حكيتُ لها كل شيء ، كل شيء .

الفصل العاشر

(نورا قاسم)

حكيتُ لمكة كلّ ما حدث بيني وبين حسام بالتفصيل ، وفور انتهائي من الكلام قالتْ مذعورة :

ـ الله يخربيت الهبل بتاعك ... بابنتي اصحي للدنيا كده وفوقي من الوهم ده ... دا واحد بيتسلي بيكي ... اللى بيحب واحدة وعاوزها في الحلال يروح يخطبها من بيتها في النور قدام كل الناس .

قلتُ في خوف :

ـ يعني هو مش هيجوزني ؟

قالتْ في غضب بدا فى نبرتها :

ـ النوع اللي زيه بيتسلي مش أكتر ... ولمّا يفكر يجوز هيجوز.. مش هيجوز واحدة دخلت معاه سينما وركبت معاه المراجيح ... دا بيلعب بيكي .

قلتُ مسرعة :

ـ بس هو لو عاوز يعمل كده .... قدامه بنات كتير أشكال وألوان .

قالتْ في حزم :

ـ لأنه بيستمتع بصيد الفريسة أكتر من استمتاعه بالفريسة نفسها .

قلتُ ومازالتْ علامات الغباء على وجهي :
- إزاي يعني ؟
أجابتْ :
- من غير إزاي ... ما معتز شاب زيه بس رفض يقعد معاكي على انفراد لوحدكم رغم ان باباكي هو اللى قاله .... لانه عاوز كل حاجة فى تبقى فى النور ... تبقى فى الحلال .. وحسام ده بيقولك خبي عن أهلك الهدايا ... تقدري تقولي لأهلك انك بتخرجي مع حسام ... لا طبعا ... لانكم بتعملوا كده فى الضلمة ... واللي تعمليه فى الضلمة وانتي خايفة يبقي حرام ...مفكرتيش في اهلك اللى كلهم ثقة فيكي انك فى الجامعة بتدرسي وبتتعلمي وانتي فى السينما والمراجيع والمطاعم ... ديما سرحانه وشاردة وخايفة أحسن حد يشوفك معاه ... فلازم تتعلمي الكذب واللف والدوران وتنسي دراستك .

مرّ يوم واحد بعد زيارتي لمكة ، كنتُ كعادتي في صراع بين ما أفعله وبين ما بداخلي ، شعرتُ بالملل ورحتُ أسأل نفسي ، كيفَ سأقضي فترة إجازة نصف العام دون أن أراه ؟
وتذكرتُ المال ، لقد نفذ مالي ولم يظهر عم حسين ، كان قد وعدني أن يُحضر لي مالا في إجازة نصف العام ، فجأة شعرتُ اهتزاز هاتفي وحين نظرتُ إليه وجدتُ رسالة من حسام :
- عايزك تصدقي قلبك .
اهتزّ قلبي وقرأتُ الرسالة أكثر من مرة ، ثم نمتُ وأنا أفكر ، كيفَ سأشترى هدية لحسام في حفل افتتاح والده لشركته الجديدة :
- المرة دي مش هينفع أروح من غير هدية ... كفاية منظري قدامه يوم عيد ميلاده لمّا كلهم قدّموا له هدايا إلا أنا .
- بس أجيب فلوس منين ؟
- أيوه افتكرت ... مفيش غير مكة ... هي قالتْلي قبل كده انها تعرف واحدة باباها صاحب مصنع هدوم وبيشغّل فيه ستات وبنات .

في اليوم التالي ذهبتُ لمكة وأخبرتها أنني أريد العمل ، وحينما سألتني عن السبب فقلتُ كاذبة :
- بصراحة قاعدة زهقانة فى البيت والاجازة لسه طويلة فقلتُ أعمل حاجة مفيدة .
أخفيتُ عنها أنني أريد المال من أجل شراء هدية لحسام ، لأنني وعدتها من قبل أن أقطع علاقتي به وأهتم بدراستي ومستقبلي .

قالتْ في حماس :
ـ طالما زهقانة كده ما تيجي تحضري معايا دروس وندوات على النت وهعملك (اكاونت) تدخلي بيه جروبات ومنتديات مفيدة ...تقرأي وتثقفي نفسك وتحفظى النصوص الشعرية المقررة علينا السنة الجاية ... وكمان تشاركي معايا فى تسميع قرأن للبنات .
سألتها في جهل :
ـ مكة هو انتي بتاخدي فلوس مقابل دروس القرآن ؟
قالتْ مبتسمة :
ـ فلوس ايه بابنتي ... دي حاجة كده بعملها علشان تنفعني في قبري لمّا أموت .
قلتُ مسرعة :
ـ بعد الشر عليكي .
ثم أردفتُ قائلة :
ـ بصي خليها للاجازة الكبيرة في الصيف ...أوعدك هتعلم منك المشاركة والتفاعل فى النت وأشارك معاكي في تحفيظ القرآن ... بس دلوقتي كلّمي صاحبتك اللى باباها معاه مصنع .
قالتْ :
ـ ماشي يا شابة .

في اليوم التالي كنتُ في مصنع الملابس ، كان بعيدا جدا عن القاهرة ، لذلك فرحتُ حينما أخبرني صاحب المصنع أنّ هناك مبني معد خصيصا للمبيت ، كان الرجل أشيب الشعر وقورا له وجه مستدير مريح ويبدو الرخاء وراحة البال علي مظهره وهيأته ، سألني بعض الأسئلة على غرار : هل سبق لكي العمل من قبل وأشياء من هذا القبيل ، عرفتُ أنه سيتكفل بإقامتي وإطعامي ، كما عرفتُ أنني سأحصل على ثلاثة ألاف جنيها شهريا وأخبرته أنني سأعمل شهرا واحدا فقط ـ فترة الإجازة ـ لأنني طالبة في الجامعة .

كانتْ المشرفة تيقظني مع الفجر ، أتناول إفطاري مع مجموعة من الفتيات ، ثم نبدأ العمل مع شروق الشمس ، وعند الظهيرة كنا نحصل على استراحة لمدة ساعة ، كنتُ أصلي فيها الظهر ثم أتناول الغداء مع الفتيات ونحن نثرثر ثم نعود للعمل حتى يحل الظلام ، كان العمل شاقا قاسيا ،

وكانتْ كلتا يديّ لا تكف عن الحركة ، ما بين ترتيب الملابس أو حملها إلى المخزن أو وضعها على اسطوأنات كهربائية متحركة أو ترتيبها بشكل معين أو غمرها في مياه ساخنة ، وحينما كنتُ أشعر بالممل والتعب كانتْ المشرفة تنقلني إلى المطبخ كمساعدة لسيدة مسنة كانتْ تقوم بطهي طعام العاملات ، فكنتُ أذهب معها في سيارة معدة لشراء الخضروات ، وحين أعود أقوم بمساعدتها في تجهيز الطعام أو تنظيف الأطباق ، كنا أكثر من سبعة وأربعين فتاة وثلاث مشرفات ، وطاهية طعام ، كانتْ كل فتاة تحصل على راتب شهري حسب خبرتها أو حداثتها ونوع العمل الذي تقوم به ، كنا ننام في غرف واسعة مجهزة للنوم والمعيشة ، في كل حجرة مجموعة من الأسرّة الأفقية التي تشبه أَسرّة المدن الجامعية ، غرف متواضعة لكنها تفي بالغرض ، وفى المساء كنتُ أستمع لأحاديث البنات اللاتي كن في أعمار مختلفة ، منهن اليتيمات مثلي ، ومنهن المطلقات ، ومنهن الأرامل ، كنتُ أستمع إلى قصصهن وحكاياتهن دون أن أشاركهن الحديث إلا نادرا ، وكانتْ أحاديثهن ومزاحهن يخفف عنّي مشقة العمل ، كنُت أفعل ذلك من اجل حسام ، كنتُ أتذكره كل ليلة وأحلم ، وابتسم في نفسي حينما أتذكره وهو يقول :

ـ سيبي قلبك هو اللى يتكلم .

وكان كل ما يشغل بالي هو الهدية التي سأشتريها له ، وكنت أرد على نفسي :

ـ ما هو أنا لازم اجيبله هديه تكون حلوة ..اشمعنا شيرين يعني .

بعد أسبوع من العمل المرهق الشاق كان وجهي قد شَحُب ، وبدا الضعف على جسدي ولازمني الصداع وفقدان التوازن بسبب قلة ساعات الراحة وكثرة ساعات العمل ، وحينما كان الملل والتعب يسيطران عليّ كنتُ أتصفح رسائل حسام على هاتفي فيعود لي نشاطي وتتجدد حماستي .

كانتْ تشاركني في سريري فتاة اسمها سحر في الخامسة والعشرين من عمرها ، شاحبة الوجه ، مبلبلة الفكر ، وذات ليلة استيقظتُ من النوم على صوت بكائها ، فانتفضتُ مذعورة بعدما ظننتُ أن مكروها أصابها ، فربّتُ على كتفها وقمتُ بتهدئتها وطلبتُ معرفة سبب البكاء ، وبدأتْ تحكي :

ـ ولدتُ وكبرتُ وأنا في بيت العائلة ، أبى وعمي شقيقان ، وأمي زوجة عمي شقيقتان ، وان كان كل إنسان لا يملك إلا أبا واحدا وأما وواحدة ... فأنا كنتُ أشعر أنني أملك أبوين وأمين ، تعرفي الجو الأسري لما تقعدوا تاكلو مع مامتك وباباكي واخواتك وعمك ومرات عمك وولادهم على مائدة

واحدة .. كنا نضحك ونهزر ونلعب مفيش فرق بينا ... أسرة واحدة سعيدة متماسكة ... ومع الوقت حسيت إن ابن عمي عينه منّي ... كان مش بيفوّت فرصة إلا ويحكيلي عن حبه .... بس مكنتش شيفاه حبيب ... كنت شيفاه أخ وبس ...ولما تقدّملي ورفضته كانتْ الصدمة للجميع ... لأن رفضي ده هيكون هو اللى هيفرق العائلة ... بس مش هكون أنا تمن سعادتهم وتماسكهم ... إزاي أعيش مع واحد عمري حسيت ناحيته بالحب ... ومكنش ده أهم أسباب رفضي ... قلبي كان متعلق بواحد تاني حبيته وحبني ... لكن كانتْ غلطتي إني عملت معاه كل حاجة باسم الحب ... كل حاجة .
ثم ارتفع صوت نحيبها وارتشفتْ دموعها التي بللتْ وجنيها وأكملتْ :
ـ ولما قلتُله إني حامل ولازم يتقدملي في أقرب وقت لاقيته بيهرب مني .... ولما هددته إني هفضحه ... هرب وسافر ... وكان لازم أهلي يلاحظوا شرودي وحزني ودموعي اللي بتنزل بمناسبة ومن غير مناسبة .... في الأول اعتقدوا إني عندي مس شيطاني .... وبيتنا بقي سيرك للدجالين والنصابين اللى بيدّعوا انهم بيعالجوا المس ... بس السؤال اللي كان محير أهلي
(هى بنتنا جرالها إيه ؟!!!)
لكن حجم بطني اللي بدأت تكبر كان أبلغ إجابة ...... حبسوني في أوضة وحرموني من الأكل .... وفي ليلة لقيت واحد بيفكني ... هرّبني من البيت وركبني أول قطار للقاهرة .... الواحد ده كان ابن عمي اللي كان بيحبني .....فاكرة آخر جملة قالها لي وهو القطار بيتحرك ... (أهل الخير في القاهرة كتير ... ابدأي حياة جديدة هناك)
ابني مات في بطني .... وأهل الخير دلّوني على المصنع ده .

أشفقتُ عليها وبكيتُ لحالها ، وكأن الله كان يرسل في طريقي من يحذرني مما أنا مقبلة عليه ، لكنني كنتُ كمَنْ وُضع على عينيها غشاوة ، كنتُ أمضي في طريقي الشائك دون وعي كالمسحورة .

في نهاية الأسبوع الثاني نفذتْ طاقتي فقررتُ ترك العمل لعدم قدرتي على التحمل ، وها أنا حصلتُ على مبلغا ماليا لا بأس به ، أنقدني صاحب المصنع ألف وخمسمائة جنيها نظير عمل أسبوعين ، وأثني عليّ وعلى أخلاقي وانتظامي في العمل ، وأخبرني أن المصنع يرحب بي ما إن فكرتُ في العودة للعمل .

عدتُ إلى القاهرة وأنا سعيدة بهذا الانجاز ، واستعددتُ للحفل ، قمتُ بشراء قميصين بلونين مختلفين ورابطتي عنق لحسام ، واشتريتُ لنفسي حجابا جديدا ، فكان إجمالي ما دفعته ألف ومائتي جنيها .

في صباح يوم الخميس كنتُ أتجول الشوارع حتى وصلتُ إلى ضالتي واشتريتُ بعض أدوات التجميل (مكياج) ، تعجبتُ كثيرا حينما عرفتُ أسعار تلك الأشياء ، كانتْ أسعارها خرافية فادحة ، كانتْ هذه المرة هي المرة الأولي التي أشتري فيها مثل هذه الأشياء ، واكتفيتُ بشراء أشياء قليلة ، لكنني وجدتُ نفسي في مأزق :

ـ طيب أنا هحط مكياج إزاي في البيت قدام مرات أبويا ؟!

ثم اهتديتُ إلى فكرة :

ـ أيوه ...أنا أروح عند مكة وأحط مكياج براحتي .

ـ بس مكة هتعملّي فيها ست الشيخة وأنا مش عايزه نكد انهارده خالص .... وأنا أصلاً وعدتها إني أقطع علاقتي بحسام .... طيب وبعدين هتعملي ايه يا نورا ؟!

كنتُ غارقة في مشكلتي ثم عزمتُ أخيرا أن أذهب إلى الحفل دون تجميل .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أخبرتني زوجة أبي أنها ذاهبة إلى والدتها المريضة وأنها سوف تبيت ليلتين ، اهتزّ قلبي فرحا ، وما إن خرجتْ زوجة أبي حتى جلستُ أمام المرآة ، وبدأتُ أتفنن في تغيير وجهي ، كنتُ سعيدة بما أفعل ، متشوقة لرؤية ردة فعل حسام حينما يراني بشكلي الجديد ، وقبل أن أخرج رحتُ أطمأن لميكاج وجهي ، وحذائي الجديد وحجابي الذي اشتريته اليوم ، ورحتُ أتخيل كيفَ أن حسام سَيُعجب بهذا التغيير ، وسيزيد إعجابه بي وينسي شيرين ، وقلتُ في نفسي :

ـ أيوه كده يابت يا نورا ... كده بقيتي أحلي .

ـ مش هو برضه عايزني أبقي منفتحة ومتحضرة .

ثم نظرتُ للمرآة مرة أخري ، وعدتُ أحدث نفسي :

ـ شيرين مين دى بس اللى أحلي منّي .

ـ دا أنا بس لو معايا فلوس اشتري كل أدوات المكياج اللي شفتها .

بعد ساعات كنتُ أمام الفيلا ، وحين دلفتُ للداخل كان الهرج يسود كل شيء ، موسيقي ،أزهار، مشروبات ، ورجال يرتدون سترات أنيقة ، وسيدات

وبنات يكشفن أكثر مما يلبسن ، وحسام والشلة ، أحمد وشريف وشيرين ، حين رأني حسام قال لي بلهجة جافة :
- نورتي .
قالها ثم انصرف .
تعجبتُ من هذه اللهجة لأنني شعرتُ بالتجاهل ، ولكن خمنتُ أنه مشغول بالترحيب بالضيوف والمهنئين ، كانتْ شيرين ترتدي فستأنا ضيقا أعلى الخصر، قصيرا ينتهي أعلى (الركبة) مكشوفا من الأعلى ، كانتْ تتنقل من مكان لمكان كالفراشة ، انزويتُ على أحد المقاعد وبدأتُ أراقب ما يحدث ، منتظرة أن يأتي حسام .
وبعد مرور نصف ساعة رأيتُ رجلا يشير بيده فصمتَ الجميع ، وبدأ الرجل يتحدث ، قال كلاما كثيرا عن أخلاق (عبد المجيد بيه) وذكائه وقدرته علي المنافسة في السوق ، وتحدث عن عصاميته ومسيرته العملية التجارية الناجحة ، وبعد أنهى كلامه توالتْ التهاني على والد حسام ، هنا فطنتُ لشيء ، والد حسام هو الرجل الأنيق الأصلع الذي رأيته في عيد ميلاد حسام من قبل ، وسألت نفسي ، لماذا انصرف سريعا يوم عيد ميلاد حسام ؟
والاهم لماذا لم أراه في المستشفى مع حسام يوم إجراء العملية ؟
رأيتُ أن الجميع يتسارعون لمصافحة الرجل ، وأنه من الذوق أن أفعل مثلهم ، فسرتُ في خطوات غير واثقة وصافحته ، لكنه حينما نظر لي بدا التوتر على وجهه ، نظرت في عينيه ولا أعلم لماذا شعرت بأنني رأيتُ هاتين العينين من قبل ، هنأته على افتتاح شركته الجديد متمنية له التوفيق ، فشكرني الرجل في شيء من التوتر ، ثم عدتُ إلى مقعدي .
بعد قليل غادر الرجال المتأنقون مع عبد المجيد بيه للطابق الأعلى لاستكمال احتفالهم ، وغادر بعض المدعوين ، وكنتُ متوقعة أن يلحظ حسام مكياجي وحجابي الجديد ، ويأتي ليتحدث معي وهذا لم يحدث ، عادتْ الموسيقى الصاخبة وازدحمتْ صالة الحفل بالشباب والبنات وبدأوا في الرقص ، كانتْ شيرين ترقص وتتمايل حسب أنغام الموسيقى ، فكانتْ تهتز بسرعة وببطء وبدلال حسب لحن الأغنية وموسيقتها ، لكنها طوال هذه الرقصات لم تفارق حسام ، وبعد ساعتين لم يحدث جديد ، فقط رقص وضحكات عالية وأضواء تسطع ومشروبات تُقدم والموسيقى لم تتوقف ، وحينما انبعثتْ موسيقى هادئة رأيتُ حسام يرقص مع شيرين وقد تشابكتْ أيديهما وتقاربتْ أجسامهما ، فتارة يدنو منها وتارة يُحيط أعلى خصرها

بذراعه ، وحين اندمجا في الرقص ألتفّ الشباب والبنات وصنعوا حولهما دائرة وبدأوا في التصفيق مشجعين .
كنتُ لا أملك الجراءة لفعل ذلك ، ولم تتاح لي الفرصة لأن أقدم الهدية لحسام ، وتذكرتُ تلك الأيام التي قضيتها في المصنع لأكثر من اثنتي عشرة ساعة عمل يوميا لأستطيع شراء تلك الهدية ، شعرتُ أنني في المكان الخطأ وأنني في نظر هؤلاء مجرد بنت فقيرة (غلبانة) ، تحطمتْ معنوياتي وتبخرتْ حماستي .
نهضتُ وسرتُ في خطوات بطيئة إلى الخارج حاملة الهدية ، وفى حديقة الفيلا أخرجتُ من حقيبتي بعض المناديل الورقية وبدأتُ أزيل مكياج وجهي ، كنتُ أفعل ذلك وأنا أبكي ، كان بكاء حارا مريرا ، كانتْ دموعي تهطل كالمطر ، وحينما ارتفع صوتي بالبكاء خشيتُ أن يسمعني أحدهم فخرجت ، سرتُ في الشارع الواسع وأنا أسمع دقات قلبي ، وكنتُ كلما نجحت في تجفيف دمعة كانتْ تهرب مني دمعة أخري ، لاح أمام عينيّ فجأة مشهد مكة وهى تحفظ الفتيات الصغار القرآن ، وسمعتُ همسا بداخلي يقول :
ـ دا كامين ... لازم تصدقي اللي على اليمين .
وتذكرتُ تحذيرات أمي وأنا في سن الثامنة بألا أقع في الحب
سرتُ قرابة خمس عشرة دقيقة ، فتشتُ في حقيبتي فوجدتُ المائة جنيه المتبقية مما حصلتُ عليه من المصنع بعد شراء ما اشتريته ، ووجدتُ الهاتف الذي أهداني إياه حسام ، ووجدتُ بعض المناديل الورقية ، وسخرتُ من نفسي حينما رأيتُ فرشاة لتلميع الحواجب ، كنتُ قد وضعتها قبل خروجي خوفا من أن يُتلف تراب الشارع طلاء وجهي ، وخُيّل لي أن حسام يحدثني مناديا :
ـ نورا ....يا نورا
فسقطعتُ دموعي مرة أخري ، لكنني انتبهتُ أن الصوت لم يكن خيالا ، لأنني رأيتُ حسام فعلا ينادي بصوت مرتفع وهو يقود السيارة بجواري :
ـ انتي سرحانة فى إيه؟... عمال أنادي عليكي وانتي ولا هنا .
قلتُ ُبصوتٍ ممتزج الدموع :
ـ انت عايز مني إيه ؟
قال في تعجب :
ـ ياه ... انتي بتعيطي !... طيب تعالي اركبي .
أجبتُ :
ـ انت ملكش دعوة بيا أصلاً .
فترجل من سيارته وجذبني من يدي وقال :

تعالي بقا وبطلي عناد .
أدار محرك السيارة وقال :
ـ مالك زعلانة ليه ؟... ومشيتي بدري كده ليه ؟
قلتُ وصدري يعلو ويهبط وأنفاسي تتلاحق ودموعي تهطل :
ـ هقعد أعمل إيه؟ ...اقعد أتفرج عليك وانت بترقص مع الست هانم ومش شايل ايدك من عليها ... بس لك حق .. ما هي شاطرة وبتعرف ترقص وتعرف تلبس لبس مكشوف وتقول كلام حلو .. لكن أنا ...أنا ......
ولم أستطيع أن أكمل جملتي بسبب دموعي المنهمرة وأعصابي المنهارة ، وهنا فقط اكتشفتُ أنه يضع على مقود السيارة يد واحدة ، بينما يده الأخرى تضغط على يدي برفق ، فنزعتُ يدي ولم أتكلم ، فلاحتْ نظرة منه على الحقيبة البلاستيكية التي كنتُ أحملها على قدميّ ، فجذبها وفتحها دون تفكير وأخرج قميصين ورابطتي عنق وقال :
ـ كمان هدية ... طيب أنا استاهل كل ده .
قلتُ مسرعة :
ـ لا دى مش هدية ... وانت ملكش كلام معايا بعد كده أصلاً .
قال مبتسما :
ـ انتي ليه خايفة تقولى انك بتحبيني ؟ ليه خايفة تطلعي مشاعرك ؟
كنا قد وصلنا إلى منطقة الجامعة ، توقف بالسيارة ونظر نحوي وقال وهو يجفف دمعي بأصابعه :
ـ قوليها بلسانك ولو مرة واحدة يا نورا ... قلبك بيقولها ... إحساسك بيقولها .... عنيكي بتقولها .
قلتُ في نفسي وأنا شاردة :
ـ مش عيب البنت تقول للولد انها بتحبه ... كده هتبقي مش محترمة .
وكأنه سمع ما يدور في عقلي فقال وهو يدنو مني ومازال يجفف دموعي بأصابعه :
ـ مش عيب ولا غلط انك تقوليها .
قلتُ :
ـ كفاية عليك شيرين ... أكيد بتقولهالك كل يوم.
قال مبتسما :
ـ وأنا مالي ... ما تقولها .
قلتُ في عصبية :
ـ وانت مالك إزاي يعني ... مش هي بتحبك وانت بتحبها .
أجاب ومازال مبتسما :

ـ هو أنا يعني علشان ما سبتها ترقص معايا يبقي أنا بحبها ... أنا سبتها ترقص معايا علشان أتأكد من حاجة معينة ...ودلوقتي تأكدت خلاص .
قال جملته الأخيرة وهو يدنو من خدي بشفتيه ، وقبل أن يلمسني ، فتحتُ باب السيارة ونزلت .

في المساء كنا أنا وأبي نتناول العشاء ونشاهد التليفزيون ، كنا نمد أعناقنا ونرفع وجوهنا لنتمكن من مشاهدة التليفزيون ، فتذكرتُ سعاد حينما طلبتْ من أبي أن يشتري منضدة أو مكتب لتضع عليه التليفزيون بدلا من هذا العمود الخراساني المرتفع ، قطع أبي شرودي قائلا :
ـ فكرتي يا بنتي ولا لسه ؟
أجبت :
ـ فكرت في إيه ؟
قال ضاحكا :
ـ و دي حاجة تتنسي .... أقول إيه لمعتز ؟
قلتُ في ضيق :
ـ أنا مش هجوز دلوقتي .
قال ساهما :
ـ عمك حسين كلمني وقال انه هييجي كمان أسبوعين ... محدش هيقنعك غيره .
بعد ساعتين أويتُ إلي سريري وتأهبتُ للنوم ، وفجأة اهتزّ هاتفي فوجدتُ رسالة من حسام اهتزُ لها قلبي :
ـ القمر اللى زيك مش محتاجة تحط مكياج ... لانك جميلة من غير مكياج .
كانتْ هذه الرسالة كفيلة بأن تجعل قلبي يهتز من الفرح .

الفصل الحادي عشر
(نورا قاسم)

قبل بداية الفصل الدراسي الثاني بيوم واحد حضر عم حسين ، كان متعجلا قلقا هذه المرة ، لم يمكث في شقة أبي إلا ساعات ، ومن حسن الطالع أنّ أبي لم يكن موجودا ، وإلا لفاتحه في موضوع معتز ، كان عم حسين يحمل لي مجموعة من الأخبار : لقد أهداه أحد الأثرياء الذين يخلص في خدمته هاتفا مستعملا ، وانه استطاع أن يجمع لي مبلغا جديد من المال من أهل الخير وإمام مسجد القرية ، وأخبرني انه سيبيت اليوم عند أحد معارفه بالقاهرة حينما سألته عن سبب تعجله في الرحيل ، رحبتُ به وقبّلتُ يده فاحتضنني الرجل في عطفٍ وحنان وربّتَ على كتفي ومسح بيده اللينة على حجابي ، ولكم أتعجب على هذا الحنان الذي يفيض به هذا الرجل نحوي ، حنان لم أجده في أبي ، أخبرني عم حسين أنني مقبلة على قصة حب ، فارتبكت وتعجبت ، ياللكارثة !

ألهذا الحد يبدو عليّ ؟!

أنكرتُ بشدة ولكنه أخبرني أن كل ملامحي تفيض بالحب ، ثم ضحك ضحكة طويلة متقطعة ونصحني بألا أمنح قلبي إلا لمن يستحقه ، وأن كثيرا من قصص الحب انهارتْ عند أول اختبار حقيقي بعد الزوج ، ثم قال وهو يميل نحوي :

ـ بعد الجواز يا نورا بتزول الوسامة والمال وتبقي فقط الأخلاق والشهامة .

ثم قدّم لي ألفي وخمسمائة جنيها ، وأوصاني بضرورة النجاح والتفوق ، ورحل دون أن يستريح من عناء السفر ، وذهب إلى أحد معارفه، ولم ينسَ أن يجعلني أقوم بتسجيل رقمه على هاتفي .
لهذا الحد كان عم حسين رقيقا معي ، ولهذا الحد كان يفهمني ويقرأ ما في قلبي .
انتظمتْ الدراسة في الجامعة وفى أول لقاء بيني وبين حسام قال لي في رقة :
ـ أنا عاوز أفرجك علي شقتي الجديدة .
رفضتُ في البداية ، لكنه كان يجيد استخدام أسلحته الفتّاكة التي أهمها رقته ووسامته فوافقتُ ، واتفقنا على يوم الخميس القادم مساء .

وحين جاء الخميس وانتهتْ المحاضرات هرول نحوي حسام مسرعا وذكرني بالموعد ، كنتُ أتعجب من إصراره العجيب ، لكن كعادتي كنتُ مسحورة .
عدتُ إلى البيت ومارست ُعادتي الجديدة في الكذب وأخبرتُ أبي أنني سأزور صديقتي لمراجعة بعض الدروس ، وافق أبي وذهب لغرفته ليستريح قليلا ، وجلستُ في الصالة أمام التليفزيون أنتظر مجيء الساعة السابعة مساء ، كنتُ قد ارتديتُ الحذاء الجديد واطمأننت على هندامي وحجابي ، وقبل أن أخرج أنقطع الإرسال فجأة ، طبعا اعتدتُ مشاهدة مثل هذا الموقف ، ولم يبدو مرعبا لي كما رأيته أول مرة ، حفظتُ هذا المشهد عن ظهر قلب ، فزفرتُ زفرة ملل وانتظرتُ أن يهوي الرجل ممتلئ الجسم على الرجل الآخر بقطعة من حديد ، لينظر الثاني نحوي في توسل ويقول (انقذيني)
وفعلا تمّ كل شيء كما كان يحدث كل مرة ، لكن الإرسال لم يعدْ ، فبدأتُ انتبه لما يحدث ، الرجل قصير القامة مقوس الظهر قال (انقذيني) ولم يختفي ، والكاميرا مثبتة على وجهه الذي يسيل منه الدماء ، ثم قال الرجل وهو يمسح دماء وجهه :
ـ بلاش تروحي .
فتحتُ فمي بعد أن ذاعتْ عيناي ، وانتظرتُ أن يُكمل ، ثم عاد الإرسال ، إذن الرجل يحذرني من الذهاب ، هذه الجملة جديدة على المشهد ، ارتعشتُ بداخلي ، فأغلقت التليفزيون ورحتُ أبدد توتري في التجول في الصالة ،

كنتُ تائهة متوترة قلقة ، دلفتُ إلى حجرتي وبدأتُ أتمتم ببعض الآيات فهدأ روعي واطمأنتْ روحي ثم خرجت .

في الطابق الخامس كان ينتظرني ودلفتُ لداخل شقته ، وجلستُ في الصالة ، صالة واسعة مريحة محاطة بالستائر ، بها أكثر من أريكة وأكثر من مقعد ، رحب بي حسام ، ثم غاب فترة تأملتُ فيها أركان الصالة ، ثم عاد حاملا كوبا من عصير الفراولة ، ثم ابتسم وجلس بجواري قائلا :
- وحشتيني .
لماذا لم أشعر بالارتباك المحبب لنفسي ؟
لماذا لم أشعر بدقات قلبي المتلاحقة ؟
لأنني كنتُ مرعوبة ، طغي شعور الرعب على أي شعور سواه ، قلتُ في هلع :
- أنا همشي .
قال مسرعا :
- هو انتي لحقتي تقعدي ... استني هفرجك على الشقة .
قلتُ معترضة :
- لا لا.... حسام أنا مش مرتاحة .
قال مبتسما وهو يدنو مني :
- ليه ؟
أجبتُ :
- مش عارفه ... بس أنا مش مرتاحة .
قال ومازال في إصراره :
- طيب نقعد شوية .
فقلتُ مقترحة :
- طيب تعالي نقعد على كافتيريا .
كنت أود أن أجلس في مكان عام ، لأول مرة أشعر بالخوف من حسام ، حسام الذي ملك كل كياني وتربع على عرش قلبي صار غريبا مخيفا ، ربما كنتُ واهمة في ذلك ، لكن أنا التي تتعذب نفسي في الصراع بين الحرام والحلال أجد نفسي فجأة في مكان مغلق غير مريح مع ولد ، وكأنني كنتُ بلا عقل حينما وافقته على المجيء هنا ، قال حسام جادا بعد أن ابتعد عنّي قليلا :
- خلاص ماشى ... مش مشكلة ... طالما مش مرتاحة ... اشربي العصير عبال ما أجيب مفتاح العربية وننزل .

كانتْ يدي ترتعش وأنا أشرب العصير ، رشفة ، ثم رشفة ، رشفات ، لماذا أشعر بفقدان التوازن ؟!
لماذا تظهر بقعة سوداء أمام عينيّ ؟!
العصير منعش ، رشفة أخري ، البقعة السوداء أمام عينيّ تتسع ، كم أحبك يا حسام ! أحبك ولن أكون لأي مخلوق غيرك ، أنتَ الوحيد الذي حركتَ مشاعري وجعلتني أحب الدنيا وأخرج من شرنقتي وانطوائي ، رشفة أخري ، البقعة السوداء تتسع ، ما ألذ مذاق هذا العصير !
ـ لازم تصدقي اللى على اليمين .
هذه العرّافة مضحكة جدا ، لن أصدق الذي على اليمين أيتها العرافة الحمقاء ، ولن أصدق الذي على اليسار أيضا ، سأصدق قلبي ، نعم ، حسام أخبرني بهذا ، لابد أن أصدق قلبي ، وقلبي يحب حسام ،
لماذا جدران الصالة تتحرك ؟!
نعم تتحرك بشكل دائري بطيء ، كلا ، تتحرك بشكل سريع ، أشعر بأن الخدر يجري في دمي ، وأخر ما كنتُ أراه أنني بين ذراعي حسام وهو يصحبني إلى غرفة أخري ، ثم تلاشت الموجودات حولي .

حين أفقتُ شعرتُ بأنني كنت أركض أمام كلب مسعور ، فتحتُ عينيّ قليلا ثم أغمضتهما ، تحسستُ جبهتي وأنا مغمضة العينين ، ما هذا ؟!
هل هذا شعر رأسي ؟
هل أنا عارية الرأس ؟
فتحتُ عينيّ مرة أخري وبدأتُ أجمع شتات تركيزي ، أين أنا ؟
وما هذه الغرفة ؟
حسام ... الشقة ..العصير .
انتفضتُ مذعورة كالملسوعة ، أنا عارية الرأس ، شعري يتناثر على وجهي ووجنتي
سرير...
غرفة نوم ...
ستائر....
هنا فهمتُ كل شيء ، ركضتُ في الغرفة كأسد حبيس ، وجدتُ حجابي ملقي على الأرض بجوار السرير ، ثوبي ممزق قليلا من الأسفل ، جذبتُ حجابي ووضعته على رأسي دون إحكام فسقط مني ، الشقة خالية ،

أين ذهب ؟!
أين هو ؟!
رأيتُ مرآة هائلة الحجم في الغرفة لم انتبه لها من قبل ، صدري يعلو ويهبط ، أنفاسي متلاحقة غير منتظمة ، دموعي تهطل ، كنتُ غير قادرة على إحكام ارتداء حجابي بسبب يدي المرتعشتين ، خرجتُ إلى الصالة ، كوب العصير فارغ ...
حقيبة يدي .....
أمسكتُ بالحقيبة وأخرجتُ الهاتف ، قرأت اسم عم حسين ، وبيد متعجلة مرتعشة مبللة بالعرق ضغطتُ زر الاتصال :
ـ الحقني يا عم حسين .
بعد قليل كنتُ أخرج من الشقة ، وفى الشارع انزويتُ عند مدخل البناية ، لم تتوقف دموعي ، أنا فقدتُ كل شيء ،
هل هذا ثمن ثقتي به ؟!
كان يحبني ، هو أخبرني أنه يحبني ، كنتُ أعتقد أنه يريد أن يريني الشقة لأنه ينوي الزواج منّي ، كم حلمتُ بك زوجا يا حسام .
مرّ وقت التهمتُ فيه نفسي حتى رأيتُ عم حسين يتكأ على عكازه مهرولا نحوي :
ـ حصل ايه ؟ ...وبتعملي إيه هنا ؟
كانتْ إجابتي متقطعة غير مفهومة :
ـ هو ... العصير ... نمت ... أنا مبقتش بنت .
كنتُ أتحدث مرتجفة أكاد لا أرى عم حسين من دموعي المتدفقة ، جذبني من يدي وأوقف سيارة أجرة (تاكسي) وانطلقنا إلى مكان لا أعرفه ، في الطريق طلب منّي أن أتصل بأبي وسمعته يحدثه قائلا :
ـ أنا هبات انهارده عند أختي يا قاسم ... أيوه سامعك ... أنا حسين يا قاسم ... نورا معايا ...لا متقلقش ...هي هتبات معايا .

بعد قليل كنتُ في بيت شقيقة عم حسين ، لم أعلم من قبل أن لديه شقيقة هنا ، كنتُ شاحبة الوجه ذابلة العينين ، وما إن رأتني شقيقته
حتى شهقت وقالتْ :
ـ مين دي ؟ ومالها كده ؟
سمعته يجيبها قائلا :
ـ مش وقته يا كوثر ... تعالي ودّينا عند أقرب دكتورة .
قالتْ السيدة وهي تضرب بيدها على صدرها :

ـ يالهوي ... طيب إيه الحكاية يا حسين ؟
قال وهو يخرج حافظته نقوده ويعد ما بها من نقود :
ـ هقولك بعدين .

في مستوصف الرحمة الطبي كنا نجلس ، كان الوقت يمر بطيء ثقيل ممل قاتل ، كنتُ أشعر بأن روحي تُنزع منّي كل ثانية ، لدي رغبة جامحة في التقيؤ ، كنتُ أتعجب لماذا يقتل المرء نفسه ، لكنني في هذه اللحظة فهمتُ الإجابة ، حينما نادتْ الممرضة اسمي شعرتُ بأن قدميّ لا تقويان على حملي ، ساعدتني كوثر ودلفنا إلى داخل الغرفة ، لم تسأل الطبيبة عن السبب ، بل قامتْ تمارس عملها قبل أن تكمل كوثر كلامها ، مرّ دهرا حتى رأيت شفتي الطبيبة تنطقان بكلمة قصيرة موجزة سريعة :
ـ بنت .
هذه الكلمة جعلتني أولد من جديد ، وعلمتُ وقتها كيفَ تتغير مصائر الناس من كملة ينطقها طبيب ، كيفَ تتغير حياة أناس من مجرد نتيجة تحليل أو أشعة ، سمعتُ كوثر تقول :
ـ لكن يا دكتورة ....
قاطعتها الطبيبة في نفاذ صبر وهي تضغط على زر على مكتبها :
ـ قلتلك كله تمام .

الفصل الثاني عشر
(حسام عبد المجيد)
ولدتُ ونشأتُ في الإسكندرية ، تلك المدينة التي تدفعك دفعا لأن تكون حالما مرهفَ الحس رقيقَ الحاشية ، نشأتُ في بيت فقير لأب وأم فقيرين ، كانتْ أحلامي صغيرة ، لكنها غير قابلة للتحقيق في ظل عمل أبي المتواضع ، أبي عبد المجيد يعمل صيادا على قارب أحد (المعلمين) ، المعلم رجب كبير الصيادين ، وفي منطقتنا يعمل تحت إمرته أكثر من عشرة رجال كلهم يخشونه ويوقرونه ويحتقرونه ويلعنونه في آن واحد ، كان أبي واحدا منهم ، نعم كان أبي عاملا لدي المعلم رجب .
مع شروق الشمس كنتُ أرى أبي يخرج إلى الشاطئ على قارب المعلم رجب ليعود مساء أو يبيت ليلته على الشاطئ طلبا للرزق ، وحصيلة ما كان يصيده أبي كان يبتاعه معلمه بنصف الثمن ، لماذا نصف الثمن ؟
لأن أبي لا يملك قاربا خاصا ولا تصريحا خاصا ، وفى الإسكندرية عشتُ عشر سنوات ، درستُ ولعبتُ وحلمتُ وتشاجرتُ فضَرَبتُ وضُرِبت وركضتُ مع أقراني واصطحبني أبي في ساعات عمله مرات كثيرة .

ذات ليلة أخبرنا أبي أننا سنترك الإسكندرية إلى القاهرة ، فسمعتُ أمي تقول في تعجب واعتراض :
ـ تسيب شغلك هنا وتروح القاهرة ... طيب نعيش إزاي ؟
أجابها أبي في هدوء وثقة :
ـ متقلقيش ... هنعيش وهنعيش وهنعيش .

وهذا هو الذي لم يحدث .
في القاهرة عشنا في شقة متواضعة في حي فقير (حارة سد) ، كانتْ شقتنا حجرتين في (البادروم) ، وهنا ولولتْ أمي قائلة :
ـ بقا تسيب رزقك وشغلك وتجيبنا نعيش في السجن ده .
قال أبي بنفس الثقة التي حدثها بها في الإسكندرية :
ـ اصبري على رزقك يا أم حسام ... دا أنا هعيشك فى قصر .
وكان على حق هذه المرة .
فقد حدث تغيير مفاجئ رهيب لم يكن في حسباني ، انتقلنا إلى فيلا ، نعم فيلا في أحد الأماكن الراقية بالقاهرة ، وتبدّلتْ حياتنا من الفقر وقسوة المعيشة إلى الرخاء وسعة الرزق ، لم أسألْ نفسي وقتها كيفَ صار أبي من الأثرياء فجأة ، وهل هذا سؤال ؟!
المهم أنني سأعيش ، سأري الدنيا ، سأحلق فوق السحاب ، سألبس ، سأتبختر ، سأمرح ، سأصيع ، سأبرطع ، سأتسكع .

اشتري لي أبي دراجة كهربائية ، أغدق عليّ الأموال ، وصرتُ أقول ماما بدلا من أمي ، وبابا بدلا من أبي ، أنا ابن الحارة الشعبية وجدعنة الإسكندرية صرتُ ارستقراطيا مدللا ، جلب لي أبي مربية تعلّمني كيفَ ألبس بحساب وأتحدث بحساب وأتناول الطعام بحساب وأشرب بحساب وأتنفس بحساب ، لابد أن تكون مثل أبناء الأثرياء يا حسام ، هكذا كان يخبرني أبي ، أمّا جيراننا فعاملوننا على أننا ولدنا أثرياء مثلهم .

كنتُ ألعب في حديقة منزلنا الواسعة ، ذات مرة ركلتُ الكرة لتطير إلى حديقة الفيلا المجاورة ، ولأنني صرتُ (بيك) صغيرا مهذبا ، لابد أن أطلب الكرة من الجيران بأدب جمّ بعد أن اعتذر لهم ، وسمح لي البواب بالدخول ورأيتُ فتاة شقراء ، ابنة العشر سنوات ، تقريبا في مثل سني ، كانتْ وحيدة أبويها وكنت وحيدَ أبوي ، فصرنا أصدقاء ، نلعب ونركض ونضحك ونذاكر ونذهب إلى النادي ، لم تكن هذه الفتاة إلا شيرين ، وهذا كله أدي إلى تعارف الأسرتين .

اعتدتُ حياة الترف والثراء وشربتُ كل عادات الأثرياء بسرعة ، كنتُ أفخر بنفسي حينما كان البواب يناديني بصوت مسلوخ (حسام بيه) وتسمّيني الدادة بـ (البيه الصغير) ، وحين تقف خلفي خادمة نحيفة مصابة بفقر الدم تنتظر أن أفرغ من طعامي ، أحببتُ هذه الحياة ، الشيء الوحيد

الذي كنتُ زاهدا فيه كل الزهد هو التعليم ، أقصد التعليم الخاص ، أبناء الذوات يعلّمون أولادهم تعليم خاص أجنبي ، رفضتُ أن التحق بتلك المدارس (الانترناشونال) واللغات ، وقررتُ أن أسير مع المقادير ، في الجامعة كانوا يطلقون علي الدنجوان ، الوسيم ، الثري ، وتلك هي مزية أن تكون ثريا ثراء فاحشا بالجامعات الحكومية ، أنت مميز بين أقرانك في نظر أقرانك ، مميز بأموالك وسيارتك وهندامك وكل شيء ، كنتُ حريفا ماهرا في صيد البنات ،

ومن تلك الفتاة التي تستعصي على الدنجوان ؟

والفتيات الآنسات العذارى يسقطن أرضا أمام الوسامة والمال ، وكنتُ أملك هذين السلاحين ، خضعتْ أمامي فتيات وفتيات ، إلا فتاة واحدة ، نــــورا ...

تلك الرقيقة الجميلة التي ظهرتْ في الجامعة فجأة ، كنتُ أعتقد أنها ستقع في شباكي من الوهلة الأولي ، فهي كما بدا لي فقيرة ، فقيرة المال وفقيرة الخبرة ، وفقيرة القلب ، فبدأتُ في استخدام سلاح الرقة ، سلاح النظرات والتلميحات ، اللقاءات العابرة ، لكنها لم تستلم ، إذن جاء دور المال ، حتما ستستسلم أمام المال ، اشتريتُ لها حذاء وهاتفا أنيقا وكنتُ متوقعا أن أنال كل ما أريد في ذلك اليوم ، لكنها رفضتْ ،

هل أحببتها ؟

لاشك أنني أعجبتُ بها بسبب إصرارها الدائم على عدم الاستسلام ، جعلتها تعتاد على وجودي وقربي ، ثم قررتُ فجأة أن أغيب وابتعد واصطنع الجفاء والتجاهل واقترب من شيرين ، حتى أشعل في قلبها الغيرة وقد حدث .

في حفلة افتتاح أبي لشركته الجديدة دعوتها ، وخططتُ أن أجعل شيرين هي الطعم ، وكادتْ الخطة أن تنجح ، رقصتُ مع شيرين وأوليتها اهتمامي وحدث ما توقعته ،

غادرت نورا الفيلا .

تريثتُ قليلا كي تنشب النيران في قلبها ، ثم تبعتها ، وجدتها تبكي منهارة في الشارع ، جذبتها في سيارتي وبدأتُ أضع اللمسات الأخيرة من خطتي ، لكنها لم تستلم ، حينما تركتها أمام الجامعة وعدتُ إلى الحفل انتحى بي أحمد جانبا وقال :

ـ ما تسيبك بقا من البنت دي .

قلتُ في هدوء وتحدٍ :

ـ لا طبعا .

قال وهو يأكل قطعة من الشيكولاته :
ـ حرام عليك ...باين عليها طيبة وانت علّقتها بيك أوي .
قلتُ وأنا أنهض وأدور حوله كمحقق بوليسي :
ـ هو ده المطلوب ... أنا عايز ابقي كل حاجة في حياتها ... لحد ما تخضع .
قال في لامبالاة :
ـ بس أنت جربت معاها كل الخطط يا دنجوان ... استسلم انت بقا وسيبها فى حالها ... البنت واخدة موضوع الحب ده بجد .
قلتُ في غضب :
ـ مالك يا أحمد ... هي صعبت عليك ولا إيه ... ولا تكونش حبيتها .
قال وهو يرشف رشفته الأولي من كوب عصير :
ـ حبيتها إيه يا عم ... أنا بس صعبان عليا مجهودك ده معاها ... وانت عارف إن فيه بنات كتير هتيجي سكة من غير مجهود .
قلتُ في تفكير :
ـ مبقتش استمتع بالبنت اللى تيجي سكة من أول مرة ... بحس انها سلعة رخيصة ... ضحكة وعزومة وتبقي تحت أمري ... لكن نورا عشت معاها دور الصياد ... وأحيأنا صيد الفريسة بيكون ممتع أكتر من الفريسة نفسها .
قال وهو يضع كوب العصير على منضدة أمامه :
ـ بس انت يادنجوان خلّصت عليها كل خططك ...رقة ... عزومة ... فلوس ... ويبدوبك بعد كل ده مسكت ايدها بس .
قلتُ بعدما جلستُ بجواره :
ـ لسه فيه خطة أخيرة .
سال سريعا :
ـ خطة إيه ؟
أجبتُ وأنا أشعل سيجارة :
ـ خطة اللى يروح ميرجعش .

بعد يومين تسللتُ إلى مكتب أبي ، سرقتُ أحد المفاتيح الخاصة به ، مفتاح شقة المخزن ، هذه شقة مقدسة بالنسبة لأبي ، لا يقابل فيها أحدا ولا يعقد فيها صفقات ولا لقاءات ، وأمي تعلم أنها يستخدمها كمخزن ، لكن أبي يكذب ، لماذا ؟
يا له من سؤال !
أعدتُ المفتاح إلى مكتب أبي بعدما استخرجتُ منه نسخة لنفسي ، وذهبتُ إلى الشقة التي كنتُ أعتقد أنها مخزن ، لكنني وجدتها شقة مفروشة أنيقة

بالطابق الخامس ، دلفتُ إليها في توجسٍ وحذر ، وجلستُ في الصالة ، صالة واسعة مريحة محاطة بالستائر ، بها أكثر من أريكة وأكثر من مقعد تجولت غرفها واحدة وتلو الأخرى، لا يوجد ما يدل على أنها مخزن ، وما أثار دهشتي أنني وجدتُ في أحد دواليب حجرة النوم شعرا مستعارا (باروكة) ، وحينما دققتُ النظر رأيتُ شاربا مستعارا ، وهنا بدأت أفكر :

ـ لماذا لم يحضر أبي لزيارتي في المستشفى حينما أجريت العملية الجراحية ؟!

لماذا غادر أبي سريعا ليلة حفل عيد ميلادي ؟!

ـ لماذا أكمل أبي حفلة افتتاحه للشركة بالطابق الثاني مع أصدقائه ؟!

إجابة هذه الأسئلة بها شيء مشترك ،

نورا....

نعم نورا هي الشيء المشترك في كل الإجابات ، لقد غادر أبي سريعا ليلة حفل ميلادي بعدما رأي نورا ، ولم يستكمل حفل افتتاح شركته معنا حينما صافحته نورا ، ولقد رأيتُ التوتر باديا على وجهه وهى تصافحه ، لم يحضر أبي إلى المستشفي لأن نورا كانتْ هناك ، لماذا يخشى أبي مقابلة نورا ؟!

هل هو يعرفها ؟!

هل هي من أحد جيراننا القدامى بالإسكندرية ؟!

لا أعلم .

ربما هي ابنة لأحد الرجال الذين نصب عليهم أبي أو طردهم من الشركة ، لا أظن ، لكن أنا أعلم طباع أبي ، أعلم أنه يدوس أي إنسان يقف أمام نجاحه وتجارته ، أذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه أحد الفقراء إلي الفيلا متوسلا لي ولأمي بأن يعيده أبي إلى الشركة ، أذكر شوكت بيه حينما توسل لي أن أتوسط له عند أبي ليسمح له بعرض بضاعته في السوق .

أعتقد أن والد نورا موظفا في شركة أبي وأنه يملك أوراقا تدين أبي أو يعرف بعض أسرار صفقاته المشبوهة .

قررتُ أن أنفذ خطتي في شقة أبي هذه ، ودعوتُ نورا للحضور ، وكنتُ في لهفة وشوق ، حينما حضرتْ كنتُ متأكدا أنها لن تستسلم ، لكن لا بأس ، قطرة منوّم واحدة في العصير ستفي بالغرض ، فعلا لم تستسلم وطلبتْ المغادرة ، فوافقتها وتحججتُ بإحضار مفتاح السيارة ريثما تشرب هي العصير ، طبعا لن أترك فرصتي الأخيرة تضيع ، قدمتُ لها المشروب ،

ودون تفكيرٍ منها ، وبكل حماقة توالتْ رشفاتها ليختل توازنها شيئا فشيئا وفقدتْ الوعي .
الآن أنا امتلكها ، أمتلك قلبها وجسدها وأنفاسها وروحها ،
يا له من شعور !
لذة الانتصار ، لذة قنص الفريسة ، سأعلمها الأدب فقط ، سأعلمها أن الدنجوان لا يُهزم ، حملتها بين ذراعي بعدما خلعتُ حذائها ، ثم دلفتُ بها إلى حجرة النوم ، وبينما أنا أدنو بها من السرير تثبتَ طرف ثوبها الأسفل في زاوية السرير فتمزقتْ قطعة صغيرة منه ، وبعد دقيقتين كنتُ أزيل دبابيس حجابها ، كانتْ مثل الملاك النائم ، ذلك الوجه المستدير الأبيض الناعم المتمليء ، ذلك الفم الدقيق الموجز المختصر ، تلك الحواجب السوداء المرسومة بعناية ، ذلك الأنف المستقيم في شموخ ، كل ذلك الجمال البكر دون بقعة مكياج واحدة ،
يالها من غنيمة باردة !
نزعتُ حجابها في لذة غريبة ، فظهر شعرها المموج القاتم الداكن كالليل ، رحتُ أتأمل ذلك الجسد المسجي أمامي على السرير ، اعذريني يا نورا ، إصرارك العجيب هو من جعلني أفكر في هذا ، ولو أنك قبلتي الاستسلام من بداية الأمر كغيرك مما عرفتُ من البنات لكنتُ اكتفيتُ بقبلات طويلة صامته وأحضان دافئة ساخنة ، مددتُ يدي إلى ثوبها وأنا أقول بصوتٍ مسموع :
- هعمل اللى كنتي منعاني منه يا نورا .
فسمعت صوتا يهمس بأذني اليسرى :
- مش هتلحق .
انتفضتُ من فوري متوترا وجلتُ بنظري في أرجاء الغرفة ، وتيقنتُ أنني أتوهم ، خرجتُ من الغرفة وتجولت بقية الغرف ، لا أحد فى الشقة سوأنا ، عدتُ الى غرفة النوم مرة أخرى ، وعدتُ أمدّ يدي نحو ثوبها من الأسفل ، فسمعتُ الصوت مرة أخري :
- قلتلك مش هتلحق .
كان الصوت هذه المرة واضحا ، وكان توتري أكبر ، نظرتُ أمامي فرأيتُ رجلا أسمر الوجه نحيل الجسم مقوس الظهر ينظر لي في ابتسامة دون أن يتحدث ، ابتسامة ساخرة متهكمة فيها إصرار، وقفتْ شعيرات رأسي رعبا وتراجعتُ خطورة للوراء أرتعش ، كان الرجل ثابتا ينظر نحوي بثقة وتحدٍ ، أنا لستُ واهما ، الرجل لم يختفِ ، إن ما أراه حقيقة وليس خيالات ، أوليته ظهري وسرتُ نحو باب الغرفة لأفتحها وأهرب ، فرأيته يقف أمام

الباب ليمنعني من الخروج ، تراجعتُ للخلف ناحية السرير وأنا أحاول أن أخرج الكلمات من فمي ، سقطتُ على الأرض وأنا أقول في هلع :
- سيبني أخرج .
وجه الرجل يبدو مألوفا لدي ، أنا واثق أنني رأيته من قبل ، لكن أين ؟
كانتْ نظرات الرجل ثابتة ثاقبة واثقة ، وكانتْ شفتاه تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، ثم اختفي ، نهضتُ مسرعا وتوجهتُ ناحية الباب للهرب ، فظهر من جديد ليمنعني من الخروج ، توسلتُ إليه وبكيتُ ووضعتُ يدي على قلبي من الانفعال ثم فقدتُ الوعي .
لم أعرف كمْ مرّ من الوقت حينما أفقت ، لكن ساعتي البيولوجية أخبرتني أنه فات خمس عشرة دقيقة تقريبا ، كانتْ نورا غائبة في سبات عميق كالموتى ، نهضتُ متوجسا متوقعا أن يظهر ذلك الرجل مرة أخري ، سرتُ ناحية الباب ، لم يظهر الرجل ، وما إن دخلت الصالة ورأيتُ باب الشقة أسرعتُ نحوه وقفزتُ خارجا إلى السلم ، كنتُ أهبط الدرج مسرعا كمن يطارده الجحيم .

الفصل الثالث عشر
(نورا قاسم)

خرجنا من المستوصف بعدما أخبرتني الطبيبة أنني مازلتُ عذراء ، كنتُ بالية كخرقة ممزقة ، وتشوهتْ صورة الحب في قلبي ، وصوّر لي عقلي أن كل شاب ما هو إلا وغد حقير ، كنتُ على شفا حفرة من الضياع وفقدان كل شيء ، مجتمعنا لن يرحم ، فمجرد سماع كلمة مطلقة تتطلع أذهان المجتمع إلى أفكار شيطانية ، فما بالكم بفتاة فقدت عذريتها ؟
ما الفرق بين الزوجة وبين الفتاة التي فقدت عذريتها ؟
الزوجة هي أنثى أحبّتْ فتزوجتْ ، والتي فقدتْ عذريتها فتاة أحبّتْ ولم تتزوج ، هل ذنبي أنني أحببته ؟!
هل كانتْ كل مشاعره نحوي مجرد مشاعر مصطنعة مزيفة لنيل هذا الشيء ؟!
لماذا لم يتخيل أنني منحته قلبا بكرا شفافا زجاجيا ؟!
هنا تذكرتُ ما قاله لي عم حسين من قبل :
ـ امنحي قلبك للى يستحقه .
حينما عدنا إلى بيت كوثر انتحي بي عم حسين جانبا وأوصد الباب ثم قال في حزن حكيم :
ـ التجارب تصقل القلوب ... المهم تتعلمي من تجاربك .
ثم صمتَ قليلا وأردف وهو يتأمل وجهي كأنه يراه لأول مرة :
ـ قعدت نفس القعدة دى مع أمك من 28 سنة .
انتبهتُ لما يقول وأرهفتُ السمع حتى يُكمل فقال بعد تململ :

ـ بس هي اختارت تكمل ... كانتْ مجبرة تكمل ... مجبرة علشان الفضيحة ... ولمّا كملت... اكتشفتْ إنها اختارت الطريق الغلط .
دلفتْ كوثر الغرفة وقدمتْ لنا العشاء وخرجتْ فأكمل عم حسين :
ـ وانتي ضحية الطريق الغلط اللي اختارته أمك .
قالها ثم بدأ في تناول الطعام ، ولمّا رأي الجمود على وجهي مدّ يده نحو فمي بالطعام قائلا :
ـ تناولي طعامك يا نورا ... الدنيا لسه هتستمر ومش هتقف علشان حد ... انتي محتاجة شوية مرونة ... مرونة تغيري بيها مشاعرك وطريقك اللى ماشية فيه .
كان يقدم لي الطعام بيده ، وكنتُ أمضغه دون شهية ثم عاد يقول :
ـ أمك اختارت اللي هى حبته ... وسابت اللي كان بيحبها ...اللى هي حبته دخل بيتها من الشباك وفى الضلمة ... واللى كان بيحبها دخل بيتها من الباب وفى النور ... بس هي اختارت طريق الضلمة .... اللى كانتْ بتحبه كان عايز منها حاجة واحدة ... نفس الحاجة اللي كان عايزها منك زميلك اللي بتحبيه ...... واللى كان بيحب أمك كان مستعد يعمل كل حاجه علشانها ... لدرجة انه خد عهد على نفسه انه ميجوزش بعدها ... ولمّا ماتت جدد العهد انه يعيش خدام لبنتها لأنها من ريحتها ... مش مهم هو يتعرى طالما بنتها بتلبس ... مش مهم هو يشقى طالما بنتها هتسعد ...مش مهم هو يجوع طالما بنتها بتاكل ...حتى لو هيأكلها فى بوقها .

قالها وهو يمدّ يده بملعقة أرز نحو فمي .
طبعا فهمتُ الآن كل شيء ،
أمي قابلتْ في حياتها شابين ، اختارتْ أبي وتركتْ عم حسين ، اختارتْ مَنْ أحبته وتركتْ مَنْ كان يحبها ، اختارتْ طريق الظلام وتركتْ طريق النور ، أبي لعب في حياة أمي الدور الذي يلعبه حسام معي الآن ، وعم حسين لعب في حياة أمي الدور الذي يلعبه ...... من ؟!
هنا تذكرتُ معتز ...
لكن عم حسين أخبرني أن أمي أُجبرتْ على الاستمرار من أجل الفضيحة ، وتذكرتُ قصة سحر ، الفتاة التي كانتْ ترافقني سريري في مصنع الملابس ، هي أحبتْ ولم تتزوج ، هل استسلمتْ أمي لأبي دون جواز شرعي ؟!
هنا انقبض قلبي وجال بعقلي سؤال أحاول أن أتجاهله :
أنا من أكون ؟!!!
وكأنّ عم حسين عرف بما يدور في عقلي

لأنه قال وهو يضغط على كلماته :
ـ انتي بنت حلال يا نورا .... لمّا أمك رفضتني ...اختفيتُ من حياتها ... بس ظهرت تاني علشان أجبر ابوكي انه يجوزها قبل ما يهرب ويسيب جنين في أحشائها ... اجوزها فعلا ... وحسين مات بعد الولادة بأسابيع .
قلتُ مستفسرة :
ـ حسين مين ؟!
أجاب :
ـ المولود الأول ... أخوكي ...اه نسيت أقولك إن أمك سمته حسين .
قالها وهو يدمع وقد توقف عن تناول الطعام .
سادتْ دقائق صمت طويلة بيننا تذكرتُ فيها حسام ومعتز وحياة ، ولمّا طال الصمتُ قال عم حسين ليتخلص من براثن الذكرى :
ـ انسى اللى حصل يا نورا ... ابدأي من جديد ... قرري هتكملي ولا هتغيري طريقك ... انتي لسه صغيرة ... وشباب كتير هييجوا يدقوا بابك في النور .
ثم تركني وخرج .

في اليوم التالي عاد بي عم حسين إلى أبي وتركنا وسافر إلى القرية ، وكنتُ في حاجة لأن أستريح ، لكن الاستراحة طالتْ ، لأنني لازمتُ السرير أيام ، والأيام صارتْ أسابيع ، انقطعتُ عن الجامعة ، وكنتُ أتحجج لأبي بالمرض والإرهاق ، ولم أسلم من توبيخات زوجة أبي ، ورغم هزالي الجسمي وجُرحي النفسي كنتُ أقوم بما تأمرني به ، ثم أعود إلى سريري فى وهن وفقدان توازن ، وكان أبي يستيقظ في منتصف الليل على صوت صراخي وأنا أنادي على حسام ، وكثرت أسئلة أبي ، حسام من ؟!
كنتُ فعلا أهلوس وأتحدث مع نفسي في يقظتي وفى نومي ، ولا أنام إلا ساعات قليلة ، نوم متقطع لا يخلو من كوابيس ، كنتُ أري في كوابيسي حسام يقترب من جسد مسجي مستسلم علي سرير مرتفع ، لكنه كلّما اقترب كان يمنعه رجل نحيف الجسم أسمر الوجه مقوس الظهر ، لم يكن الجسد المسجي إلا أنا ، ولما يكن الرجل الذي يمنعه سوى الرجل الذي تسيل الدماء من وجهه في التليفزيون ، كنتُ أستيقظ صارخة باسم حسام فأفتح عيني لأرى أبي وزوجته حول سريري ، فأسمع زوجة أبي تقول في تلذذ :
ـ البت ممسوسة يا قاسم .
وكان أبي يربّتُ على كتفي ويحوقل وهو يمدّ يده نحوي بالمصحف الصغير الذي تركه معتز .

ذات نهار استيقظتُ على يد تهزّني وحينما فتحتُ عينيّ رأيتُ مكة تبكي ، كانتْ قد جاءتْ لزيارتي وحين علمتْ بحالي ورأتْ ما أنا فيه لم تتمالك دموعها ، احتضنتني وقبلتني وقالتْ :

ـ هتخفي يا نورا .

ثم مدتْ يدها ووضعتها على جبهتي وضغطتْ برفق وأخذتْ تقرأ أية الكرسي وأواخر سورة البقرة والمعوذتين ، فشعرتُ براحة وسكينة وانتظمتْ دقات قلبي وهدأ روعي ، لاحظتْ مكة الهدوء الذي اعتراني حينما انتهتْ فقالتْ في شفقة :

ـ أنا لاحظت غيابك من الكلية وسألت عليكي ... ابوكي قالي انك تعبانة ... بس مكنتش أعرف انك تعبانة أوي كده ... فمشيت ...لكن لما سألت عنك تاني وابوكي عرف انى زميتلك حكالي عن حالتك .

ثم نظرتْ نحوي وتحسستْ جبهتي وقالتْ :

ـ مش هطلب منك تحكيلي حاجة ... بس لما تكوني حابة تحكي بلاش تترددي .

حكيتُ لها كل شيء ، حكيتُ لها الأسرار التي أخبرني بها عم حسين عن أمي ، وحكيتُ ما حدث من حسام في الشقة ، كنتُ أحكي بصوت مرتجف متقطع ووجه عبوس مقتضب ، وكانتْ مكة تشمئز وتقطّب حاجبيها تارة وتستغفر الله تارة وتحمد الله تارة حتى انتهيت ، فقالتْ لي :

ـ ارجعي للى نجاكي يا نورا... ارجعي لربنا ... كلنا بنغلط ... بس ربنا بيحب اللى لمّا يغلط يرجعله ويتوبله ... بس أهم حاجة تكون توبة نصوح ... عارفة يعني ايه توبة نصوح ... يعني مترجعيش للذنب اللى تبتي منه تاني .

قلتُ في تردد وضعف :

ـ أنا بشوفه بصورة بشعة في كوابيسي بس لسه قلبي متعلق بيه ... لسه بحبه .

قالتْ في لين :

ـ ومين أولى بالحب ده ... الأولي انك تحبي ربنا اللى نجاكي فى اللحظة الأخيرة ... تحبيه وتحمديه انه بعتلك فى حياتك إنذارات كتير تحذرك من الطريق اللي ماشية فيه .

قلتُ في براءة :

ـ أنا بحب ربنا .

قالتْ :

ـ لو بتحبيه مش هتعصيه ... مش هتغضبيه ...أنا عارفه إن مشاعرنا مش بنقدر نتحكم فيها أحيأنا ... عارفه إن قلبك مليان مشاعر وأحاسيس وشوق ... ودا مش عيب ... بس طلعيها فى الطريق الصح ... طلعيها فى الحلال ... طلعيها للى ييجي يطلب ايدك فى النور ... ويكون حريص انه يؤجل كل مشاعره هو كمان لحد ما تكتبوا الكتاب ...علشان هو كمان يطلع مشاعره ليكي في الحلال ... يانورا لو استعجلتي الحلال مش هتحسي بطعمه بعد الجواز .
ثم غيرتْ من نبرتها لتخفف عني :
ـ ياه لو المشاعر دى كلها تطلع لجوزك ... دا يبقى محظوظ ابن المحظوظة .
قلتُ وأنا ابتسم ابتسامة واهنة :
ـ جوزي مين !؟
أجابت :
ـ معتز .
قلتُ في غضب :
ـ بس أنا مبحبوش .
قالتْ مسرعة كأنها تريد أن تخرسني :
ـ وامك مكنتش بتحب عمك حسين .
وكانتْ فعلا هذه الإجابة كفيلة بأن أخرس وأسرح في خواطري .

تعددتْ زيارات مكة للاطمئنان على حالتي ، وكنتُ أشعر بتحسن حينما أراها ، وكانتْ حريصة في كل زيارة أن تنصحني بقراءة آيات من القران والتقرب إلى الله ، وفعلتُ ما نصحتني به ، لكن الكوابيس لم تتركني ، وصراخي باسم حسام استمر حتى ملّتْ زوجة أبي وتشاجرتْ مع أبي أكثر من مرة ، وحينما طالتْ ملازمتي للفراش وتدهورتْ حالتي وشحب وجهي وذاغتْ عيناي واصفرّتْ وجنتاي قرر أبي أن يخبر معتز ، تفاجأتُ ذات ليلة بأبي يخبرني بأن معتز ووالدته في انتظار السماح لهما برؤيتي في غرفتي :
ـ رؤية ايه دى ... مش هو ملتزم وعامل فيها شيخ .
قلتُها في نفسي وأنا أعدّل من جلستي وأقوكم بإحكام غطاء رأسي ، ثم سمعتُ وقع خطوات ، حينما فتح أبي الباب دقّ قلبي مسرعا ، واقتربتْ منّي والدة معتز وقبّلتني ومسحتْ على حجابي ودعتْ لي بالشفاء وجلستْ بجواري على طرف السرير وهى لا تزال تدعو ، جلس أبي على مقعد

مواجه لي ، وسمعتُ معتز يُلقي السلام ، ثم جذب مقعدا وأداره ناحية أحد الجدران وجلس عليه ، رددتُ السلام بصوتٍ واهن ضعيف ، ورأيتُ والدة معتز تنظر إلى ابنها بغيظٍ واضح ، وسمعتُ معتز يقول :

ـ ألف سلامة عليكي يا نورا .

فمالتْ أمه نحوه هامسة :

ـ طيب بص عليها وانت بتكلمها ... البنت تقول علينا ايه ؟

لم يكترثْ لملاحظة أمه وقال بلهجة ثابتة واثقة دون أن ينظر نحوي :

ـ لو سمحتي قولي ورايا .

واخذ يقرأ بعض الآيات وكنتُ أكرر خلفه ، كان صوته عذبا رائعا يدعو إلى السكينة فشعرتُ بالراحة ، ثم أخذ يدعو بأدعية كثيرة وقال :

ـ حافظى على قراءة الآيات دى كل يوم بعد صلاتك يا نورا .

ثم أردف :

ـ طيب نستأذن احنا يا أمي .

قالتْ الأم في غيظ :

ـ استني شوية لما اطمن عليها يا معتز ... مش عارفة نشفان الدماغ دي جايبها منين .

قال أبي ضاحكا :

ـ لسه بدري يا باشمهندس ... اشرب الشاي الاول .

قال معتز وهو ينهض :

ـ طيب نشربه في الصالة ونسيب نورا تاخد راحتها .

ثم خرج مع أبي ، بينما ظلتْ والدته معي التي قالتْ اثر خروجهما :

ـ متزعليش منه يا بنتي ... هو قعد القعدة دى مش تجاهل منه... لا والله .

ثم تفرّستْ ملامحي وأردفتْ :

ـ ما عاش اللى يتجاهل عروستنا القمر ... بس لو اعرف هو جايب نشفان الدماغ ده منين .

في الأيام التالية حافظتُ على صلاتي وكنتُ أقرأ عقب كل صلاة تلك الآيات التي نصحني بقراءتها معتز ، وداومتُ على قراءة بعض الأدعية التي علّمتني إياها مكة ، تحسنتْ حالتي الجسدية قليلا وزال شحوب وجهي شيئا فشيئا ، وبدأتْ نضارة وجهي تعود ، لكن قلبي مازال مجروحا ، كنتُ مازلتُ أشعر بأنني تائهة ، مازال قلبي تتسارع دقاته حينما أتذكر حسام رغم كال ما فعله ، وتكرزتْ زيارات مكة لتطمأن على حالتي ،كانتْ في كل مرة تحكي لي تفاصيل ما يجرى في الكلية ، واشترتْ لي الكتب

الدراسية ، وكانتْ حريصة أن تسهر معي ليلة كل خميس لتذاكر معي ما فاتني من محاضرات وتكررتْ زيارات معتز ووالدته ، لكن معتز كان يكتفي بالجلوس مع أبي في الصالة ، بينما تدلف والدته إلى غرفتي تثرثر ونتحدث ونضحك ، كانتْ سيدة طيبة مرحة بلا هموم ، وكانتْ زوجة أبي تُبدي ترحيبا مبالغا فيه لأسرة معتزة لا حبا طبعا ، ولكن لأن إتمام الزواج هو الطريقة الوحيدة للخلاص مني .

تحسنتْ صحتي وذهبتُ إلى الجامعة خائفة متوترة ، تذكرتُ اليوم الأول الذي دخلتُ فيه مدرج الكلية ، لأنني شعرتُ بنفس الارتباك ، كان العام الدراسي على وشك الانتهاء ، والامتحأنات على الأبواب ، في المحاضرة كنتُ منزوية بعيدا في أخر المدرج ، كنتُ أستمع لأستاذ المادة بأذنيّ لكن قلبي كان يبحث عن حسام ، ولاحتْ لي ذكرى تلك الليلة التي شربتُ فيها العصير وغبت عن الوعي ، كانتْ الأسئلة التي تتكرر بداخلي ، هل حسام فعلا كان ينوي فعلها ؟!

وما الذي منعه ؟!

هل عاد له ضميره في اللحظات الأخيرة ؟!

ولماذا اختفي من الكلية ؟!

عرفتُ مع الأيام انه ترك الجامعة وانتقل إلى جامعة عين شمس ، لم تختفِ شيرين ، فقد رأيتها أكثر من مرة في الجامعة ، ورأيتُ أحمد وشريف ، ولم أجرأ يوما أن أسال أحدا منهم عن اختفاء حسام .

انتهتْ الامتحأنات وحضر عم حسين إلى شقة أبي ، وكنتُ متوقعة أنني سأعود معه إلى القرية لأقضي الإجازة الصيفية ، لكن ما حدث لم يكن في حسابني .

في نفس اليوم الذي حضر فيه عم حسين قدم لي فستأنا أنيقا جميلا وطلب مني أن أرتديه ، فظننتُ أننا سنعود للقرية ، وحين جاء المساء كنتُ في غرفتي ، كنتُ أسمع صوت أناسٍ يتحدثون مع أبي في الصالة ، سمعتُ طرقات متعجلة على باب غرفتي ، وما إن فتحتُ الباب حتى رأيتُ مكة تدلف غرفتي مبتسمة ، ثم أوصدتْ الباب واحتضنتني وقالتْ :

ـ عندي خبرين حلوين يا شابة .

قلتُ فرحة :

ـ خير فرحيني معاكي .

قالتْ بعد أن قبّلتني في كلتا وجنتي :

- احنا نجحنا يا بت .
فابتسمتُ وفرحت ثم سقطتْ دموعي فجأة ، فقالتْ مكة مسرعة :
- بقولك نجحنا مش اتطلقنا .
فجففتُ دموعي واحتضنتها وقلتُ :
- انتي ساعدتيني ووقفتي جمبي كتير وكنتي تضيعي وقتك وتيجي تجبيلى المحاضرات وتذاكري معايا .
قالتْ في تنهيده ساخرة :
- ارجوكي لا داعي للتصفيق ... نحن نعمل في صمت .
ثم لكزتني وقالتْ في مرح :
- يخرب عقلك كنتي هتنسيني الخبر التاني .
قلتُ مبتسمة :
- اه صحيح إيه الخبر التاني ؟
أجابتْ وهي تغمز بإحدى عينيها :
- هتعرفي بعد شوية .
كدتُ أن أقول شيئا لكنني صمتُ حينما سمعتُ صوت زوجة أبي يأتي من الصالة تقول :
- تفضلوا .
قالتْها بعد أن أطلقتْ زغرودة طويلة لها ذيل ، فسقط قلبي بين ضلوعي ، وسقطتْ دموعي وقلتُ :
- ماشاء الله ... يعني أنا بقا آخر من يعلم ... أنا مش هجوزه .
قالتْ مكة في جدية :
- ومين قالك اجوزيه ... دى خطوبة ... يعني هتتعرفوا على بعض أكتر .
قلتُ في غضب :
- اتعرف عليه واقعد معاه واتكلم معاه ... مش دا حرام ... مش دا كلامك ؟
قالتْ وهي تبتسم :
- ما هو أنا لو جاوبت على سؤالك ده يبقى هحرق المفاجأة .
قلتُ ساخرة :
- هو فيه مفاجآت تاني اكتر من إني هتخطب من غير ما أعرف .
وقبل أن ترد سمعتُ مَنْ يطرق باب غرفتي ، وبعد لحظات دخل عم حسين واستأذنتْ مكة بالخروج ، اقترب عم حسين منّي وأمسك بيدي وقال :
- هسألك 3 أسئلة .
ضغط على يدي ونظر في عيني وقال :
- تعرفي حد حبك أكتر منّي ؟

أومأت برأسي علامة النفي ، فقال :
- بتثقي فيا ؟
أومأتُ برأسي إيجابا ، فقال :
- تسمحيلي اختار معاكي طريقك ؟
قبل أن أرد نهض وهو مازال يقبض على يدي في لطف ، فنهضتُ وسرتُ معه إلى الصالة التي ازدحمتْ بالمهنئين والجيران والأصدقاء ، رأيتُ والدة مكة ووالدة معتز ووفاء وأبي ورجلا أخرا أعتقد أنه من سكان الطابق الثاني ، كان معتز متأنقا في بذلة سمراء تحتها قميص أبيض اللون دون رابطة عنق ، ولاحتْ لي من بعيد زوجة أبي سعيدة وهي تبرطع من الصالة إلى المطبخ لإحضار المشروبات ، فقلتُ في نفسي :
- دى انتي فرحانة اكتر من العريس نفسه .
وابتسمتُ حينما رأيتُ من بعيد مكة تقف في المطبخ وتساعد زوجة أبي ، كتمتُ ابتسامتي وسمعتُ معتز يقول وهو ينظر نحو أبي :
- يا عمي بعد أذنك أنا قلتلك خلي نورا والستات لوحدهم ...وأنا وانت مع الرجالة لوحدنا لحد ما المأذون ييجي .
- يالهوي ...مأذون ... اه علشان كده مكة قالتْ لو جاوبتك هبقي بوظت المفاجأة ... يا سلام على المفاجآت .
قلتُ ذلك في نفسي ، وسمعتُ زوجة أبي تقول وهى تقدّم المشروب العاشر لمعتز:
- رجالة ايه اللى وحدهم وستات ايه اللى وحدهم يا خويا؟ ... دى ليلة في العمر خلينا نفرح .
قالتْها ثم زغردتْ ، فقلتُ في نفسي وأنا أكتم ابتسامتي :
- اشرب بقا يا شيخ معتز .
وهنا سمعتُ دقات على باب الشقة ، فاتجهتْ زوجة أبي تتمايل وهي تزغرد وحينما فتحتْ الباب ورأتْ المأذون أطلقت زغرودة أخرى وهى تتقصع وتتمايل فقلتُ في نفسي :
- اقطع دراعي لو كنتي فرحتي الفرحة دى لما أبويا اجوزك .

تم كل شيء سريعا ، وبين لحظة وأخرى صرتُ زوجة لمعتز ، نعم زوجته ، هو الآن زوجي ، يملكني ، ويملك كل شيء فيّ إلا قلبي الذي مازال متعلقا بحسام .

بعد أقل من ساعة انفضّ السيرك ، غادر الحضور ومعهم عم حسين الذي أخبرني أنه سيبيت عند كوثر ، واستأذن أبي وذهب لغرفته وكانتْ زوجته قد سبقته ، وجدتُ نفسي وحيدة مع معتز ، ساد صمت لم نسمع فيه إلا دقات الساعة الكبيرة المستقرة على الحائط ، ثم قال معتز فجأة :

ـ إن شاء الله ربنا يوفقني وأسعدك وأكون الزوج الصالح ليكي .

لم أرد ، فقال من فوره :

ـ ألف مبروك يا حبيبتي .

قلتُ في غيظ :

ـ حبيبتك ؟! ... لحقت تحبني ؟

أجاب مبتسما :

ـ أنا بحبك من زمان .

قلتُ متعجبة :

ـ زمان إزاي يعني ؟

أجاب :

ـ من ساعة ما شفتك وانتي نازلة من عند مكة .

قلتُ ساخرة :

ـ ومش حرام برضه تبص على البنات اللى طالعة واللى نازلة .

أجاب :

ـ لا مش حرام ... لو هبص علشان اجوزك مش حرام ...لمّا والدتي رشحتك لي وكانتْ مرتاحة ليكي مكنتش أعرفك ولا شوفتك ... وفي مرة وانتي طالعة عند مكة ... والدتي جات قالتْلى انك فوق ... وكان لازم أبص عليكي وانتي نازلة ... سألت عنك وعن أخلاقك وعملت استخارة ... وخدت القرار .

قلتُ في غيظ :

ـ طيب وأنا ... مش المفروض أنا كمان يكون لي قرار ؟

أجاب مسرعا :

ـ جايز تكوني مش بتحبيني ... بس عارف انك هتحبيني لمّا نقرب من بعض... ومش هسمح لنفسي نقرب من بعض إلا في الحلال ... علشان كده طلبت من والدك تكون خطوبة وكتب كتاب .

لم أتكلم ولم يتكلم ، ساد صمت قصير ثم اقترب منّي وقبّل جبهتي فارتبكت وقلتُ في نفسي :

ـ هو الشيخ معتز تحول 180 درجة كده إزاي .. مش دا اللى كان بيبص في الأرض لمّا يشوفني .

قال وكأنه عَلِمَ بما يدور في عقلي :
ـ من ساعة فاتت مكنش ينفع أبص عليكى ... دلوقتي بشرع ربنا سبحانه وتعالى انتي مراتي ...بس متخافيش ..استحالة اعمل حاجة قلبك مش موافق عليها .
هنا تذكرتُ ما كان يقوله حسام :
ـ سيبي قلبك هو اللى يتكلم .

غادر معتز وجلست وحيدة في الصالة ، فتحتُ التليفزيون وشردتُ في خواطري لا أصدق أنني أصبحت زوجة لشخص لا أحبه ، ورأيتُ على شاشة التليفزيون الإرسال قد انقطع وظهر المشهد المعتاد :
ـ ايه الملل ده ؟!
انتظرتُ حتى ينتهي المشهد متوقعة أن يحدث جديد ، لكن المشهد انتهي دون جديد ، الرجل قصير القامة نظر نحوي عبر الشاشة وقال متوسلا بينما الدماء تسل على جبهته :
ـ انقذيني .

التقطتُ جهاز التحكم عن بعد (ريموت كنترول) وهممتُ أن أغلق التليفزيون ، لكن تراخت يدي قبل أن أطفأه ، فتحتُ فمي من الدهشة حينما رأيت أن الإرسال قد انقطع مرة ثانية ، وظهر على التليفزيون مشهد أعرفه جيدا ، رأيت نفسي فاقدة الوعي بين ذراعي حسام وهو يضعني على سرير ، ثم نظر الي جسمي الممدد ، ونزع حجابي ومد يده إلى ملابسي ، ثم تسمر مكانه حينما رأي على الجانب الأخر من السرير الرجل الأسمر قصير القامة وهو يبتسم ، فسقط حسام مغشيا عليه ، ثم اقترب الرجل إلى الشاشة وقال كأنه يحدثني :
ـ أنا انقذتك ... انقذيني انتي كمان ... نفسي ارتاح .
ثم عاد الإرسال .

فى تلك الليلة لم تفارقني الكوابيس ، رأيتُ نفسي أردتي فستان زفاف أنيقا وأجلس على مقعد مرتفع ، والحضور يتمايلون مع أنغام الموسيقى ، وزوجة أبي تزغرد ، ووجه أمي يبتسم في الفراغ ، وحينما نظرتُ على يساري لأرى عريسي وجدته ، وجدتُ حسام في بذلة العريس ، أنيقا يبتسم لي ابتسامته الجذابة ، فدقّ قلبي فرحا ، وقبل أن أميل ناحية حسام شعرتُ بمن يضع يده على كتفي الأيمن ، فنظرتُ للناحية اليمنى فرأيتُ معتز

يجلس على مقعد بجواري وقد ارتدى هو الآخر بذلة زفاف أنيقة ، فجأة لم أجد الحضور والمهنئين ، كان معتز يشدّني لناحية اليمين ليظفر بي زوجة ، وحسام يشدّني ناحية اليسار ليظفر بي زوجة ، ثم تركاني واقترب كل منهما الآخر ، وغابا في شجار مميت ، ثم رأيتُ رجلا خلف معتز يشجعه ، وخلف حسام رجلا اخر يشجعه ، اشتدّ القتال بينهما اثر التشجيع وتصفيق الرجلينِ المشجعينِ ، وحينما دققتُ النظر في كلا الرجلين خُيلَ لي أن الرجل الذي يشجع حسام هو الرجل الذي أراه على شاشة التليفزيون وقد هوي بقطعة من حديد ليشج رأس الثاني، والرجل الذي يشجع معتز هو ذلك الرجل الذي رأيته على شاشة التليفزيون وقد شُجتْ رأسه وسالتْ الدماء على جبهته .

في صباح تلك الليلة استيقظتُ على صراخ وعويل وشهيق فخرجتُ من غرفتي مزعورة حافية القدمين بثياب نومي لأري زوجة أبي منهارة وقد انفلتتْ أعصابها وحينما سألتها عن السبب علمتُ أن أبي قد مات .

الفصل الرابع عشر
(نورا قاسم)

مات أبي ، ومنذ أن مات وأنا أتجاهل السؤال الذي يدور بداخلي :
هل حزنتُ عليه ؟
أتجاهل هذا السؤال لأن إجابته أليمة عجيبة ، أنا لم أحزن على فقدان أبي ، لأني لم أشعر يوما أنه أبي ، حينما كنتُ أنام في برد الشتاء وينزلق غطائي لم أشعر بيد تشد غطائي لتغطيني ، حينما كنتُ أعود بدرجات نجاحي في الثانوية لم أجدْ من ينهال عليّ بالقبلات مغدقا عليّ الهدايا لتفوقي ، حينما اشتدّ فوق رأسي وهج الصيف لم أجدْ من يظلني ، حينما دقّ قلبي بالحب لأول مرة لم أجدْ من أحدثه وأفضض له ، حينما مرضتُ وحيدة في قريتي لم أجد من يداويني ، وتلك اليد التي تشد علينا غطاءنا في الشتاء وتظلنا من سعير الصيف وتقدم لنا الدواء في مرضنا هي الأب ، تلك الكلمة المختصرة اختفتْ من قاموسي منذ طفولتي ، هذان الحرفان المبعثران المتناسقان المتناغمان الموسيقيان المحببان (الألف والباء) فقدا قيمتهما في حياتي ، ولم أجد مخلوقا في عالمي الصغير جديرا بهذين الحرفين إلا عم حسين ، لم أزرف الدموع ولم ينقبض قلبي ولم أجد ذكريات يعاودها عقلي بشأن أبي ، لكن حزني الوحيد كان بسبب ما ينتظرني من زوجة أبي ، ولم يمر شهر واحد حتى قالتْها سعاد صريحة جلية :
ـ أبوكي مات .

أنا أعرف ما ترمي إليه ، هي تريد طردي ، لم أكنْ أتوقع أن تطردني بهذه السرعة ، قلتُ لها وأنا اصطنع الغباء :
ـ ربنا يرحمه ويصبرك يا مرات أبويا .
قالتْ في مكر :
ـ أنا قصدي انك تشوفي مكان تعيشي فيه يا حبيبتي .
قلتُ مبهورة الأنفاس في قلق :
ـ إزاي يعني؟ ... مش أنا بنته ولي حق أعيش معاكي في شقة أبويا .
قالتْ وهي تُخرج من صدرها ورقة صفراء قديمة :
ـ الشقة باسمي يا عنيا .
قالتْها وهي تضع الورقة تحت أنفي ، قرأت الورقة في ارتباك وأسى ، وعرفتُ أنه قد استأجر الشقة فى بداية الامر ، ثم اشتراها من الحاج سعيد ، ثم باعها لزوجته ، كنتُ أتوقع هذا ، لكن سبب قلقي وارتباكي أنني أين سأعيش؟ قلتُ وأنا أعيد لها الورقة :
ـ بس أنا هنا وحيدة ومعرفش حد ... استحمليني لحد ما أخلص جامعة وهرجع القرية ... وأوعدك إني هعيش هنا خدامة ليكى ولوفاء أختي .
قالتْ بعد أن مصمصتْ شفتيها :
ـ تخلصي جامعة !!!... يا حبيبتي أنا هبيع الشقة وبحقها هاخد الشقة اللي قدام شقة ماما .
قلتُ في نبرة لا تخلو من مذلة:
ـ طيب وأنا هعيش فين ؟
أجابتْ دون تفكير :
ـ انتي ناسية انك على ذمة راجل .
سألتُ في استغراب :
ـ إزاي يعني ؟
أجابتْ :
ـ معتز ... جوزك ... طالما كتبتوا الكتاب يبقي على الورق انتي مراته وقدام الناس انتي مراته وقدام ربنا انتي مراته .
سقطتْ دمعة جاهدتُ في كتمانها وأنا أقول :
ـ طيب خليني معاكي لحد ما تبيعي الشقة .
قالتْ وهي تحرك خصلات شعرها بأصابعها :
ـ وحياتك هجيب سمسار من الشهر اللى جاي .
ثم التقطتْ جهاز التحكم عن بعد (ريموت كنترول) ، وقالتْ دون أن تنظر نحوي :

ـ هصبر عليكي أسبوع واحد تكوني دبرتي أمورك ... أنا هروح عند ماما بكرة وهرجع الخميس اللى جاي ... أجي الاقيكي مشيتي .
قلتُ ساخرة :
ـ أسبوع ؟!
قالتْ :
ـ كنت ناوية اطلعك من الشقة انهارده ... بس خليها أسبوع علشان خاطر المرحوم .
نهضتُ وتوجهتُ إلى غرفتي فسمعتها تقول :
ـ متنسيش ... لما تمشي ابقي سيبي مفتاح الشقة مع توحيدة ... اللي ساكنة تحتنا .

في اليوم التالي غادرتْ سعاد وذكرتني بما قالتْه ليلة أمس فأومأت لها موافقة ، وجلستُ في الصالة أبكي ، تذكرتُ أمي ونصائحها ، كانتْ توصيني بأن أقابل السيئة بالحسنة وأن القناعة كنز، وأن الفقر مش عيب ، وأن الأخلاق هي ما تدوم ، وأن الحياء هو كنز الفتاة الحقيقي وأن المجتمع رحيم ، وبعد أن رأيت المجتمع وقسوته أود أن أصرخ في وجه أمي وأخبرها أنها كاذبة ، نعم كاذبة ، أين هو المجتمع الذي يرحم ؟
لماذا لم ترحمني زوجة أبي ؟
ولماذا لم يُعجب حسام بكنزي الحقيقي ؟
أقصد حيائي .

تذكرتُ حسام وخطرتْ ببالي فكرة ،
سأتصل به ، نعم كيفَ غاب عني هذا ؟!
أخرجتُ هاتفي وبحثتُ عن اسمه ، سأخبره أنني لا أستطيع نسيانه رغم كل شيء ، ارتعشتْ يدي وأنا أضغط على زر الاتصال ، ثم قلتُ :
ـ حسام ... عامل إيه ؟
فسمعتُ مَنْ يقول :
ـ حسام مين ؟
فعلا ليس صوته ، هل قام بتغيير رقم هاتفه ، لماذا ؟
قال الصوت على الجانب الأخر :
ـ عايزه مين حضرتك ؟
أجبتُ في تلعثم :
ـ مش دا رقم حسام عبد المجيد .

أجاب :
لا النمرة غلط ... أنا مش حسام ... ينفع حسن ؟
أغلقتُ الخط وأنا أبكي ، ثم سمعتُ سقوط أحد الأطباق بالمطبخ فقفزتُ مترين للأعلى وهرولتُ إلى المطبخ ، رأيتُ موقد البوتاجاز مشتعلا وعليه مقلاة كبيرة الحجم بداخلها أسماك تبقبق ، أسرعتُ إلى الصالة وأدرتُ محطة التليفزيون على قناة القران الكريم ، ثم هرعتُ إلى غرفتي وارتديتُ ثوب الخروج على عجل وثبّتُ حجابي على رأسي وأنا ارتعش ، خرجتُ راكضة فاصطدمتْ قدمي بحافة السرير ، شعرتُ بألم شديد ، سقطتُ ونهضتُ بصعوبة وأنا أبكي ، خرجتُ إلى الصالة أركض على قدم ونصف قدم ، تركتُ جهاز التليفزيون يعمل ، وحينما فتحتُ باب الشقة كنتُ أسمع بقبقة الأسماك في الزيت وصوت رجل يغني قائلا :
صيادين والرزق كتير صيادين ...صيادين
صيادين والرب كبير صيادين ...صيادين
بنحبوك يا ساكن بحري صيادين .. صيادين

كانتْ الأغنية ذات إيقاع موسيقي شعبي باعث للنشاط ، وكلماتها تحث على التوكل على الله في طلب الرزق ، هبطتُ درجات السلم متلاحقة الأنفاس وأنا أطوي ثلاث درجات في الوثبة الواحدة ، وحينما وصلتُ لمدخل البناية توقفت التقط أنفاسي فوجدتُ الدماء تسيل من قدمي ، تحاملتُ وأسرعتُ حثيثة الخطي ، وما هي إلا دقائق حتى كنتُ أطرق باب شقة مكة طرقات متتالية سريعة ، وما إن فتحتْ مكة الباب حتى سقطتُ مغشيا عليّ فاقدة الوعي .

الساعة الحادية عشرة مساء فتحتُ عينيّ لأري نفسي ممدة على سرير، وعلى يميني شخص ما يقبض على يدي ، ومن خلفه سيدة دامعة العينين ، سمعتُ السيدة تقول :
ـ حمد الله علي سلامتك يا نورا .
حينما دققتُ النظر عرفتُ أنها والدة معتز ، قال معتز وهو يقبض على يدي أكثر :
ـ اطمني انتي بخير.
علي الناحية اليسرى سمعتُ مَنْ تقول :
ـ سلامتك يا نورا ... كده تخضينا عليكي .

كانتْ المتحدثة هي مكة التي كانتْ تجلس بجوار والدتها ، قلتُ بصوت لا يكاد يكون مسموعا :
- أنا فين ؟!
قال معتز في عطف :
- متقلقيش ... شوية وهنروح .
هنا دخلتْ إحدى الطبيبات ، فأفسح معتز لها الطريق ، اقتربتْ منيّ الطبيبة ونزعتْ من يدي إبرة كانتْ تحمل خرطوما صغيرا ثم قالتْ :
- تقدروا تروحوا ...بس الغيار على الجرح كل يوم لمدة 4 أيام .
قلتُ في هلع :
- جرح ؟! ...جرح إيه ؟
أجابتْ الطبيبة قائلة :
- 6غرز في كعب رجلك ... نزفتي كتير لاني مشيتي على رجلك المجروحة ... على العموم ترتاحي وتلتزمي بالعلاج ... وتيجي بكرة نغيرلك على الجرح .
هنا تذكرتُ تعثري في طرف السرير الحاد ، والدم الذي رأيته يسيل من قدمي في مدخل البناية ، وكيفَ ركضتُ على قدمي المجروحة حتى وصلتُ إلى شقة مكة ، غادرتْ الطبيبة بعد أن أعطتْ معتز بعض الأوراق ، ثم تقدم نحوي وهو يقول :
- اتكي عليا لحد تحت ... العربية مستنية .
خرجنا من المستشفي وكانتْ سيارة أجرة في انتظارنا ، بعد قليل توقفتْ السيارة في أول الحارة ، قالتْ والدة مكة :
- خليها تطلع تبات مع مكة يا معتز .
قال معتز :
- لا يا خالتي ... عندنا وعندكم واحد .
قلتُ في نفسي :
- يالهوي ... ايه ده ... هو بيقول ايه ؟!
ثم قلتُ مسرعة في ضعف :
- لا لا ... أنا هروح .
قالتْ والدة معتز وهي يفتح باب السيارة :
- ترروحي فين يا نورا وانتي تعبانة كده ؟
ثم تذكرتُ الرعب الذي رأيته في شقة أبي ، لذلك وافقت .

في شقة معتز تمددتُ على سرير صغير ، كنتُ في غرفة أنيقة متوسطة الحجم ، ليس معي سوي مكة التي قالتْ :
ـ خضتينا عليكي ...احكيلي اتعورتي إزاي .
قلتُ في ضعف :
ـ قوليلي انتي الاول ... الدكتورة قالتْلكم إيه ؟
أجابتْ :
ـ انخفاض في الدورة الدموية ودا اللى سبب الإغماء ..دا غير الجرح اللي في رجلك .... قوليلى إيه اللى حصل بالضبط ؟

حكيتُ لها ما قالتْه لي زوجة أبي ، وما حدث معي في المطبخ والصالة وسقوطي على الأرض بعد تعثري في حافة السرير فقالتْ :
ـ بصي ...انتي لازم تحكي لمعتز على كل حاجة .
قلتُ ُوكنتُ قد نسيتُ أنني في شقتهم :
ـ يالهوى ..احكي إيه ...أنا أصلاً مش عارفه هبات هنا ازى مع واحد ....
قاطعتني قائلة :
ـ واحد جوزك .
ثم ضحكتْ وهي تُكمل :
ـ دا لمّا عرف ساب كل اللي في ايده وقفل المحل وجه جري هو وأمه وخدك على المستشفي .
ثم دلفتْ إلى الغرفة أم معتز من خلفها أم مكة ، قالتْ والدة معتز :
ـ مكة كفاية عليكي كده روحي مع مامتك ... احنا سهرناكم وتعبناكم .
قالتْ مكة :
ـ متقوليش كده يا خالتي ...لولا إن الباشمهندس أصرّ إن نورا تبات هنا احنا كنا هنشيلها فى عنينا .
قالتْ أم معتز :
ـ ربنا يبارك في عمرك يا بنتي .
قبّلتني مكة ، وصافحتني والدتها وغادرا ، ثم جلستْ والدة معتز بجواري وقالتْ :
ـ هجيب الأكل واجيلك عبال ما معتز يكون جه من تحت .
قلتُ مسرعة :
ـ لا لا ...أنا مش جعانة .
هنا سمعتُ معتز يقول ويبدو أنه سمع حديثنا :
ـ خليكي هنا انتي ياست الكل وأنا اللى هجيب الاكل .

ثم وضع مجموعة من الأدوية وخرج ، ثم عاد بعد لحظات وبين يديه صينية صغيرة عليها طعام وقال وهو يضعها على سريري :
ـ بصي بقا ...العلاج فيه مكسنات وأقراص ومضاد حيوي فلازم تاكلي ..عايزك تخلصي الأكل ده كله .
ضحكتْ والدته وقالتْ وهي تخرج :
ـ وأنا هقوم أعمل الشاي .
كنتُ محرجة مرتبكة ضعيفة ولم أتكلم فقال من فوره :
ـ أنا هخرج علشان تاكلي براحتك ... لو احتجتي اى حاجة اندهي .
قلتُ في ارتباك وخجل وضعف :
ـ شكرا .

كنتُ أتناول الطعام وأنا شاردة الذهن شاعرة بدوارخفيف برأسي وألم في قدمي ، كيفَ سأبيت هنا ؟!
لا أستطيع أن أعيش حياتي الطبيعية هنا ؟!
كيفَ سأبدل ملابسي وأصلي ، وأقضي يومي هنا ؟!
ياله من كابوس !
حينما فرغتُ من طعامي سمعتُ طرقات على الباب فقلتُ :
ـ تفضل .
دلف معتز إلى الغرفة وهو يقدّم لي مشروبا من العصير ثم قال :
ـ أنا وأمي هنشرب شاي ... بس أنا عملتلك عصير .
قلتُ في صوت أشبه بالهمس :
ـ شكرا .
وتذكرتُ حسام حينما كان يحضر لي في كل مرة عصير الفراولة ، رأيتُ معتز وقد حمل صينية الطعام الفارغة وقال :
ـ دا بيتك ... خدي راحتك .
استدار ناحية الباب وقبل أن يخرج نظر نحوي وقال :
ـ لو مصلتيش العشا ابقي صليه حتى وانتي قاعدة ...على فكرة أنا هبات بره علشان تتحركي براحتك .
قالها ثم خرج .

شربتُ العصير ورحتُ أجول بعينيّ الحجرة ، كنتُ أرى نافذة مسدول عليها ستارة كبيرة ذات لون أبيض ، على اليسار مكتب صغير عليه مجموعة من الكتب خلفه دولاب ملابس ، وعلى اليمين بالقرب من السرير

منضدة عليها زهرية وكتب وزجاجة مياه ، وبجوار المنضدة باب الغرفة ، طرقتْ والدة معتز الباب ثم دلفتْ قائلة :
ـ أنا هنام بقا يا نورا ... اندهي عليا لو احتجتي حاجة .
قلتُ سائلة :
ـ هو معتز هيبات فين ؟
أجابتْ :
ـ هيبات تحت في المحل .
قلتُ :
ـ طيب وليه ؟..... كان بات هنا وأنا كده كده بكره هرجع البيت .
قالتْ :
ـ لو سمعك بتقولي كده هيزعل ... هو مش هيسيبك تروحي إلا لمّا تخفي خالص .... ولا انتي زهقتي مننا من أول ليلة ؟
قلتُ على الفور :
ـ لا لا مش كده خالص ...أنا أصلاً محرجة أوي إني تعبتكم ... ومش عارفه هينام إزاي في المحل في الحر ده ؟
أجابت :
ـ المحل فيه مروحة وهو أخد معاه غطا وفراش .

نمتُ ليلتي في سكون عميق ، لم تهاجمني الكوابيس ، ولم تهزني يد زوجة أبي صباحا وهي تطلب مني طنا من الأعمال من تنظيف وغسل وطهي ، حينما استيقظتُ صباحا لم أجد ما أفعله ، وخجلي منعني من أن أخرج من غرفتي بعدما ظننتُ أن والدة معتز مازالتْ نائمة ، نهضتُ وتحاملتُ على قدمي وجلتُ في الحجرة ، ثم جلستُ على المكتب الصغير ورحتُ أتصفح الكتب ، كانتْ عن الهندسة وعن القوي الميكانيكية ، وبعض دواوين المدائح النبوية لأحمد شوقي ، وبعض الكتب التاريخية ، وخطب منبرية عليها شعار وزارة الأوقاف ، كنتُ شاردة وأنا أتصفح عناوين تلك الكتب ، ثم أفقتُ من شرودي اثر سماعي طرقات على باب الغرفة ، ولمّا طالتْ الطرقات دون أن يدخل صاحبها قلتُ :
ـ تفضل .
ـ ما شاء الله ... انتي انهارده أحسن بكتير .
قالها معتز متهللا في حبور بعد أن رآني أجلس على مكتبة ، توترتُ قليلا فلم أكنْ أتوقع مجيئه مبكرا في هذا الوقت وقلتُ :
ـ الحمد لله أحسن .

ثم أردفت :
ـ هي الساعة كام دلوقتي ؟
أجاب بسؤاله :
ـ هو تليفونك مش معاكي ؟
قلتُ مرتبكة :
ـ لا ..أصـ ....أصلي نسيته في الشقة .
قال بعدما جلس على طرف السرير :
ـ طيب وبتسألي ليه على الساعة ؟... وراكي مشوار .
قلتُ وأنا انظر إلى الكتب التي تستقر على المكتب :
ـ لا ...عادى يعني .
قال في مرح :
ـ بصي ...طالما قدرتي تقومي وتتمشى كده على رجلك ... يبقى زى الشاطرة تقومي تتوضى ... وعند كعب رجلك تمسحي على الضمادة وتيجي تصلي عبال أنا ما أكون جبت الفطار من تحت .
ثم أكمل وهو يبتسم :
ـ على فكرة أنا هجيب الفطار من تحت ... يعني مش هكون موجود في الشقة ...علشان عرفك بتتكسفي ...يلا خدى راحتك .
فقلتُ بصوتٍ منخفض :
ـ حاضر .
نهض واستدار وسمعته يقول :
ـ يا سلام ...أول مرة أشوف واحدة بتتكسف من جوزها .
وحينما أنهى جملته وهو يوصد الباب خلفه كنتُ ابتسم .

بعد قليل دلفتْ الغرفة والدة معتز واطمأنتْ على حالتي وأخبرتني أنها مستيقظة منذ ساعة لكنها رفضتْ أن تيقظني حتى لا تزعجني ، أخبرتها أنني أريد الصلاة ، فأصرتْ أن اتكأ عليها ولم تتركني لا وأنا على سجادة الصلاة وخرجتْ .

حينما انتهيتُ من صلاتي شعرتُ براحة كبيرة ، ورحتُ أفكر في تلك الأسرة الصغيرة ، وكيفَ يعيشان في هدوء وترابط ، معتز بدا لي ودودا شهما ...
لكن ...
آه .....

مازلتُ أحب حسام ...
ومهما فعل معتز فان هناك أوتارا في قلبي لا يستطيع أن يهزها إلا حسام ، ذلك الشعور الغريب العجيب وتلك الأحاسيس المتضاربة المحببة لنفسي لا أشعر بها إلا مع حسام ،
حسام ....
أين أنتَ يا حبيبي ؟!
لماذا فعلتَ ذلك معي ؟!
لماذا جعلتني أعشقك وكنت تخطط لي الشر ؟!
هل كنتَ غائبا عن وعيك وقتها ؟!
هل كانتْ نزوة في ساعة ضعف ثم قررتَ الابتعاد حينما أحسستَ بالذنب نحوي ؟!
هل كنتَ تنوى أن تتزوجني أم كنتَ تتسلي بي ؟!
ثم تذكرته حينما كان يرقص مع شيرين وحينما جذبني من يدي وركضنا مثل الأطفال لنركب المرجيحة ، يا لها من ذكريات !
كنتُ بين يديه كالدمية المسحورة يقلبني بكفيه كيفَ يشاء :
ــ سيبي قلبك هو اللي يتكلم ...
ــ يظهر إني هحب كتابة الأبحاث ....
ــ قوليها بلسانك ولو مرة واحدة يا نورا ...
ــ انتي حلوة من غير مكياج ....
ــ ثمرة الفروالة بتفكرني بقلبي المسكين اللي هي مش حاسة بيه ....
شعرتُ بسائل ساخن يبلل شفتيّ وأنا أتذكر كل هذا ، لم يكن هذا السائل سوى دموعي التي انهمرتْ دون إرادة منّي ، سمعتُ مَنْ يطرق الباب ، فقلتُ وأنا أجفف دموعي :
ـ تفضل .
دلفَ معتز يحمل الفطور وحينما رأى أثر الدموع في عينيَ وعلى وجنتيَ تغيرتْ ملامح وجهه ثم وضع صينية الطعام الصغيرة على السرير وقال في لطفٍ وعطف :
ـ دموع ؟! ... مالك يا نورا ؟
قلتُ مسرعة في عدم ثقة :
ـ لا مفيش .
قال في أسى وتأنيب نفس :
ـ فيه اى حاجة دايقتك مني ؟.... على فكرة أنا هطمن عليكي وهنزل المحل ومش هطلع إلا بالليل... يعني قعادي هنا مش هيكون كتير .

قلتُ وأنا أنهض من على سجادة الصلاة :
ـ ليه بتقول كده ؟!... ولو كان على دموعي فأنا طبيعتي كده ... بعيط كتير من غير سبب .
قال وهو يُشير لي كي أجلس بجوار الطعام :
ـ بصي يا نورا ... أنا مش صغير ... أنا عارف انك مدايقة إننا كتبنا الكتاب من غير فترة تعارف وتقارب ... بس ياستي أنا مكنش ينفع اقرب منك إلا في الحلال زى ما قلتلك ... وعامة اعتبرينا في فترة الخطوبة ... وبعد فترة الخطوبة لو لسه مش مرتاحة أنا هختفي من حياتك .
قلتُ وأنا أنظر بعيدا :
ـ الموضوع ...
قاطعني قائلا :
ـ الموضوع انك متتكلميش وتاكلي علشان تاخدي العلاج ... وعلى المغرب كده هتيجي ممرضة تغيرلك على الجرح .
قلتُ :
ـ بس مش الدكتورة قالتْ نروحلها المستشفى تغيرلى على الجرح ؟
أجاب :
ـ أنا اجيبلك المستشفي كلها هنا ... المهم انك تكوني بخير .
ثم استدار وقال وهو يخرج :
ـ أنا في الصالة هفطر مع أمي ... لمّا تخلصي فطار خبطي على الباب من جوه عشان أجي .
حينما انتهيتُ من فطوري فتحتُ الباب وحملتُ الصينية بعد أن قررتُ أن أخدم نفسي لأخفف عنهما أعباء إقامتي معهم ، وما إن رآني أحمل الصينية حتى هرول نحوى وقال معاتبا وهو يحملها عنّي :
ـ لا لا كده ازعل ... انتي تستريحي وأنا هعمل كل حاجة .
شعرتُ بالحرج من حسن معاملته ودلفتُ إلى حجرتي ، ثم طرق الباب ولم يدخل إلا بعد أن سمعني أسمح له بالدخول ، جذب زجاجة دواء وأفرغ جزء منها في ملعقة ثم ناولني إياها وهو يقرأ بطريقة مضحكة :
ـ اه ... دي مرة بعد الفطار ...تمام تمام ...استني ...قولي بسم الله الشافي المعافي ... شاطرة شاطرة .
ثم أخرج قرصا مسكنا وآخر مضادا حيويا ووضعهما في كف يدي وهو يقرأ بطريقة مضحكة :
ـ 3 مرات يوميا بعد الأكل ..يا سلام ...مظبوط مظبوط ... كده تمام ... لا ...خديهم حباية حباية ... استني نسيت الميه ... نستيني الميه يا نورا .

ثم قام بصب أناء الماء في كوب وناولني إياه .
ثم أعاد الأدوية إلى المنضدة وقال وهو يهمّ بالخروج :
- بعد الغدا تاخدى من الأقراص بس ... أنا هخلص شغل في المحل ..وهصلي الضهر فى الجامع ...بعدها رايح شغل بره وهرجع بالليل ... محتاجة اى حاجة اجبهالك معايا .
قلتُ سائلة :
- هو انت بتعمل كده ده معايا ليه ؟
بدا العجب على وجهه من السؤال لكنه أجاب :
- لو مش هعمل كده مع مراتي ...قصدى مع خطيبتي ...اومال هعمله مع مين ؟!
ابتسمتُ رغما عنّي فقال حينما رأي ابتسامتي :
- هو ينفع أعاكس ؟
قلتُ في غباء :
- إزاي يعني ؟!
أجاب :
- ابتسامتك حلوة أوى .
قالها ثم خرج .

فى منتصف النهار حضرت مكة للاطمئنان على حالتي ، واعتذرتْ عن تأخرها في المجيء بسبب انشغالها في الصباح بتحفيظ القران للفتيات الصغار ، ثم سألتني إذا ما كنتُ أخبرتُ معتز عمّا حدث بيني وبين زوجة أبي وعن الأسماك والزيت وما رأيته في المطبخ ، وحينما علمتْ أنني لم أخبره شجعتني أن أحكي له ، فلربما وجدا حلا واستطاع مساعدتي ، وأخذنا نحكي ونثرثر في أمور كثيرة حتى استأذنتْ وانصرفتْ بعد أن دعتْ لي بالشفاء .

في المساء حضرتْ إحدى الممرضات وبدّلتْ ضمادة جُرحي وطمأنتني وغادرتْ ، جلستُ وحيدة أبدد الوقت في تصفح الكتب وقراءة الدواوين وأفتح النافذة تارة لأستنشق الهواء وأسلي نفسي بمراقبة الحارة والمارة ، ثم أخرج إلى والدة معتز أثرثر معها تارة أخرى ونحن نشاهد التليفزيون ، ثم أعود إلى الغرفة لأتصفح الكتب ، وبينما أنا أتصفح كتابا ضخما وأقلب صفحاته وجدتُ صورة بالألوان لرجل أعرفه جيدا ، الرجل أسمر قصير

القامة مقوس الظهر ، حملقتُ في ملامح الرجل ، كان واقفا على شاطئ البحر ، لماذا بدا لي مألوفا وجه هذا الرجل ؟!
لأنه نفس الرجل الذي رأيته تسيل منه الدماء على شاشة التليفزيون ، ورأيته أيضا يمنع حسام من الاعتداء عليّ في تلك الليلة ، جذبتُ الصورة من بين الصفحات وأنا أرتعش وغادرتني السكينة التي عرفتها منذ أن أقمتُ في هذا البيت ، وتوترتْ أعصابي وانفلتتْ ، وضعتُ الصورة تحت وسادة السرير وحين حضر معتز ودلف غرفتي وجدني شاحبة فسأل مذعورا :
ـ نورا ... مالك ؟... انتي تعبانة ؟
أخرجتُ الصورة من تحت الوسادة ثم قلتُ فى هلع :
ـ الراجل ده بشوفه فى أحلامي وكوابيسى وخيالي بيصوّرلى إني بشوفه على التليفزيون .
أمسك الصورة ونظر فيها فارتفع حاجباه واتسعتْ عيناه تعجبا وقال سائلا بلهفة :
ـ انتي عارفه الراجل ده يبقى مين ؟
أجبتُ في جهل :
ـ مين ؟!
قال :
ـ دا يبقى أبويا .

الفصل الخامس عشر
(معتز الصياد)

في العاشرة صباحا توجهتُ إلى قسم الشرطة ، قال سيادة الرائد عادل بعد أن هلل ورحب :
ـ عاش من شافك ياهندسة ... ايه الغيبة الطويلة دى ؟
أجبتُ في كياسة :
ـ اسمع يا عادل أنا خطبت ... قصدى اتجوزت و....
قال مقاطعا :
ـ كده من ورايا ... طول عمرك ندل و...
قاطعته قائلا :
ـ سيبنى بس أكمل كلامي .
قال مسرعا :
ـ سيبني أنا أرحب بيك يا راجل ... تشرب إيه ؟
ولم ينتظر مني إجابة لأنه نادي بصوت مرتفع :
ـ يا مراد ... يا عسكري .
ثم أكمل حينما دلف مراد إلى داخل مكتبه :
ـ قهوة مظبوطة يا مراد ... اغلي البن كويس ...اغليه يا مراد.
لمّا خرج مراد قلتُ :
ـ أبويا بيظهر لمراتي يا عادل .
قال وهو يحك رأسه :
ـ دا عنوان فيلم ده ولا إيه يا هندسة ... والله وحشتني قفشاتك .
قلتُ في نفاذ صبر :

ـ عادل ... بص ... اعتبرني مش صاحبك ... اعتبرني جاي أقدم بلاغ وخليك جد شوية .
قال في لا مبالاة :
ـ طيب استني أشرب القهوة علشان أفوقلك .
بعد وقتٍ طويلٍ قلتُ في غيظ :
ـ خلاص شربت القهوة ... ركز بقا معايا ... مراتي شافت أبويا و....
قاطعني في بروده المعتاد :
ـ مراتك اللى خطيبتك ... ولا خطيبتك اللى هي مراتك .
نهضتُ وأنا أقول :
ـ لا أنا همشي .
قال وهو ينهض محاولا منعي :
ـ يا عم بطل شغل العيال ده أنا بهزر معاك ... وبعدين أنا مش قلتلك تنسى موضوع أبوك ده ... فاكر لما بلغت انه اختفي ودورنا عليه من غير فايدة ... وأنا قلتلك انسي الموضوع ... أبوك يا حبيبي من ساعة ما لقي الجوهرة وهو طفشان وأكيد عايش باسم تاني برة مصر . اى نعم أنا خليت واحد صاحبي فى المطار يراقب سجل المسافرين بره مصر علشان خاطر عيونك بس أبوك طلع ذكي .. ابوك أكيد سافر قبل أنت ما تبلغ عن اختفائه .

قلتُ وأنا اضغط على كلماتي :
ـ لا أبويا مش عايش ... أبويا مات ... ومات موته مش طبيعية ... جثته متعلقة في مكان معين ...يعني مش مدفونة .... روحه بتتعذب ... علشان كده كنت ديما أشوفه فى كوابيسي ... فاكر ساعتها لا قلتُلى اني بشوفه بسبب الصدمة والانهيار العصبي ... ساعتها صدقتك ... لكن كون إن مراتي تشوفه وفى كل مرة يقولها انقذيني ... يبقى هو مات مقتول .
قال متهكما :
ـ بقولك يا زوز ... لولا إني صاحبك كنت حولتك للعباسية ... يا هندسة افهم ... أنا هنا مباحث ... تجيبلى دليل مادى وأنا اشتغل .... تقدم بلاغ وأنا أتحرك .... زى الدكتور ... علشان يشرح لازم تكون قدامه جثة ... لكن شغل العواطف والروحانيات والعفاريت ده ملناش فيه .
قلتُ في إصرار :
ـ المرة دى معايا أدلة أكتر .
قال سائلا في تركيز :

ـ كده أنت حبيبى ... أيوه كده ... أنا عاوز دليل وسيبني اعمل تحرياتى ... ايه هو الدليل بقا ؟
قلتُ :
ـ اوصفلك الراجل اللى مراتي شافته بيقتل ابويا .
قال فى جدية :
ـ حلو ... هى شافته فين والساعة كام ؟
وإزاي كانتْ موجودة وقت الجريمة ؟
قلتُ محاولا إغاظته :
ـ شافته في الحلم .
قال في تململ :
ـ ماشاء الله ... وانت بقا عايزني ......
قاطعته :
ـ أنا فاهم وعارف انكم عايزين كل حاجة مادية ومش بتعترفوا بالأحلام ولا التلميحات الماورائية بس انت لازم تساعدني يا عادل .
نظر بعيدا وأشعل سيجارة وقال :
ـ ياريتك ما اتبرعتلي بالدم ساعتها يا أخي ... بقولك ايه ... اجيبلك لتر دم تاخده ونبقي خالصين .
في هذه اللحظة عرفتُ أن عادل سوف يساعدني .

بدأت علاقتي بعادل حينما كنا في مدرسة واحدة بالثانوية ، وذات نهار رأيته ممدا على الإسفلت اثر اصطدامه بسيارة كانتْ تمرق بسرعة البرق ، التفّ حوله الفضوليون بينما قمتُ باصطحابه إلى المستشفي وتبرعتُ له بالدم قبل أن يجري عملية جراحية ، وتكونتْ صداقة بيننا ، وكثيرا ما كان ينصحني أن اترك الميكانيكا وابحث عن عمل بإحدى الدول العربية لكنني كنت أرفض من أجل الإقامة مع والدتي .

قال عادل قبل أن ينهض من مقعده :
ـ بص يا معتز ... أنا طالع مأمورية دلوقتي ... هستناك بالليل فى البيت ... وهمسع منك كل اللى عايز تقوله .... بس هسمعه كصديق ... لكن زى ما انت عارف مش هعرف أتحرك إلا لو كان فيه دليل مادي .

عدتُ إلى المحل وبعد الظهيرة توجهتُ إلى شقتي ، طرقتُ الباب فسمعتُ نورا تقول :

ـ تفضل .
دلفت فوجدتها في حالة صحية جيدة ، قلتُ مسرعا :
ـ عامله إيه ؟
أجابتْ برقة :
ـ كويسة ... الحمد لله .
ثم سألتني :
ـ عملت إيه ؟
أجبتها :
ـ الأول نتغدا علشان تاخدي العلاج وبعدين نتكلم ... هساعد أمي في المطبخ وارجعلك .
رأيتها تنهض قائلة :
ـ لا استنى ... أنا هساعدها .
قلتُ معترضا :
ـ لمّا أتاكد انك خفيتي كويس هخليكي تساعديها ... دلوقتي استريحى .

وبعد قليل أحضرتُ الطعام ونادتها أمي لكنني لم أتناول معهما الطعام ، كنت حريصا ألا أخدش حيائها رغم أنها زوجتي ، كنتُ أعلم أنها تعرضتْ لتجربة قاسية مع زوجة أبيها ، وأردتُ أن أعوضها عن تلك الأيام القاسية وأكون لها نعم الزوج والأب والأخ والصديق ، كنتُ سعيدا حينما فتحتْ لي قلبها وحكتْ لي عن أسرارها وأخبرتني بأن زوجة أبيها أمهلتها أسبوعا لمغادرة الشقة ، ثم إن رؤيتها لأبي على شاشة التليفزيون يؤكد أن أبي قد قُتل ولم يسافر ، حينما أخبرتني أنها سمعتْ صوتا يغني بأغنية صيادين بدأ عقلي يسترجع خيط الذكريات حينما كنتُ أعيش مع أبي في الإسكندرية .

يا لها من ذكريات !
وهل ينسي المرء مكان مولده ؟!
لن أنسَ تلك الذكريات ، كنتُ ابن الثامنة أرافق أبي في قارب الصيد ، فقد علّمني المسئولية منذ صغرى ، كنتُ أساعده في بعض الأعمال البسيطة وأحمل طعامه وأقوم بطي شِبَاك الصيد في آخر اليوم ، كنتُ أفعل ذلك في الإجازة الصيفية ، كان أبي من قائمة عشرة رجال يعملون لدى المعلم رجب ، وهو رجل متسلط ثري يملك قوارب صيد وعمال وتصاريح وأماكن نفوذ على الشاطئ ، وهو ممن يستطيعون إنعاش السوق أو كساده متى أراد ، كان أبي يعمل على قاربه ليبيع له ما رزقه الله به بنصف الثمن ،

لماذا نصف الثمن ؟
لأن أبي لا يملك قاربا ولا تصريحا ، لكن الرجل كان يعامل أبي معاملة طيبة نظرا لإخلاص أبي له ، فكان كل ليلة خميس يمنحه مكافأة مجانية ، هذه المكافأة لم تكن إلا أسماكا .

وجاء يوم لا أنساه ، إن ما يتعلق بذهن الصغار لا يزول بسهولة ، عاد أبي من العمل متأخرا ، وكنتُ نائما وأحسستُ بقبلة باردة على جبيني وأنا نائم فتيقظتُ لكنني اصطنعتُ النعاس ، وسمعتُ ما دار بين أبي وأمي :
- اخرجي ما في الكيس يا نادية .
قامتْ أمي بإخراج سمكة هائلة الحجم اعتقدتُ وقتها أنها تزن خمسة كيلوجرامات ، واعتقدتْ أمي إن هذا نصيب أبي هذا الأسبوع ، لكنها تعجبتْ حينما عرفتْ أن السمكة بطنها مشقوق ، فقال أبي ليزيل عنها تعجبها :
- السمكة دى من نصيبي ... قدمها لي المعلم رجب اليوم مكافأة ... وبالصدفة شقيت بطنها ولقيت دى .
هنا فتحتُ عينيّ دون أن يراني أحدهما فرأيتُ جوهرة لامعة متوسطة الحجم غريبة الشكل ، وحين رأتها أمي قالتْ :
- يالهوى ... اوعي تكون سرقتها .
أجاب أبي مسرعا في ضحكة قصيرة :
- دى من نصيبي ومن رزقي .
قالتْ أمي في انبهار وهى تتأمل تلك الجوهرة :
- وهتعمل ايه ؟
أجاب أبي مبتسما :
- ودا سؤال برضه يا نادية ... بكرة هوريها للخواجة (يوجين) ... هو الوحيد اللي هيعرف يقدر تمنها .

في صباح اليوم التالي اصطحبني أبي إلى صرافة الخواجة يوجين ، كان رجلا أبيضا أحمرا كأنه مُصاب بضربة شمس ، له شعر أبيض متناثر ، حملق الرجل في الجوهرة وقال بلهجة عربية محطمة :
- إزاي لقيت القرط ده يا راجل ؟!
قالها وهو يقلب الجوهرة بين كفيه بعينين لامعتين ذائغتين ، أجاب أبي بعد أن جذبها منه :
- دا مش شغلك يا خواجة ...أنا عاوز اتمنها .

قال الخواجة في شك :
ـ دا اسمه قرط شانيير (Charniéres) معروف عندنا في اليونان ... من الذهب الخالص عيار 18 و...
ثم صمتَ قليلا كأنه يتذكر شيئا وقال :
ـ والذهب مرصّع بحجر ماس قطع باغيت ... عليه روديوم أسود .
قال أبي متلاحق الأنفاس في فخر :
ـ أنا مفهمش روديوم أسود ولا أبيض ...أنا عاوز أعرف تمنه كام ؟ ...وابيعه فين ؟
قال الرجل بعد تفكير :
ـ دا قرط نادر من أشهر ماركات المجوهرات اليونانية ... بس لو عاوز تبيعه يبقى ليا الحلاوة .
قال أبي وقد أشرق وجهه :
ـ أكيد ... أكيد يا خواجه .
قال الخواجة وهو يدوّن شيئا في ورقة :
ـ دا عنوان الخواجة (اركون) ... فى القاهرة ...قوله انك من طرفي ... هو مهووس بالماركات دى وهيشتريه منك .
قال أبي وهو يقبض على يدي ويهمُّ بالانصراف :
ـ طيب يجيب كام ؟
أجاب الخواجة بعد أن ضَيَقَ عينيه :
ـ مش أقل من 2 مليون جنيه .
حينما أولاه أبي ظهره منصرفا سمعتُ الخواجة يقول :
ـ متنساش الحلاوة .

خلال أسبوع كنا في القاهرة ، استأجر أبي الشقة التي نسكن فيها الآن ، لم أكن منبهرا بالعيش في تلك الحارة الشعبية بعدما أعتدتُ حياة البحر والشاطئ ، وبعد شهر من انتقالنا إلي القاهرة اختفى أبي ، خرج ولم يعد ، كنتُ صغيرا وظننتُ أنه في سفر ، وكنتُ كلما سألتُ أمي كان تجيب عليّ بدموعها ، وحينما تكرر سؤالي بإلحاح أخبرتني أنه غادر مصر للعمل ، علمتُ بعد ذلك أن أمي أبلغتْ الشرطة وبحثتْ عنه في المستشفيات وأقسام الشرطة دون جدوى ، كنتُ أبكي كلّما تذكرته وأرى ذكرياتي معه من خلال دموعي ، أراني وأنا أحمل له الطعام ثم أركب معه على ظهر القارب وأرتب له شبكة الصيد وأصنع له الشاي ، كنتُ أفعل ذلك بمهارة وبلذة ، كان أبي كل شيء في حياتي ، كان يحبني ، لذلك لم أصدق يوما قصة

اختفائه هذه ، كنتُ أشاركه أوقاته في العمل طوال الإجازة الصيفية ، وحينما كان يلم الشبكة ولا يجد أسماكا لم يكن ليغضب ، كان يدعو الله طالبا الرزق ثم ينشد الأغنية التي أحفظها عن ظهر قلب :

ــ صيادين والرزق كتير صيادين ...صيادين
ــ صيادين والرب كبير صيادين ...صيادين
ــ بنحبوك يا ساكن بحري صيادين .. صيادين

كنت أحب هذه الأغنية لما فيها من إيقاع جميل وكلمات تدعو إلى طلب الرزق والاعتزاز بمهنة صيد الأسماك ، درستُ في الثانوية العامة وحفظتُ القران على يد الشيخ (عبد الحميد) أحد مشايخ الأزهر الذي علّمني كثيرا في الفقه والتفسير وقربني منه ، فلازمته فترة طويلة وتعلمتُ منه كيفَ أداوى السحر والمس بالقرآن الكريم والرقية الشرعية ، وكان الرجل عفيفا ، فلم أره يتقاضى مليما نظير ما يقوم به من فعل الخير ، ونصحني أن التحق بالقسم العلمي نظرا لتفوقي وتخرجتُ في كلية الهندسة ، وحينما لم أجد عملا في مجال هندسة القوى الميكانيكية أراد الشيخ عبد الحميد أن يخفف عني حزني ، فوعدني أن يتحدث مع أحد علماء مشيخة الأزهر، لكن تخصصي وقف حائلا أمام التحاقي بوظيفة في الأزهر الشريف ، لم يفقد الشيخ عبد الحميد الأمل ، واقتنص فرصة حاجة وزارة الأوقاف لعمَال مساجد وقدمتُ بمؤهل الثانوية العامة وتم قبولي ، ثم استكملتُ دارستي انتسابا في الأزهر ورُقيتُ إلى مقيم شعائر ، وفى نفس الوقت لم أنسَ الهندسة ، فبدأتُ أمارس هوايتى وافتتحتُ محلا برأس مال قليل وسرعان ما ذاع صيتي في مجال ميكانيكا السيارات ، واشتريت المحل بعد أن كان إيجارا ، واشتريت البيت الذي أسكن فيه ، كل هذه الأحداث وكل هذه السنوات ولم يغب عني والدي لحظة واحدة ، كنتُ أراه في أحلامي في حالة جيدة إلا أن عينيه كانتْا حائرتين تودان قول شيء ما ، كنتُ متيقنا أنه يريد أن يخبرني شيئا .

في المساء كنتُ أحتسى الشاى مع عادل بيه صديقي وزميل الدراسة القديم ، قلتُ بينما هو يشاهد مباراة كرة قدم :

ـ سيبك من الماتش وركز معايا يا عادل ... قولى ابدأ منين .

قال في تململ :

ـ كون انك بتشوف أبوك فى أحلامك ... وكون إن مراتك قصدي خطيبتك قصدى مراتك اللى هى خطيبتك بتشوفه في أحلامها ...دا كله مش دليل إن أبوك مات ...ومات مقتول كمان زى ما بتقول .
قلتُ وأنا أرشف الشاي :
ـ بس مراتى شافت الشخص اللى بيقتل أبويا .
قال في انبهار رافعا صوته :
ـ حلو أوى ... شافته فين بقا ؟
أجبتُ مسرعا :
ـ في التليفزيون .
قال في لا مبالاة :
ـ غريبة يا زوز ... مع إن التليفزيون بيذيع الماتش دلوقتي .
قلتُ في جدية :
ـ يعني هي مصلحتها إيه إنها تكذب .
أجاب في ثقة :
ـ وأنا استحالة أصدق الكلام الفارغ ده ... يعني إيه الإرسال يقطع ويظهر أبوك على الشاشة بالأبيض والأسود والارسال يرجع تاني ... دا اتحاد الإذاعة والتليفزيون متعرفش تعمل الفانتازيا دى .

قلتُ وأنا أغلق جهاز التليفزيون حتي أغيظه :
ـ الكلام ده تقوله وانت ظابط شرطة ... لكن دلوقتي انت صاحبي .
قال وهو يشعل سيجارة :
ـ اه ... هترجع تاني تذلني بلتر الدم اللى تبرعتلي بيه .

قلتُ في غيظ :
ـ يا عادل انت ليك صلاحيات تدوّر وتعمل تحرياتك ...اتصرف بقا .

قال بعد لحظات صمت :
ـ طيب اسمع ... طالما مراتك قصدى خطيبتك ... يا عم هى مراتك ولا خطيبتك ولا طليقتك لخبطتني .

قاطعته في نفاذ صبر :
ـ خالتي ... خالتي يا عادل ...انجز بقا .

قال :
ـ طالما خالتك شافته في التليفزيون وأحلامها كذا مرة خليها ترسمه ... وأنا هقارن الصورة المرسومة بكل صور مجرمين الجنايات ... وربنا يستر بقا ... علشان حاسس إن فصلى من الشغل هيكون على أيدك وعلى أيد خالتك .
قلتُ وأنا أنصرف محاولا إغاظته :
ـ خطيبتى يا عادل ... خطيبتيى .

في اليوم التالي كانتْ نورا قد تحسنتْ تماما واستعادتْ نضارتها وابتسامتها ، واصطحبتها إلى شقة زوجة أبيها التي كانتْ قد عادتْ ، واستقبلتنا السيدة استقبالا جافا ، ثم طلبتُ منها عقد بيع الشقة وقمتُ بتصويره بهاتفي ،
وجمعتْ نورا ملابسها وأغراضها وكتبها وقبل أن نغادر عرفتُ من سعاد أنها ستبيع الشقة ، وسألتني إن كنتُ أعرف أحدا يريد شرائها ،
ثم انصرفنا .

في نفس الليلة جلستُ مع نورا وقلتُ :
ـ عاوزك بقا تركزى وترسمى الراجل اللى بتشوفيه بيقتل أبويا .
قالتْ في عجب :
ـ أرسمه ... ارسمه إزاي يعنى ؟... أنا مبعرفش أرسم أصلاً .
قلتُ في رقة :
ـ انتي بتقولى انك شفتى المشهد ده كتير ... يبقى تعصرى دماغك بقا وترسمى الرجل بملامحه بهدومه بنظرته بالشر اللي فى عنيه .
أومأتْ برأسها موافقة ، فتركتها وبجوارها مجموعة أوراق بيضاء فارغة وأقلاما ، ثم انصرفتُ .

عدتُ من الخارج بعد الساعة الحادية عشرة ، طرقتُ باب غرفتها وولجتُ حينما سمعتها تأذن بالدخول :
ـ ها .... رسمتيه ؟
أجابتْ في فتور :
ـ بصراحة كل مرة أرسمه أحس إنه مش هو ...وبقطع الورقة .
قلتُ في لين :
ـ مش مشكلة ... خدى وقتك ... استريحى انهارده وكمّلى بكرة .
وقبل أن أنصرف سمعتها تقول :
ـ انت رايح فين ؟

أجبتُ :
ـ هشوف أمي لو محتاجة حاجة... وهنزل أبات في المحل .
قالتْ في خجل بعد أن بدا الارتباك على ملامحها :
ـ لا ...بات هنا .
لم أصدق ما أسمعه من الفرحة واقتربتُ منها دون وعي وقبل أن أقبل جبهتها تراجعتُ في اللحظة الأخيرة حرصا على راحتها ، وتذكرتُ وعدى لها حينما أخبرتها بأنني لن أفعل شيئا يرفضه قلبها ، فلربما هي طلبتْ مني المبيت هنا من باب الجدعنة وليس من باب الحب .

مرتْ ثلاثة أيام كنتُ حريصا فيها على راحة نورا ، كنتُ أحكي لها عن نفسي ثم ألقي بعبارة غزل غير مباشرة وأنصرف ، وفى تلك الأيام لم تفلح في رسم صورة الرجل ، فكنتُ أشجعها وأطلب منها معاودة الرسم ، حتي جاء مساء اليوم الرابع ، كنتُ عائدا من الخارج فرأيتها تجلس في الصالة مع أمي ، وما إن رأتني حتى هرعتْ إلى غرفتها وجاءتْ لي بالصورة المرسومة في خجل وفرح طفلة صغيرة ، نظرتُ إلى الصورة فرأيتُ رجلا ممتلئ الجسم له شارب عريض يتردي جلبابا ، جذبتُ منها الصورة وأنا أقول :
ـ متأكدة يا نورا ؟
أجابت :
ـ أيوه متأكدة طبعا .
لم أبدل ملابسي واتجهتُ مسرعا إلى عادل ، وحينما رآني قال ساخرا كعادته :
ـ ايه ... مرات خالك شافت المشهد بالألوان المرة دى ولا إيه ؟
قلتُ :
ـ عارف لولا إني متعود على غلاستك كنت اديتك بالبوكس فى وشك .
قال وهو يغلق باب الشقة :
ـ وعلى إيه ؟... الطيب أحسن ...ادخل عبال ما أعملك قهوة .
قلتُ مسرعا :
ـ لا قهوة ولا كافتيريا .
ثم وضعتُ الصورة المرسومة تحت أنفه ، فتأملها طويلا طويلا حتى ظننتُ انه أصيب بالعته ، فقلتُ من فوري :
ـ إيه ؟ ... بتشبه علي حد من المجرمين ؟
قال في ذهول :

ـ انت أكيد عايز تفصلني من الشغل .
قلتُ بعدما ظننته يسخر كعادته :
ـ هى الصورة مش شبه حد من المجرمين ولا ايه ؟
أجاب في نفس الذهول وهو يتأمل الصورة :
ـ مجرمين إيه الله يخرب بيتك .
قلتُ متعجبا :
ـ ايه ؟... فيه ايه ؟
قال وهو يشير إلى جلباب الرجل المرسوم :
ـ عارف لو الراجل ده لبس بدله بدل الجلابيه هيطلع مين ؟
قلتُ في غباء :
ـ هيطلع مين ؟
أجاب :
ـ عبد المجيد بيه شاهين

الفصل السادس عشر

(نورا قاسم)

عاد معتز من الخارج ، فأسرعتُ نحوه بالورقة المرسومة ، فتلألأ وجهه كأنه عثر على كنز ، وسألني في لهفة إذا ما كنتُ متأكدة من أن الذي رسمته هو نفس الرجل الذي رأيته يقتل والده ، فأجبته موافقة ، ومن فوره دون أن يبدّل ملابسه أو يستريح غادر الشقة ، ففهمتُ أنه ذاهب إلى صديقه عادل ، وبعد مغادرته بقليل حضرتْ مكة لتطمأن على حالتي ، فاستأذنتُ من والدة معتز ودلفنا إلى غرفتي وقالتْ مكة :
ـ ها ... عامله إيه دلوقتي ؟
أجبتُ :
ـ الحمد لله كويسة .
قالتْ هى تغمز بإحدى عينيها :
ـ يعني أقول مبروك ؟
كنتُ غير متوقعة أن تسألني هذا السؤال لكنني أجبت مسرعة :
ـ لا طبعا .
قالتْ في تنهيده :
ـ ليه تاني ؟... الراجل قايد ليكى صوابعه شمع ... أنا ملاحظه كده.
قلتُ في شرود وأسي :

ـ عارفه يا مكة ... معتز واحد محترم أوى وأخلاقه عاليه أوى... ومنكرش إن اللى هتتجوزه هتبقي محظوظة بالحب والعطف... بس المشكلة إني بحس مع حسام إحساس تاني خالص .

قالتْ في غيظ وضجر :

ـ هو انتى لازم تخسرى كل حاجة علشان تتعلمي الدرس ... لازم تحطى ايدك في النار علشان تتعلمي ان النار بتلسع ... تملي قلبك بالأوهام والحرام وعاوزه الحلال يدخل إزاي ... فرّغي قلبك من الحرام علشان الحلال يدخل ... استحالة يجتمعوا مع بعض .

ثم صمتتْ حينما رأتْ بوادر دموع في عينيّ

فقالتْ في لهجة رقيقة واعتذار :

ـ أنا اسفة يا نورا ... يظهر إني تعصبت شوية ... بس يا ولية افهمي ... أنا مش ضد مشاعرك وأحاسيسك الجميلة دى بالعكس ... دى حاجة كويسة انك تحبي وتطلعي المشاعر دى كلها ... بس طلعيها فى الطريق الصح ... عارفه لو حسام جه وطلب ايدك ... كنت أول واحدة هفرحلك وهشجعك ... بس حسام ده واحد مدلل يحب يشترى كل حاجة بفلوسه ... يحب يمتلك كل حاجة ومش مهم بقا في الحلال ولا الحرام ... وكان مفكر انه ممكن يتشريكي بالهدايا والفلوس ... ولولا ربنا نجاكي كان زمانك بتبوسى رجله دلوقتي علشان يجوزك زى ما ......

ثم صمتتْ ولم تُكمل كأنها استدركتْ شيئا أو كأنها تريد أن تخفي عنّي أمرا ، فقلتُ في شرود :

ـ بس حاسه انه بيحبني .

قالتْ وهي تتميز غيظا :

ـ لا يا ختي مش بيحبك ...والنوع ده مش بتاع حب ولا جواز ... وبصي من الاخر كده علشان انتي من النوع اللى لازم يتصدم علشان يفوق ... اللى حسام كان عايز يعمله معاكي عمله مع شيرين .

انتفضتُ في ذعر وأنا غير مستوعبة ما تقول ، وقلتُ في توتر :

ـ إزاي يعني ؟

أجابتْ في نفاذ صبر :

ـ شيرين حامل يا هانم ... ها ... حلوة اللسعة دى ولا لسه مش ناوية تفوقي .

قلتُ في ذهول وعدم استيعاب :

ـ حامل ؟!... إزاي.....عرفتي إزاي ؟

أجابت :
ـ أنا مشتركة فى معسكر الكلية الصيفي ... وكل البنات بيتكلموا عن الموضوع ده ... وشفت شيرين مرة واحدة بس فى المعسكر ... بقيت واحدة تانية ... غير شيرين اللى تعرفيها ... العيون الخضرا بقيت دبلانة والوش الأشقر اللى كان مليان حيوية بقي حزين وتايه ... نفسيتها اللى كانتْ شامخة ومتكبرة بقيت ضايعة منكسرة ... شفتي بقا البنت لما تخسر الحاجة دى بتبقى ايه ... بتخسر نفسها ... حتى لو كانتْ شيرين بنت الذوات .... يعني فلوسها وبرستيجها وفلوس أبوها مش هيعوضوها عن الحاجة دى ... لان فيه حاجات أغلى بكتير من الفلوس .
قلتُ في غباء وجهل وعبط :
ـ وهو كده مش هيجوزها بعد اللى عمله ؟
قالتْ وهي تتحس كتفها الأيمن :
ـ متعرفيش علامة الشلل الرباعى بتبدأ من هنا ولا من الكتف الشمال .
ابتسمتُ ابتسامة شاحبة وسمعتها تُكمل :
ـ ياستى هنعتبر انه هيجوزها ... هتفضل طول عمرها في نظرة واحدة رخيصة فرّطت فى نفسها ... حياتهم هتكون كلها شك ونكد ومشاكل ... ومش هي دى الطريقة اللى نبني بيها بيوتنا .

هنا تذكرتُ حياة أمي مع أبي ، أمي سلّمتْ نفسها له باسم الحب ، فحملتْ في أحشائها جنينا ، وأراد أبي التخلي عنها والهرب ، ورغم انه تزوجها لكنه لم يكن زواجا سعيدا ، كان زواجا مليئا بالشك والنكد والمشاكل ، زواجا نتج عنه مخلوقا مشوها مهزوزا فاقد الثقة مشتت الذهن ، هذا المخلوق هو أنا ، قلتُ ودموعي تسقط :
ـ مكة ... إزاي أعرف إني كرهت حسام ؟
أجابتْ في تلطف :
ـ لما تفتكريه أو تسمعي اسمه من غير ما قلبك يدق دقات الولع والهيام ... ساعتها اعرفي انك نستيه .

مرّ شهر كامل وأنا أعيش مع معتز ووالدته ، كانتْ من أجمل فترات حياتي ، لم ينقصني فيها إلا عم حسين ، فكم تمنيتُ أن يعيش بالقاهرة معنا ، لأول مرة في حياتي أشعر بهذا الدفء الأسرى والصحبة الآدمية ونس النهار ، فكان معتز يتفنن في إرضائي ، كما حَرص أن يظل طوال النهار خارج الشقة ، حتى أظل في كامل حريتي ، وقد أعتدتُ تلك الحياة وأحببتها ، ففي

كل صباح كان معتز يُعد الفطور لي ولوالدته ، ثم ييقظنا ، فنتاول إفطارنا ، ثم ينزل إلى المحل ويتركني مع والدته التي سمحت لي بعد محاولات وإصرار دائم أن أساعدها في أعمال البيت والمطبخ ، وبعد الظهيرة يصعد حسام ليتناول معنا الغداء ويطمأن علينا ، ثم يعود للعمل ، ليعود آخر المساء وحينما علم أنني أحب نوعا معينا من الشيكولاته حرص أشد الحرص أن يحضره كل ليلة وهو عائد من المحل ، كنا نتناول العشاء ، ثم نحكي ونثرثر ونتبادل أطراف الحديث في أمور شتى ثم يذهب للنوم ، هكذا مرت الأيام تتخللها زيارات مكة ووالدتها بشكل شبه أسبوعي حتى بدأت الدراسة .

بدأ العام الدراسي الجديد وكنتُ في ضيق لأن عم حسين لم يحضر لي بالمال ، فأنا مقبلة على دفع تكاليف الكتب الدراسة وتجديد الكارنيه ، وفى حاجة للأموال اللازمة للمواصلاًت اليومية .
ذهبتُ إلى الجامعة في أول يوم من العام الجامعي الثاني ، ولم يكن معي سوي ثلاث عشرة جنيها ، وبدأتُ أحسب ، ست جنيهات ذهابا إلى محطة الزهور ، ثم أسير على الأقدام حتى الجامعة وأعود بنفس الطريقة ، إذن ستة جنيهات إضافية ، النتيجة : يتبقي معي جنيها واحد ، لا بأس .
سأذهب إلى الجامعة وسأنتظر مجيء عم حسين بالمال ، وان تأخر سوف أبيع الهاتف المحمول الذي أهداني إياه حسام من قبل ، وحينما ذهبتُ إلى الجامعة وسألتُ عن أسعار الكتب الدراسية في المكتبات ، وجدت انه تم حجز جميع الكتب الدراسية ، هنا علمتُ أن معتز هو الذي فعل ذلك ، نعم تأكدتُ من ذلك ، لأنني حينما عدتُ آخر اليوم وجدته يمدّ لي يده بمبلغ كبير من المال ثم قال لي :
ـ أنا حجزتلك كل الكتب الدراسية ، ودى فلوس علشان تطلعي الكارنيه وعلشان الموصلات وتشترى هدوم جديدة ... وفي أي وقت تحتاجي فيه فلوس اوعى تتردى .
ـ لا لا ... أنا معايا فلوس أصلاً... وفلوس كتير كمان .
هكذا قلتُ كاذبة ، لكنه ابتسم وهو يضع المال في يدي ويقول :
ـ لا لا عيب لمّا الست تقول لجوزها لا .
كان الخجل باديا على وجنتيّ ورعشة أناملي ، لكنني تشجعتُ وقلتُ :
ـ مش هينفع أصلاً ... كفاية إني قاعدة معاكم هنا و....
لم يمهلني أن أكمل لأنه وضع إصبعه على شفتي معترضا على ما أقول ثم قال :

ـ ايه الكلام ده ؟.... دا أنا اللى خايف أكون مقصر معاكى فى حاجة ... انتي هنا فى بيت جوزك .. يعني بيتك ... يعني أنا اللى ساكن عندك انتي وأمي ... يعني انتو اللاتنين تقدروا تطردوني ... بس أكيد مش ههون عليكى ... قصدي عليكم .

فابتسمتُ وكانتْ ابتسامتي مؤشرا على قبولي المال ، وحينما خلوتُ بنفسي في الغرفة وجدتُ بين يدي سبعة ألاف جنيها .

ـ ايه ده كل دي فلوس ؟!... لا كده كتير أوى أصلاً .

كانتْ هي المرة الأولي التي أملك فيها مثل هذا المبلغ لدرجة أنني أخطأتُ في العد أكثر من مرة .

في الصباح سمعتُ مَنْ يطرق باب غرفتي ، ولمّا طالتْ الطرقات علمتُ أنه معتز وينتظر السماح بالدخول ، فوضعتُ الحجاب على رأسي وقلتُ :

ـ تفضل .

دلف إلى الحجرة مبتسما وهو يقول :

ـ اصحى بقا ياكسلان ولا مش رايحه الجامعة النهارده ؟

أجبتُ في خجل :

ـ رايحه .

فقال :

ـ طيب يلا ... زى الشاطرة كده تقومي تصلي وعبال ما تلبسي أكون جهزت الفطار وصحّيت أمي .

وقبل أن ينصرف تذكرتُ المال فقلتُ مسرعة :

ـ استنى .

نظر نحوي منتظر ما سأقوله ، فقلتُ وأنا أخرج المال من تحت وسادتي :

ـ الفلوس دى كتير ... وأنا مش هحتاج كل ده أصلاً .

قال متعجبا :

ـ كتير ايه ؟... دا أنا نفسي أجيب القمر واحطه بين ايديكي .

قلتُ في حرج :

ـ أنا مش هحتاج الا تمن الكارنيه بس ... هعمل ايه بكل الفلوس دى ؟

أجاب :

ـ ما أنا قلتلك تجيبي هدوم ... حبيتي تشترى لنفسك حاجة ... وبعدين انتي بتتأخري في الجامعة ... يعني علشان لو حبيتي تشربي حاجة ... تاكلي حاجة .

هممتُ أن أقول شيئا فسمعته يقول :

ـ متتكلميش تاني بقا ويلا كده هتتاخري على الجامعة .

بعد ثلاثة أيام وبينما أنا في المحاضرة أستمع لأستاذ المادة ، رأيتُ فجأة شيرين ، وكانتْ هي المرة الأولى التي أراها فيها منذ امتحأنات العام السابق ، لم أعرفها إلا حينما دققتُ النظر ، هل هذه هي شيرين حقا ؟!
لماذا هي شاحبة ذابلة ؟
وأين ابتسامتها وشبابها وروحها المرحة المنطلقة ؟
ولماذا ترتدي مثل هذا الثوب الواسع الفضفاض المحتشم ؟ وكأنها تريد أن تخفي شيئا ما بداخل هذا الثوب ، وتذكرتُ ما قالتْه لي مكة من قبل :
ـ شيرين حامل يا هانم .

انتهتْ المحاضرة ، ونظرتُ في ساعتي لأعرف موعد المحاضرة التالية :
ـ لسه هستنى ساعة ... إيه الممل ده ؟!
كنتُ أنتظر موعد انتهاء المحاضرات حتى أسرع إلي البيت ، وتذكرتُ عامي الأول في الجامعة عندما كنتُ أهرب من بيت زوجة أبي إلى الجامعة ، سبحان مغير الأحوال !
أنا الان أهرب من الجامعة لأعود الى البيت .
وبينما أنا شاردة في تلك الخواطر سمعتُ مَنْ يقول لي :
ـ ازيك يا آنسة نورا ؟
حينما رأيته ارتبكتُ قليلا ثم قلتُ :
ـ الحمد لله ... كويسة ... ازيك يا أستاذ شريف ؟
في الحقيقة كنتُ أود أن أسأله عن أشياء كثيرة ، لماذا ترك حسام الجامعة ؟ لماذا انتقل إلى جامعة عين شمس ؟ وهل تزوج من شيرين ؟
وأزال عنّي شريف عبء هذا الحرج حينما قال :
ـ كنتي فين طول الصيف ؟ محدش شافك في المعسكر ولا الرحلة ؟
أجبت كاذبة :
ـ كنت مسافرة .
قال في مكر :
ـ يعني متعرفيش اللى حصل ؟
قلتُ :
ـ لا معرفش ... هو حصل إيه ؟
قال وهو ينقل كتابا من يده اليمني إلى اليسرى :
ـ تعالى نقعد على الكافتيرا علشان احكيلك .
كدتُ أن أوافق لأنني أريد أن أعرف ، لكنني رفضتُ حينما تذكرتُ معتز :

ـ يعني الراجل مديني فلوس مكنتش أحلم بيها ومش مقصر معايا فى حاجة وبيخدمني بعنيه ... وأنا أقعد مع ولد على الكافتيرا .... المفروض أخلي عندي شوية دم أحافظ على ثقته دى حتى لو مش هتجوزه.
ـ بس أنا هقعد معاه علشان أعرف إيه اللي حصل ... مفهاش حاجة .
ـ لا يا نورا ... انتي على ذمته وحرام اللى بتعمليه ده .
حينما طال شرودي قال شريف :
ـ مالك يا آنسة نورا ؟
انتبهتُ وقلتُ :
ـ بص أنا أصلاً مستعجلة ... معنديش وقت أقعد على الكافتيريا ... بس لو فيه حاجة مهمة قولها هنا .
قال بعدما أشار لي وانتحي بي جانبا بعيدا عن ازدحام المارة :
ـ الموضوع ياستي إن شيرين غلطت مع حسام .
ثم نظر شاردا وبرقتْ عيناه وأكمل :
ـ تخيلي ... شيرين اللى كنت بحبها ومستني اليوم اللي اتخرج فيه علشان اخطبها تعمل كده ومع مين ؟
قلتُ في غيظ :
ـ تحبها ايه ؟... انت مكنتش شايف هى كانتْ بتحب حسام إزاي ؟
أجاب :
ـ كنت شايف كل حاجة... ولمّا كنت بسألها كانتْ بتقولى صداقة .
ثم ضحك ضحكة قصيرة ساخرة في مرارة وأكمل :
ـ صداقة .... هي فهمتني كده ... وأنا كنت مغفل ... أيوه كنت مغفل علشان صدقتها .... بس هي فعلا كانتْ بتحبه ... وكتير كنت بسأل حسام ... كان بيقولي انه مش بيحبها ... وفعلا مكنش بيحبها .
قلتُ وقد راق لي الحدث :
ـ مش جايز كان بيحبها وكان بيكذب عليك :
قال ومازال في شرود :
ـ ما أنا تأكدت خلاص انه مش بيحبها .
قلتُ متلهفة :
ـ اتاكدت إزاي بقا ؟
أجاب :
ـ استحالة واحد يحب واحدة ويعمل معاها اللى عمله حسام مع شيرين .

وكأنه بكلماته هذه قد ضغط على جرح قديم في قلبي ، فارتبكتُ وشعرتُ كما يشعر من يتعرقل في قدمه المصابة ، ثم سمعته يقول وهو ينظر إليّ في تركيز :
ـ عارفه ... أنا مش زعلان ... هى تستاهل ...اهي بتجري وراه زى الكلب علشان يقبل بس انه يجوزها .
ابتلعتُ ريقي وشعرتُ بخدر يجرى في قدميّ ، وتخيلتُ أن هذا سيكون مصيري مع حسام لولا عناية الله في تلك الليلة ،
ولا أعرف لماذا شعرت الآن بشوق جارف نحو معتز ،
حاولتُ جمع شتات أعصابي وقلتُ بصوت جاهدتُ كي يخرج متزنا :
ـ طيب وده جزاؤها إنها حبته ؟
أجاب :
ـ لا طبعا ... بس دا جزاء إنها رخيصة ... ما انتي كمان حبيتي حسام بس مطلش منك حاجة لانك محترمة وعرفتي تحافظى على نفسك .
قلتُ مسرعة في عصبية :
ـ لو سمحت أنا محبتش حد ... وأنا....وأنا....أه أنا حاليا مخطوبة ... وبحب خطيبي أوى وهو بيموت فيا ... ولو يعرف إني تكلمت معاك أصلاً هيموتني .
قال في أسف :
ـ أنا آسف ... مقصدش حاجة ... أنا بس ما صدقت لقيت حد افضفضله ... خاصة انى بعدت عن الشلة ومبقتش أطيق أشوف حد منهم ...لا حسام ولا شيرين ولا محمد .
شعرتُ بالشفقة وأحسستُ بصدقه ، فقلتُ محاولة أن أخفف :
ـ انت بس خلي بالك من دراستك وهتتخرج وتلاقي بنت الحلال اللى تقدر حبك .
قال :
ـ شكرا .
قلتُ سائلة :
ـ وشيرين هتعمل إيه ؟
أجاب :
ـ والد شيرين هدد حسام انه هيرفع قضية يتهمه فيها باغتصاب بنته ... بس والد حسام بيحاول يسكتهم بالفلوس والعربيات علشان خايف على سمعته في السوق .

بعد ثلاثة أيام دلف معتز الغرفة ثم جلس مبتسما وقال :
ـ مفاجأة .
قلتُ :
ـ إيه ؟
لم يتكلم بل أخرج من جيب بنطاله ورقة طويلة عريضة ووضعها أمام عيني فأخذت أقرأ ، كان عقد شراء شقة زوجة أبي ، قلتُ مندهشة :
ـ دا العقد باسمك .
قال ومازال يبتسم :
ـ اشتريتها من مرات أبوكى .
ثم نظر ساهما كأنه ينظر للفراغ وقال :
ـ بس مش دا المهم ... المهم إن الراجل اللي كان بيجيبلكم سمك أكيد هيظهر تاني .
قلتُ في عدم فهم :
ـ ودا ايه دخله بالموضوع ؟
أجاب بعد أن زفر زفرة طويلة :
ـ هو ده الخيط اللى هيوصلنا بالقاتل .
ثم نظر نحوي في عطف وأكمل :
ـ أنا وعادل رتبنا كل حاجة .

بعد يومين كنتُ مع مكة والشيخ عبد الحميد في الشقة الجديدة ، شقة زوجة أبي التي صارتْ شقة معتز ، كانتْ فارغة من أي أثاث ، وقفنا في الصالة ، بينما تجول الشيخ عبد الحميد الشقة وهو يتمتم بآيات الله وهو يضع يده تارة على أحد الجدران ، وتارة أخرى على حواف نوافذ المطبخ وحجرة النوم الكبيرة ، حينما انتهى من عمله قال :
ـ يا معتز أنا شايف إن الأمور طبيعية ... بس علشان أتاكد أكتر لازم تجيب تليفزيون وتحطه في الصالة .
قال معتز مستفسرا :
ـ ليه ؟
أجاب الشيخ :
ـ لازم حد فينا يشوف المشهد.. ونعرف ابوك هيقول ايه بعد اللى حصل .
قلتُ في خوف :
ـ إزاي يعني ؟
أجاب :

ـ كل واحد فينا هيبات لوحده هنا 3 أيام ... ولو مظهرش المشهد على التليفزيون أو محصلتش حاجة غريبة في المطبخ ... هنركز على الأيام المرتبطة بالارقام .

قال معتز :

ـ أرقام ؟

أجاب الشيخ :

ـ اه ... مثلا الليلة القمرية ... مثلا يوم 7 فى الشهر الهجرى أو يوم 13

ثم أكمل وهو يضع يده على كتف معتز :

ـ الأيام دى بيكون لها ارتباط بظهور الأرواح المعذبة اللى بتدور على الراحة .

خلال أيام قليلة كان معتز قد أحضر جهاز تليفزيون ووضعه على منضدة في الصالة ، كما أحضر بعض المقاعد ، وسرير في حجرة النوم الكبيرة وبعض مستلزمات المطبخ ، وبدأنا في تنفيذ الخطة ، مكث الشيخ لمدة ثلاثة أيام ولم يظهر له شيئا ، ومكث معتز ثلاثة أيام بلا جديد ، وحينما جاء دوري أصرّ معتز أن تبيت معي والدته حتى لا يصيبني مكروها إذا ما جدّ جديد ، مرتْ ثلاثة أيام أخرى كنتُ أجلس في الصالة لبعد منتصف الليل أشاهد التليفزيون ، بينما تنام والدة معتز في حجرة النوم ، لكن لم يحدث شيئا ، وشعرتُ أن ما نقوم به مجرد سخافات ، حتى أخبرنا الشيخ عبد الحميد بعد فشل خطته أننا أخطأنا بشأن وضع التليفزيون على المنضدة ، كما أخبرنا أننا سنعيد نوبات المبيت من جديد ، لكن سنضع جهاز التليفزيون على العمود الخراساني المحاط بالطوب كما كان الأمر في وجود أبي وزوجته ، وبدأنا نعيد الخطة ، وعند نوبة مبيتي في الليلة الثانية انقطع الإرسال ورأيت نفس المشهد القديم ، كنتُ متوترة هذه المرة رغم إني اعتدتُ رؤية هذا المشهد مرات عديدة ، بينما أنا أشاهد المشهد كنتُ أضع اصبعي على زر الاتصال برقم معتز كما اتفقنا ، انتهى المشهد بنظرات والد معتز المتوسلة والدماء تسيل من جبهته هذه المرة ، لكنه لم يقل كلمته المعتادة (انقذيني) لكنه قال مبتسما :

ـ قربتوا أوى .

ثم انقطع الإرسال ، فعاد اسماعيل ياسين يحذر بكل عبط ريا وسكينة من وجود سيدتين قاتلتين بالإسكندرية ، فابتسمتُ من سذاجة الفنان اسماعيل يس ، ثم عدتُ لما أنا فيه ، وضغطتُ على زر الاتصال ، ولم تمض دقائق حتى حضر معتز ، وأيقظتُ والدته وحكيتُ لهما عما رأيته ، قال معتز :

- يبقى الشيخ عبد الحميد كان عنده حق .

بعد ثلاثة أيام وعند منتصف الليل جئنا الى الشقة من جديد ،
قال عادل بيه :
- يا معتز ... أنا من رأيى بلاش اللى ناوى تعمله ده ونستنى لمّا الراجل اللى بيبع سمك ده يظهر تاني .
قال معتز في إصرار :
- جايز ميظهرش تاني يا عادل .
قال الشيخ عبد الحميد موجها كلامه إلى عادل بيه :
- احنا مش هنخسر حاجة يا عادل يابنى .. سيب معتز يشوف شغله .

جلس عادل بيه على أحد المقاعد في عدم اقتناع ، وبدأتُ أراقب في فضول وخوف ما ينوي معتز فعله ، حمل معتز جهاز التليفزيون بين يديه فبدا العمود الخراساني المحاط بالطوب واضحا ، وأخرج معتز من حقيبة قماشية بجواره فأسا ومطرقة وجهاز (شنيور) ، وبدأ يحطم في هذا العمود ، كان تحطيمه صعبا للغاية ، لأنني رأيت العرق يبلل وجه معتز وقد برزتْ عضلات يديه وهو يهوى على العمود بالفأس ، ثم قام بتوصيل قابس الشنيور بالكهرباء ، وبدأ الشنيور يزمجر في إصرار ، كنتُ أنظر لما يحدث بعيون ذاهلة ، وعادل بيه ينفس دخان سجائره حتى إذا ما انتهتْ سيجارة أشعل الأخرى ، بينما الشيخ فم عبد الحميد لم يتوقف عن التمتمة ، وتحطم أعلى الجانب الأيمن من العمود ، فتشجع معتز وأخذ يتابع التكسير والتحطيم في إصرار ،
ثم ....
ثم بدتْ لنا فى ضوء مصباح الصالة جمجمة تلمع ، ، فشهقتُ ووضعتُ كلتا يديّ على عينيّ وأنا أحبس صراخي ، فترك معتز ما بيده وأسرع نحوي وأحاطني بذراعه ، وقادني غالى غرفة النوم وهو يقول في تلطف ورفق:
- متخفيش ...اقفلى عليكى الباب من جوه لحد ما نخلص .

الفصل السابع عشر
(معتز الصياد)

كان قلبي مضطربا وأنا أحطم العمود الخراساني المحاط بالطوب ، وحينما انهالتْ الناحية العليا من الجانب الأيمن أخذتني الحماسة ، فبدأت أتابع التكسير والتحطيم ، وفجأة ظهرتْ جمجمة لمعتْ في ضوء مصباح الصالة ، سمعتُ شهقة وشعرتُ بصرخة مكتومة ، فنظرتُ إلى نورا لأجدها مذعورة منهارة ، أسرعتُ نحوها وأدخلتها حجرة النوم وطلبتُ منها أن تغلق الباب وتستريح ، كنتُ أرفض مجيئها معنا من الأساس ، لكنها أصرّتْ فوافقتُ ، عدتُ للصالة وتابعتُ التكسير ، كان الشيخ عبد الحميد يبسمل ويحوقل دون توقف ، أمّا عادل فكان رابط الجأش لكنه مذهول مما يرى ، وبدتْ على وجهه علامات الاقتناع بكل ما كان يظنه وهما ، لم يمر وقت كثير حتى أصبح هذا الشيء كوم تراب ، وكان الهيكل العظمي يجلس القرفصاء باسطا ذراعيه للأمام وللأعلى قليلا ، هممتُ أن أضع يدي على الجمجمة ، فشعرتُ بمَنْ يقبض على يدي ويجرني للخلف ، قال عادل وهو يجرني للخلف :

ـ متلمسش حاجة يا مجنون .

جلستُ على الأرض والتصق ظهري بالحائط وأخذتُ أبكي ، كان بكاء مريرا متوأصلاً ، اقترب منّي عادل وهو يصرخ في وجهي :

ـ انت هتعمل زى الستات ولا ايه؟ ... ما توحد الله وتقول الله يرحمه .

قلتُ فى نحيب وأنا لا أكاد أراه من دموعي المنسكبة بلا توقف :
ـ أبويا مات مقتول يا عادل ...أبويا مات مقتول يا شيخ عبد الحميد .
قال الشيخ عبد الحميد وهو يربّتُ على كتفي :
ـ مش انت اللى تبكي كده يا معتز ... انت متعلم ومتنور ومؤمن بربنا .
قلتُ ومازالتْ دموعي تنهمر :
ـ كل ما كان إحساسي يقولى انه مات مقتول كنت بكذب إحساسي وأقول : لا ... هو سافر وطفش ... أيوه سافر بس مش متقتلش ... كنت بصدق إحساسي وبكذّبه فى نفس ... بصدّقه لأني حاسس بروح أبويا المتعذبة اللى بشوفها في أحلامي ... وبكذّبه لأني خايف من اللحظة اللي أشوفه فيها وهو كده .
كان عادل والشيخ عبد الحميد يتحدثان إليّ ، لكنني لم أسمع حرفا مما يقولان ، لأنني كنت بعقلي وبقلبي هناك ، هناك في الإسكندرية ، في الإسكندرية على ظهر قارب صيد ، على ظهر قارب صيد بجوار أبي وهو يقول :
ـ ارمي الشبكة ياد يا معتز ....
ـ ارميها كده يا عبيط ......
ـ تعالي نغني ياولا ...يلا قول ورايا يا معتز .
ــ صيادين والرزق كتير صيادين ...صيادين
ـ قول يا واد .
ــ صيادين والرب كبير صيادين ...صيادين
ــ بنحبوك يا ساكن بحري صيادين .. صيادين
ــ والرزق يجيلك مهما تروح صيادين ..صيادين

كنتُ لا أدري بنفسي وأنا أردد هذه الأغنية في الصالة ، وأري أمامي نورا دامعة وهى تمسح دموعي ، بينما يرتدى عادل غطاء يد بلاستيكي ويقول :
ـ معتز خد مراتك والشيخ عبد الحميد وروّحوا .
قال الشيخ عبد الحميد :
ـ مش هينفع نسيبك لوحدك هنا يا بني .
قال عادل في صرامة :
ـ يا عم عبد الحميد ... معتز أعصابه بايظه ...لازم يروّح يستريح .
قال الشيخ عبد الحميد :
ـ طيب أنا هوصلهم للشارع وارجعلك .
أومأ عادل برأسه موافقا ، فقال الشيخ عبد الحميد محدثا نورا :

ـ يلا يا بنتي ... قوميه .
ساعدتني نورا على النهوض وهبطنا الدرج ، سرنا في الحارة وظل الشيخ عبد الحميد يراقبنا حتى وصلنا للبيت .

كيفَ مرّتْ علي تلك الليلة ، يا لها من ليلة !
لم أتوقع أن أكون بهذا الضعف ، أنا الذي كنتُ أتوقع موت أبي ، صرتُ كخرقة بالية حينما صار التوقع حقيقة ، نعم اعتدتُ غيابه ، لكن ماذا أفعل في الأمل ، حينما يمرض شخصا عزيزا مرضا شديدا نتوقع موته ، لكنه توقع عابر كالوهم ، فحين يموت نبكي كأننا لم نتوقع ذلك أبدا ، كنتُ فيما سبق أتوقع موت أبي وأتوقع عودته أيضا ، لكنني اليوم أنا يتيم ، اليتم ليس مقصورا على الصغار الذين فقدوا أبائهم أو أمهاتهم ، حينما يموت الأب ستشعر بأنك يتيم ولو كنتَ في الستين من عمرك ، ماذا يعني فقدان الأب ؟ يعني أنك فقدت اليد التي كانتْ تفيض عليك الحب والعطف وان مُدتْ إليك ألف يد غيرها .
سهرتْ نورا بجواري حتى غبتُ في سُبات عميق ، وفى الصباح استيقظتُ في حالة جيدة وذهب روعي وهدأتْ نفسي ، لكني تعجبتُ حينما رأيتُ نورا جالسة على الأرض ناعسة وقد أسندتْ رأسها على حافة السرير ، أسرعتُ نحوها وأيقظتها فابتسمتْ حينما رأتني في حالة جيدة ، اعتذرتُ لها وعاتبتها على سهرها طوال تلك الليلة بجوار سريري .

بعد يومين هاتفني عادل وطلب منّي الحضور إلى مكتبه بعد ساعة ، كانتْ الساعة العاشرة صباحا ، توجهتُ إلى قسم الشرطة ، وفى حجرة المكتب قال عادل :
ـ أنا قلتُ اسيبك يومين تكون هديت وأكون أنا عملت المحضر وجبت تقرير التشريح .
لم أتكلم فقال :
ـ أنا آسف يا معتز .
قلتُ :
ـ ليه ؟
أجاب :
ـ كان لازم أصدق إحساسك وأهتم بالموضوع أكتر من كده .
قلتُ :
ـ ولا يهمك .

لم يتكلم ، ورأيته يضغط على زر على مكتبه وقال :
ـ يا مراد ... يا عسكري .
فدلف مراد وأدى التحية العسكرية :
ـ تمام يافندم ... الحاج سعيد بره من ساعتين .
قال عادل :
ـ سيبه كمان شويه خليه يستوي ... يلا اعملنا اتنين قهوة .
قال مراد :
ـ بس يا عادل بيه دى خامس مرة أعملك قهوة ودا خطر على صحتك .
قال عادل في تهكم :
ـ القهوة اللي بتعلها مش خطر على الصحة ...عارف ليه ؟... لأنك مش بتغلي البن يا مراد .
ابتسمتُ برغمي وسمعته يقول بطريقة مضحكة :
ـ ملكش دعوة بصحتي يا حنين وأغلي البن يا مراد ... أغليه يا مراد ... أبوس ايدك أغليه ..أغليه .
ـ حاضر يافندم والله هغليه حاضر حاضر هغليه .
حينما خرج مراد قلتُ :
ـ مين الحاج سعيد ده ؟
أجاب وهو يشعل سيجارة :
ـ دا يا سيدى صاحب البيت اللى لقينا فيه الجثة .
قلتُ :
ـ قصدك هو القاتل ؟
أجاب :
ـ لما بحقق في جناية قتل بقول جملة واحدة (كل الاحتمالات جايزة) .
قلتُ :
ـ بس أنا حاسس إن عبد المجيد شاهين له دخل بالموضوع .
قال في كياسة :
ـ برضه هقولك نفس الجملة (كل الاحتمالات جايزة) .
قلتُ :
ـ طيب ما تقبضوا عليه .
قال ضاحكا :
ـ هتفضل طول عمرك عاطفي يا زوز ... الموضوع مش بسهولة دى ... أنا منكرش ان الراجل اللى رسمته مراتك شبه عبد المجيد شاهين أوي ... بس

احتمال يكون مش هو ...ليه ؟... لان كل الاحتمالات جايزة ... وعبدالمجيد شاهين هيعملنا شوشرة جامدة اوي لو قبضنا عليه بدون تهمة واضحة .
قلتُ :
ـ ياعم ايه اللخبطة دى ...اومال هتعمل ايه ؟
قال وهو يضغط على زر الجرس :
ـ هنبدأ بالحاج سعيد .
هنا دلف مراد يحمل صينية عليها فنجأنان من القهوة وكوب ماء ،
قال عادل :
ـ خلّى الحاج سعيد يدخل يا مراد .
كان الحاج سعيد مصفر الأسنان طويل القامة يتردى جلبابا واسعا ، أمره عادل بالجلوس فجلس وهو ينظر نحونا في غباء وبدأ عادل يتكلم :
ـ البيت ده بتاعك من أمتى يا حاج سعيد ؟
أجاب الرجل في نبرة لا تخلو من مكر :
ـ من زمان أوي يا سعادة البيه .
سأله عادل :
ـ وزمان أوى دى تطلع امتى ؟
أجاب :
ـ من ساعة ما ورثته من المرحوم أبويا .
قال عادل وهو ينفث دخان سجائره :
ـ ما شاء الله ... جميل أوى يا حاج سعيد ... طيب ورثته من المرحوم أبوك امتى ؟
أجابه الرجل :
ـ لما مات أبويا .
قال عادل في هدوء حسدته عليه :
ـ البقاء لله يا حاج سعيد ... كان نفسي اجى العزا .. بس انتو معملتوش عزا ...صح ؟
أجابه الرجل في غباء :
ـ صح .
قال عادل وهو يميل للإمام :
ـ طيب انت هتبات فى الحجز 3 أيام بعدد أيام العزا ... وأنا كل يوم هاجي بنفسى اعزيك .
قال الرجل :
ـ ييجي من 35 سنة يا بيه .... ورثت البيت من 35 سنة .

تعجبتُ من قدرة عادل على ثباته الانفعالي وسمعته يقول :
ـ يعني عارف اهو ... اومال مخبي ليه ... هو انت خايف من حاجة .
قال الرجل في غضب :
ـ بصراحة يا بيه ... السمعة اللي طالعة على البيت دى كلها إشاعات ... عفريت ايه اللى ساكن في شقة الدور التالت ... أنا بيتي مفهوش عفاريت والشقة متباعه ومحدش اشتكى .
قال عادل في هدوء بعد أن غمز بعينه لي غمزة لم يراها الرجل :
ـ فعلا الشقة مفهاش عفاريت يا حاج .
قال الرجل :
ـ طيب قولهم بقا يا بيه ... يا بيه ما عفريت إلا بني ادم .
قال عادل في تأثر مجاريا الرجل :
ـ بني ادم حي ...ولا بني ادم مقتول ؟
أجابه الرجل :
ـ البني ادم الحي يا بيه بقي أشطر من العفريت ومن ابليس نفسه ... منهم لله اللى عايزين يخوفوا الناس من البيت ويطفشوهم منه .
قال عادل في هدوء وهو يشعل سيجارة جديدة :
ـ نص ساعة وأقولك روّح لولادك يا حاج ..بس ركز معايا في الكام سؤال الجايين وجاوب باختصار من غير لف ولا دوران ولا عايز تشرفنا هنا كام يوم ؟
أجابه في حماسة ممزوجة بخوف :
ـ عليا الطلاق أنا ما بتاع لف ولا دوران .
سأله عادل :
ـ عاوز أعرف كام واحد سكن الدور التالت من ساعة ما ورثت البيت ... وعاوز أعرف أسمائهم ... والفترة اللي قضاها كل ساكن فيهم ... ومشيوا ليه من الشقة ... ركز وجاوب وبعدها هقولك روّح ومش هتجي هنا تاني .
قال الرجل في لهفة :
ـ حاضر يا بيه ... أول واحد كان اسمه عبد العال سيد فوزي ... كان شاب في الجامعة ... خلص 4 سنين فترة دراسته وبعدها مشي .
قال عادل :
ـ مشى ليه ؟
أجاب :
ـ هو تقريبا من الأرياف وكان جاى القاهرة علشان الدراسة فخلص الدراسة ومشي ... وأنا كده كده كنت مستنيه يخلص دراسته بفارغ الصبر علشان

كان ساكن معاه 3 صحابه ...مكنوش بيدفعوا ايجار ... والسكان قالوا مش عاوزين أسكن طلاب تاني ....ولا عزاب .
كان عادل يدوّن ما يقوله الرجل في تركيز شديد ثم قال :
ـ والتاني ؟
أجاب الرجل :
ـ التاني كان راجل أربعيني كده قعد حوالي شهور ومشي ... والتالت ...
قاطعه عادل :
ـ لا استني يا حاج حسين ... التاني مشي ليه ؟ ... وانت قبلت تسكنه ليه طالما مش معاه أسرة ... مش السكان قالولك متسكنش عزاب ؟
أجاب الرجل :
ـ أيوه فعلا ... بس الراجل قالي انه مجوز.. بس هو نزل يدوّر علي سكن ويشترى عفش ويدور على شغل .. وبعدها هيجيب مراته وعياله .
سأله عادل :
ـ طيب اسمه إيه ؟
أجاب الرجل مسرعا :
ـ معرفش يا بيه .
نهض عادل وأخذ يدور حولنا وهو يشبك يديه خلف ظهره وهو يقول :
ـ مش عايز تروح ولا إيه يا حاج سعيد ... مفيش حاجة اسمها معرفش يا حاج سعيد ... واحد سكن عندك يعني كان فيه عقد إيجار ياحاج سعيد ... يعني تعرف اسمه يا حاج سعيد ... ولا عايز تشرفنا هنا أسبوعين تلاتة يا حاج سعيد ؟
قال الرجل وهو ينهض فزعا :
ـ أبدا والله يا سعادة البيه ... بس هو رفض انه يمضى عقد لحد ما يجيب مراته وعياله ... واداني تأمين ضعف اللي طلبته... ودفع 5 شهور مقدم كمان .
نظر عادل نحوى نظرة ذات معني وقال :
ـ انت كنت عايز كام تأمين وهو اداك كام ؟
أجاب :
ـ التأمين ساعتها كان 500 جنيه ..بس هو اداني 3 الاف جنيه .
جلس عادل خلف مقعده وأشعل سيجارة جديدة ،وبدأتُ أفهم ما يدور في عقل عادل وسمعته يسأل :
ـ تعتقد ليه اداك 3 الاف جنيه رغم إن التأمين وقتها كان 500 جنيه ؟
أجاب الرجل :

ـ معرفش يا بيه ... بس أنا لمّا رفضت أسكنه بدون عقد ..عرض عليا المبلغ ده ...ودفع 5 شهور ايجار مقدم علشان أضمن حقي وأنا وافقت .
قال عادل وهو ينظر نحوي بينما يحدث الرجل :
ـ باختصار هو مكنش عايزك تعرف اسمه يا حاج سعيد .
قال الرجل في غباء :
ـ إزاي يعني يا بيه ؟
قال عادل :
ـ عادي يا حاج حسين فيه ناس بتتكسف تقول اسمها ... وفيه ناس بتتكسف تتكلم خالص .
ثم أشار نحوي وهو يقول :
ـ شايف الأستاذ ده يا حاج سعيد ... بيتكسف يتكلم ... علشان كده متكلمش ولا كلمة من ساعة ما أنت دخلت .
قلتُ في نفسي :
ـ الله يخربيت رخامتك يا عادل ... بس برافو عليك ... أنت أخدت كل المعلومات بطريقة ذكية ... أنا لو مكانك كنت تعصبت على الرجل من ساعة ما قال أنا ورثت البيت لما أبويا مات .
نظر الحاج سعيد نحوي في غباء فابتسمتُ له لأوحي له بصدق ما قاله عادل عنّي ، ثم سمعتُ عادل يقول :
ـ خليك معايا يا حاج ... الراجل اللى بيتكسف يقول اسمه ساب الشقة بعد كام شهر ؟... وسابها ليه ؟
أجابه الرجل :
ـ شهور يا بيه... ومعرفش سابه ليه .
سأله عادل :
ـ قال حاجة معينة قبل ما يسيبها ؟
أجاب :
ـ لا يا بيه .
سأله عادل :
ـ اومال عرفت إزاي انه سابها :
ـ أنا كل أول شهر بقعد على القهوة والسكان بيجيبوا لي الإيجار... أنا عوّدتهم على كده... بس هو كان دافع مقدم ... فمكنتش بقابله ... بس محصل الكهربا ... قالي إن شقة الدور التالت فاضية ...وعليها وصل متأخر .
سأله عادل :
ـ وصل واحد ؟

أجاب الرجل :
ـ وصلين يا بيه ...لأني لمّا دفعتهم كانو شهرين .
سأله عادل :
ـ الراجل ده سكن بعد الطالب بتاع الجامعة مباشرة ؟
أجاب :
ـ لا يا بيه ... الشقة فضلت فاضية أكتر من 12 سنة .
سأله عادل وهو يشعل سيجارة جديدة :
ـ ومين سكن بعد الراجل اللى بيتكسف يقول اسمه ؟
أجاب الرجل :
ـ واحد اسمه قاسم ...
قاطعه عادل :
ـ قاسم عبد العزيز وكان معاه مراته وبنته الصغيرة وأخد منك الشقة ايجار.. وبعدين اشتراها تمليك ....وبعدين باعها لمراته .. ولمّا مات ... مراته باعتها ومشيت .
قال الرجل في ذهول :
ـ صح يا بيه .. بس متسألنيش على اسم الراجل اللى اشتراها من مرات المرحوم قاسم علشان معرفوش .
نظر نحوي عادل مبتسما وقال :
ـ لا مش هسألك يا حاج سعيد ... بس هسألك آخر سؤال وبعدها تروّح ...الاشاعات بتاعت العفاريت لما ظهرتْ كان مين ساكن الشقة .
أجاب :
ـ ظهرت بعد الراجل اللى بيتكسف يقول اسمه ما مشي .
هنا ضغط عادل على زر الجرس فحضر مراد مسرعا فقال عادل :
ـ احنا تعبناك يا حاج سعيد ... تفضل روح .
قال الرجل قبل أن يخرج :
ـ إنما ليه الأسئلة دي كلها يا بيه .
أجابه عادل :
ـ كنت عايز أتأكد ان الشقة مفهاش عفاريت ... علشان لمّا يجي حد تاني يبلغ إن الشقة فيها عفاريت هدّيه بالجزمة يا حاج حسين .
ابتسمتُ وسمعتُ الرجل يقول وهو يخرج يقول :
ـ ربنا يعمر بيتك يا بيه .
أخذ عادل نفسا عميقا وهو يقول لمراد الذي مازال واقفا :
ـ قهوة يا مراد .. زود البن وأغليه ...اغليه يا مراد ..اغليه .

قلتُ وأنا أضحك :
ـ مش تبطل حركاتك دى ... إيه سمعة الكسوف دى اللى طلعتها عليا ؟
أجابني في مرح :
ـ كان لازم ناخد الراجل واحدة واحدة .
سكت قليلا ثم قال في جدية :
ـ لما سألته بني ادم حي ولا مقتول ...الرجل كان ثابت ومتهزش وكمل كلامه على إن البني ادم أشطر من العفريت ..ودا دليل على انه ميعرفش ولا حاجة عن موضوع القتل ...كان كل همّه انه الشقة تتأجر ويستفيد بالإيجار .. علشان كده وافق يسكن الراجل الغامض ده من غير حتى ما يعرف اسمه ... والراجل الغامض اللى رفض يقول اسمه هو القاتل ...لان الكلام عن العفاريت ظهر بعد هو ما مشي ...كان دافع 5 شهور إيجار مقدم ...قعد منهم 3 ومشي ...لان الحاج حسين دفع فاتورتين كهربا بعد ما هو مشي ... وفى خلال الـ 3 شهور دى عمل جريمته ...ضرب أبوك بآلة حادة فى رأسه من قدام زى ما جه في تقرير الطب الشرعي ...الراجل لمّا دفن أبوك في العمود... أبوك كان لسه عايش بس فاقد الوعي .....ولمّا فاق لقي نفسه محبوس جوه العمود...... فضل يصرخ يصرخ ويحاول لمدة أكتر من 5 ساعات .
كنت مأخوذا مذهولا وأنا أسمع ما يقوله عادل ، ثم قلتُ :
ـ يعني أبويا مات مرتين ... مرة من الضربة ...ومرة تانية لمّا فاق ولقي نفسه محبوس فى حتة ضلمة يدوبك متر فى متر .
حينما قلتُها كانتْ عيناي تلمع ببودار دموع ، لأن عادل قال محاولا التخفيف عنيّ :
ـ قول ربنا يرحمه .
ترحمتُ عليه ، ثم سألتُ عادل في لهفة :
ـ وهتعرف الراجل الغامض ده إزاي ؟
أجاب وهو يأخذ نفسا عميقا :
ـ من حسن الحظ إن الحاج سعيد راجل غلبان وطيب ... هجيبه تاني وأقوله إن الراجل الغامض هو اللي بيبعت ناس تطلع إشاعات عن العفاريت ... واطلب منه يوصفلي الراجل ده علشان اقبض عليه .... ولو المواصفات قريبة من مواصفات الراجل اللى رسمته مراتك ...هقبض على عبد المجيد بيه شاهين .

الفصل الثامن عشر
(معتز الصياد)

بعد شهر كنا نجلس في مكتب عادل بيه الذي نفث دخان سجائره في لذة ، ثم نادى بصوت مرتفع :
ـ مراد ... يا مراد .
دلف مراد وأدى التحية العسكرية قائلا :
ـ تحت أمرك يا عادل بيه .
قال عادل وقد ارتخى في جلسته :
ـ أخبار عبد المجيد بيه إيه ؟
أجاب مراد بعد أن مال للأمام :
ـ استوى على اخره ... عمال يزعق زى العيل الصغير ... بس معاه 3 محامين .
قال عادل في تحدٍ :
ـ 3 محامين ؟!...... ممممم .... عامه سيبه كمان شويه عبال ما تعملنا قهوة ...اغلي البن يا مراد .... أغليه
قال مراد مؤديا التحية العسكرية :
ـ حاضر يافندم .
قال عادل قبل أن ينصرف مراد :
ـ بعد ما تقدّملى القهوة خلي عبد المجيد يدخل بس لوحده ...فاهم ؟
أجاب مراد في وقار :
ـ تحت أمرك .

ثم انصرف ، فتوجهتُ بنظري إلى عادل وسألته :
ـ عادل ... متأكد انه هيعترف ؟
أجاب وهو ينظر إلى دخان سيجارته المتطاير :
ـ عيب يا معتز ... أنا حضّرت كل حاجة .... بس انت متأكد من الخواجة يوجين
قلتُ مسرعا :
ـ انت رحت معايا إسكندرية وقابلته والكلام كان قدامك يا عادل .
قال عادل بعد صمتٍ قصير :
ـ يبقي عبد المجيد هيقع ...متقلقش .
قلتُ في ترددٍ وخوف :
ـ طيب ولو أنكر ؟
أجاب وهو يطفئ سيجارته في المنفضة :
ـ عمرى ما طمعت إن متهم يعترف من أول مرة ... لازم ينكر ... بس هخليه يلف حوالين نفسه ....استحالة هطلب التحقيق معاه كمتهم إلا لو فيه دليل عليه ... عبد المجيد ده واحد معروف في السوق وله معارف وعلاقات وراجل ذكي ومش سهل ... وأنا مش هعلب لعبة معاه إلا لو كنت متأكد إني هكسب .
أخذتُ نفسا وعميقا ودعوتُ الله في سرى أن ينتهي هذا الموضوع ويظهر الحق ، سمعتُ صوت من يستأذن في الدخول ، ثم قدّم مراد القهوة وقال :
ـ القهوة يا فندم .
قال عادل في جدية :
ـ نادى على عبد المجيد بيه .
بعد قليل دلف إلى غرفة المكتب رجل ممتلئ الجسم طويل القامة أصلع الرأس في بذلة أنيقة ينظر بعينين حادتين ، ثم قال وقد بدا على وجهه غضب واضح :
ـ جرى إيه يا عادل بيه ... مش أنا اللى اترمى الرمية دى ... وكمان باعتلى ضبط وإحضار للشركة بتاعتي .... دا تصرف ممكن تندم عليه .
كان الرجل مهيبا قوي الشخصية يتحدث في غضب ، لكن لمحتُ شفته السفلى ترتعش قليلا ، ثم سمعتُ عادل يقول :
ـ تفضل اقعد يا عبد المجيد بيه ...احنا مش هنعطلك ... هناخد اقولك وتمشي .
قال الرجل وهو يجلس :
ـ بس دى مش طريقة ابدا ... وكمان رافض دخول المحامين ...أنا ....

قاطعه عادل قائلا :
ـ يا عبد المجيد بيه ... الموضوع مش مستاهل محامين .... دى تهمة عبيطة موجهة ليك ... وأنا عارف انك فوق اى شبهات..... بس مجرد روتين مش اكتر .
بدا الهدوء على وجه الرجل ثم قال :
ـ تهمة إيه ؟
سأله عادل :
ـ انت من مواليد الإسكندرية ... جيت القاهرة امتي ؟
أجاب الرجل :
ليه ؟.... دا تحقيق بقا وأنا ارفض ...
قاطعه عادل مرة أخري قائلا في نبرة حادة :
ـ انت متهم في جريمة قتل... ولو عطلتني عن التحقيق هسجنك على ذمة التحقيق ....اهدى كده وجاوب على الأسئلة علشان تروح .... جيت القاهرة امتي وليه ؟
قال الرجل في ثبات أو محاولا أن يكون ثابتا :
ـ أنا مش هتكلم إلا في وجود المحامين .
قال عادل في مكر :
ـ وجودهم زى عدمه يا عبد المجيد بيه ... هم ميعرفوش حاجة عن التهمة ... وهيتفاجئوا لمّا يعرفوا انك قتلت.
هنا قال الرجل بشفتين مرتعشتين :
ـ قتلت ؟!
رفع عادل صوته مناديا على مراد الذي سرعان ما دلف إلى غرفة المكتب ، فقال له عادل :
ـ خلى المحامين يتفضلوا .
لم يمضِ وقت طويل حتى دلف إلى الغرفة ثلاثة رجال أنيقين في بذلات سوداء ، وقدّم كل منهم نفسه لنا ، ثم جلسوا على أريكة بجوارنا ،
قال عادل :
ـ يلا بقا ... جاوب يا عبد المجيد بيه .
قال أحد الرجال المتأنقين :
ـ مفيش اى إجابة إلا بعد دراسة التهمة الموجهه لعبد المجيد بيه
قال عادل في جدية :
ـ دا فى المحكمة ... تطلب التأجيل فى المحكمة ...لكن دا تحقيق ... يعني يجاوب او يتحبس على ذمة التحقيق لحين رفع القضية للنيابة ... ومش جايز

يكون مجرد اتهام باطل من أعداء عبد المجيد بيه .... عايز أعرف جيت سكنت في القاهرة امتى وليه ؟
أجاب الرجل وقد انكسر كبرياؤه قليلا :
ـ من 14 سنة تقريبا .
سأله عادل في برود :
ـ ليه ؟
أجاب الرجل :
ـ شغل .
سأله عادل :
ـ سكنت فين ؟
أجاب :
ـ فى الفيلا بتاعتي .
قال عادل متهكما :
ـ مش صعب شوية إني أصدق انك كنت صياد عند المعلم رجب ومعاك فيلا هنا .
قال في ارتباك حاول أن يخفيه :
ـ أنا مكنتش صياد ...أنا كنت صاحب أكبر شركة تصدير سمك على مستوى الجمهورية ... وعيب أوى ....
ـ العيب انك تكذب يا عبد المجيد بيه .
هكذا قاطعه عادل ثم أردف :
ـ انت خايف تقول انك كنت فقير وغنيت فجأة ... أنا مش بحقق فى تهمة اختلاس لا سمح الله ...أنا بحقق فى تهمة بسيطة أوى ...قتل مش اكتر
هنا قال أحد الرجال الأنيقين في حماسة بعد أن سال لعابه :
ـ دى تهمة بدون أي دليل ... وأنا ارفض توجيه أي تهمة لموكلي
قال عادل رافعا صوته :
ـ مراد ...يا مراد .
حينما دلف مراد وأدى التحية العسكرية أشار له عادل ناحية الباب ، فاتجه مراد إلى باب الغرفة وجلب رجلا كهلا ضخم الجثة ، فدلف الرجل الضخم في خوفٍ وتردد ، أمره عادل بالجلوس ثم قال محدثا الضخم :
ـ تعرف الراجل ده يا معلم رجب ؟
هنا ساد صمت كصمت القبور، وتلوّن وجه عبد المجيد بيه باللون الأحمر كأن دم جسمه كله تجمع في وجهه ، بينما كان المعلم رجل الضخم يتأمل وجه عبد المجيد ثم قال :

ـ ده عبد المجيد ..أيوه عبد المجيد .
قال عادل في ذكاء :
ـ اسمه عبد المجيد بيه يا عم رجب ...عبد المجيد بيه اللى طول عمره رجل أعمال من ساعة ما كان في الإسكندرية ... ولا انت لما كنت تعرفه مكنش بقي رجل أعمال ؟
أجاب الرجل :
ـ اللى أعرفه انه كان شغال عندى .
مال عادل للإمام سائلا المعلم رجل ليُكمل :
ـ وبعدين ؟
قال الرجل :
ـ وبعدين اختفى فجأة .
سأله عادل ساخرا :
ـ إيه حكاية الاختفاء ده يا عم رجب ... هم ليه كل اللى بيشتغلوا عندك بيختفوا ؟... مش انت قلتُلى ان فيه واحد اختفي قبله ؟
أجاب المعلم رجب :
ـ أيوه يا سعادة البيه .
سأل عادل :
ـ مين بقا ؟
أجاب :
ـ محمود الصياد .
هنا قال عبد المجيد بيه في غضب واهتزاز :
ـ أنا معرفش حد اسمه محمود الصياد خالص .
قال عادل في برود وسخرية :
ـ وهو حد قالك انك تعرفه ...ولا الاسم فكرك بحاجة ؟
ثم أكمل محدثا المعلم رجب :
ـ مين اللى اختفى الأول ؟... محمود الصياد ولا عبد المجيد بيه ؟
أجاب الرجل :
ـ عبد المجيد يا سعادة البيه .
نهض عادل وأشعل سيجارة جديدة وقال :
ـ يا عم رجب قلتلك اسمه عبد المجيد بيه ... بيه يا عم رجب .
قال المعلم رجب :
ـ بيه بيه يا سعادة البيه .
قال عادل وهو يدور حول المكتب :

ـ تفضل انت يا معلم رجب .
نهض المعلم رجب كديناصور وهو يقول متهللا :
ـ اروّح يا سعادة البيه ؟
أجابه عادل :
ـ لا يا عم رجب ... خليك شويه امكن نحتاجك تاني ... خلي مراد يعملك قهوة ... بس خليه يغلي البن يا عم رجب .
قال الرجل متوسلا :
ـ أنا مش عايز قهوة يا سعادة البيه... أنا عايز أروّح .
قال عادل بعد أن جلس خلف مكتبه :
ـ بس خليك شويه يا عم رجب .. قعدتك حلوة .. وقعدتك بتفكر عبد الجيد بيه بأيام إسكندرية ...يا سلام أحلى أيام والله ... تفضل استنى بره .
عبقري فعلا يا عادل ، يا لك من شيطان !
استطعتَ بكل ثقة وبرود أن تهوي بكبرياء الرجل من السماء إلى الأرض ، هكذا حدثتُ نفسي ، ثم سمعتُ عادل يقول :
ـ ليه بقا يا عبد المجيد بيه كنت بتجيب سمك وتوديه الشقة بتاعت الدور التالت ؟
أجاب الرجل في غضب :
ـ سمك ايه وشقة الدور التالت ايه؟ ... انت عايز توصل لايه بالظبط ؟
أجابه وهو يدس تحت أنفه صورة تقريبية للرجل الذي كان يأتي بالأسماك لوالد نورا رحمه الله :
ـ الراجل ده كان بيتردد على شقة الدور التالت ... ويجيب معاه سمك محدش طلبه .
حاول عبد المجيد بيه أن يخفي ارتعاشه يده وهو يمسك بالصورة وقال :
ـ دى اهانة يا عادل بيه ...إزاي تشبهني بواحد زى ده ...لو كلفت نفسك وبصيت كويس فى الصورة هتلاقي مفيش شبه خالص بيني وبين الصورة .

فتح عادل درج المكتب وأخرج شيئا ما وضعه على المكتب أمامه ثم قال :
ـ فعلا مفيش شبه خالص .. بس لو لبست الباروكة دى ولزقت الشنب ده هتلاقي فيه شبه .
قالها وهو يمدّ يده (بباروكة) الشعر المستعار والشارب اللاصق ، فقال الرجل في عصبية :
ـ لاااا كده كتير أوى وعيب أوى ... انت عايزني ألبس باروكة والزق شنب علشان ابقي شبه القاتل اللى بتدور عليه ... انت بتضيع وقتك ياعادل بيه ...

لما تيجى تدور وسط الشرفاء ورجال الأعمال اللى سمعتهم تشهد بيها البلد كلها يبقى انت بتضيع وقتك ... أنصحك بلاش تضيع وقتك ...وترمي الباروكة والشنب دول وتدور على القاتل بتاعك وسط المجرمين .

قال عادل في استهتار متعمد :

ـ طيب تنصحني أرمي الباروكة والشنب في الشارع ولا أرجعهم في شقة الدور الخامس اللى مكتوبة باسمك وبتدعي انك بتستعملها مخزن للشركة ... ولا دى كمان مش شقتك ؟

أجاب مسرعا :

ـ شقتي ... بس أنا أول مرة أشوف الباروكة والشنب دول ؟

قال عادل في جدية :

ـ ماشى ... أنا هجيبلك واحد شاف الباروكة والشنب دول قبل كده .

ثم نادى صارخا ومازال ينظر في وجه عبد المجيد بيه :

ـ يا مراد ... مراد .. انت يازفت .

هرول مراد إلى داخل غرفة المكتب قائلا في قلق :

ـ أمرك يا بيه .

أشار عادل ناحية الباب ، فاتجه مراد بدوره إلى الباب وجذب رجلا يبدو عليه الوقار ، فقال عادل :

ـ اقعد يا حاج الحناوي واحكي كل حاجة قدام عبد المجيد بيه .

قال الحاج الحناوي :

ـ بس يا بيه أنا حكيت كل حاجة .

قال عادل وهو نظر إلى عينيّ عبد المجيد بيه نظرات ثابتة ثاقبة :

ـ أنا عاوز عبدالمجيد بيه يسمع .

قال الحاج الحناوي :

ـ زمان يا بيه جالي الراجل اللى قاعد قدّامك ده بس كان له شعر بني وشنب عريض أسود ... وفهمّني إنه من أهل الخير ويحب يساعد الناس اللى بتكسب لقمتها بالحلال ... ساعتها أنا كنت غلبان معايا مطعم يدوبك متر في مترين ...هو اتبرعلى بمبلغ كبير علشان أوسع المحل وأكبّره...قالى انه جرب السمك بتاعي ومبسوط منّي ...علشان كده هيساعدني أوسع المحل ... وفعلا ادّاني فلوس كتير أوى ...وكبّرتُ المحل ..بس كان له شرط غريب ... انه كل يومين او تلاتة هييجى ياخد مني 3 كيلو سمك يوزعهم على الغلابة ...مش هو ده الغريب يا بيه ...الغريب انه قالي انه هو هيوزع السمك ده بنفسه على الغلابة ويفهمهم انه شغال عندى ديليفرى في المعطم ...ساعتها أنا استغربت أوى وقلتُله طيب وليه ... قالي علشان مش عايز

الناس الغلابة يعرفوا انهم بياخدوا صدقة منه ... علشان كده اداني اسماء الناس اللى بيوزع عليهم السمك وأكد عليا إنه لو حد منهم وجه سألني مين بيطلب السمك ده ...أقولهم الاوردر بيوصل باسمائهم ... وان رقم غريب بيطلب الاوردر و...

قاطعه عادل قائلا :

ـ ادّاك أسماء مين ؟

أجاب الحاج الحناوى :

ـ اسم قاسم عبدالعزيز .

نظر عادل نحوى ، فاتجهتُ ناحية الباب وأشرتُ إلى نورا التي كانتْ تجلس في إحدى زوايا الطرقة ، فحضرتْ مبتسمة وأمسكتُ يدها برفق ودلفنا إلى غرفة المكتب ، حينما رأنا عبد المجيد بيه حملق في نورا وارتبك ونهض محتقن الوجه وقد تصبب العرق منه ، فقال عادل مسرعا :

ـ وطبعا يا عبد المجيد بيه ... نورا استلمت منك السمك اكتر من مرة ... صح يا نورا .

فأومأتْ نورا برأسها موافقة ، فقال عادل :

ـ انتَ قتلت الراجل ومسبتش وراك أي دليل ... يعني كان ممكن متظهرش تاني .... إيه الحكمة انك تظهر تانى وتودى سمك لأي حد سكن الشقة بعد جريمة القتل ؟

خرّ عبد المجيد بيه على المقعد وه يرتعش ، ووضع وجهه بين يديه وقال :

ـ علشان القتيل كان بيجيلى فى كوابيس ويصرخ فى وشى ويقول أنا جعان ....جعان عاوز اكل سمك ...

الفصل التاسع عشر
(عبد المجيد شاهين)
بعد مرور عشر سنوات

مرّتْ عشر سنوات كاملة منذ أن قام عادل بيه بالتحقيق معي في جريمة القتل ، كل تلك السنوات ومازلتُ قابعا في السجن أقضي عقوبة ثمانية عشر عاما ، وخلال تلك السنوات خسرتْ شركاتي كل الأسهم في البورصة ، تبخر اسمي في السوق ، واختفتْ ثروتي ، أمّا ما تبقى من تلك الثروة فقد قامر به حسام وبدده على ملذاته ، وحينما صار (على الحديدة) باع الفيلا وقام باستئجار شقة حقيرة في أحد الأماكن الشعبية المطحونة ، ترافقه زوجته شيرين في تلك الحياة القاسية ، أمّا زوجتي فقد علمتُ أنها عادتْ إلي الإسكندرية لتعيش مع أخت لها ، كان حسام يأتيني مع زوجته في زيارات متباعدة غالبا ما تكون سريعة متعجلة كأنهما لا يطيقان رؤيتي .

كنتُ حريصا على ألا أترك خلفي دليلا على جريمتي ، وقد نجحتُ تقريبا في ذلك حتى ظهرتْ في حياتي نورا ، ذات يوم بينما أحمل الأسماك إلى الشقة التي تسكنها الجثة والتي شقة قاسم ، رأيت نورا ، ثم رأيتها في الفيلا تحتفل مع حسام وشلته بحفل عيد ميلاده ، فكان لابد أن أختفي حتى لا ينكشف أمري ، تسللتُ خارجا من الفيلا ، وتركتُ حفل عيد الميلاد ، ولم أقم بزيارة حسام يوم أن أجري العميلة الجراحية في المستشفى حتى لا تراني نورا وتلحظ الشبه بيني وبين الرجل الذي يحضر الأسماك إلي شقة والدها ، كنتُ أود أن أسد هذا الباب حتى لا تتسرب نسائم الشك والريبة إلى قلبها ، لذلك حينما افتتحتُ شركتي الجديدة ورأيتُ تلك الفتاة تُقبل نحوي

لتقدم لي التهنئة وهى تنظر إلى عينيّ في ثبات قررتُ من فوري أن أتسلل إلى الطابق الثاني لاستكمال الاحتفال مع أصدقائي من رجال الأعمال .

أنا رجل أحلم دائما بالثراء ، وحينما حققته صرتُ عبدا له ، لم أكتفِ بما حققته من مال وجاه بل طمعتُ في المزيد ، كنتُ أريد الثراء الفاحش بصرف النظر عن الوسيلة ، وقد جاءتني الفرصة على طبق من ذهب حينما أخبرني الخواجة (يوجين) أن محمود الصياد عثر على جوهرة من نوع نادر تُقدر بملايين الجنيهات ، أنقدتُ الخواجة مالا ليخبرني أين اختفى محمود الصياد ، ثم أسرعتُ الخطى إلى القاهرة ، وقمت باستئجار شقة في نفس الحارة التي يسكن فيها ، أرسلتُ له من يخبره بأن مشتريا ثريا مهووسا باقتناء الجواهر اليونانية يريد شراء الجوهرة ، وحتى لا يشك في الأمر جعلتُ صاحب الرسالة يقول :
ـ أنا من طرف الخواجة (اركون) ...وهو بيقولك إن الخواجة يوجين قاله على كل حاجه ... واركون فى انتظارك في شقة الدور الثالث .

طبعا فعلتُ هذا بعد أن خططت لكل شيء ، الطوب والاسمنت والقطعة الحديدية وكل شيء ، أمّا الحاج سعيد صاحب البناية فقد أخبرني فور وصولي إلى القاهرة أنه لا يقوم بتأجير الشقق لعزّاب غير متزوجين ، أخبرته كذبا أن زوجتي وأولادي سيلحقون بي ، ووافق حينما لمعتْ عيناه وهو يري ما أقدمه له من أموال تفوق بكثير ما طلب ، وجاء الموعد ، وانفردت بـ محمود الصياد في شقة الطابق الثالث ، طبعا تعجبَ الرجل لأنه يعرفني جيدا ، فأنا لستُ الشخص المنتظر ، أخبرته أنني أعلم كل شيء واني صديق مقرب للخواجة اركون وهو في طريقه للوصول إلى هنا ، كان الرجل متشككا متحفظا حينما طلبتُ منه أن أرى الجوهرة ، ورغم تردده لكنه وافق أخيرا ، فجعلني أتفحصها بينما هي في يده ، لا أنكر أن لعابي سال كالكلب وأنا أتخيل أنني أملك ذلك الشيء اللامع المرصع الثمين ، استدار محمود ليذهب إلى المطبخ ، فهويتُ بكل ما أملك من قوة على رأسه بقطعه من حديد ، وسال ذلك الشيء القاني على جبهته ، وعندما هويتُ على رأسه بالضربة الثانية بدا مستسلما يصارع أنفاسه ، لن أنسَ نظراته الذليلة المتوسلة ما حييت ، سقطتْ الجوهرة من يده فالتقطتها ، ثم سقط جثة هامدة .

جرى كل شيء كما خططتُ ، جررتُ الجثة إلى أحد جدران الحائط ، وبدأت أبني عمودا خراسانيا حول الجثة اللينة ، وضعتُ الطوب والاسمنت وبعض الجبس في سرعة وخوف وهلع وترقب وقسوة ولين وتشف وشفقة وأشياء أخرى متضاربة .

لقد اختفى محمود الصياد من الوجود ، ولم تُجدِ نفعا ما فعلته زوجته من بحثٍ في المستشفيات والشوارع والحارات ، وتقديم بلاغات لأقسام الشرطة ، المهم أنني صرتُ ثريا بعد أن بعثَ الجوهرة بسبعة ملايين من الجنيهات ، تركتُ الفقر وودعتُ الجوع وصرتُ عبد المجيد بيه ، دخلتُ السوق بكل ما أملك من شطارة وكذب ونصب وتزوير ورشوة وصفقات مشبوهة ، فأنا لا أهتم بالوسيلة كما أخبرتكم ، أسستُ شركتي الأولى ، وتوالتْ الشركات في الصناعة والسمسرة والبيع والاستيراد والتصدير ، كنتُ مخطئا حينما ظننتُ أن محمود الصياد اختفى للأبد ، لأنني رأيته في نومي لأول مرة يقبض بكلتا يديه على حنجرتي ، ظننتُ أنها المرة الأولى وستكون الأخيرة ، ربما مجرد كابوس بريء وسيرحل ، لكن الأمر تكرر ، وصار مقلقا ، صرتُ لا أنام ، الرجل لا يفارقني ، فما أن أضع رأسي على وسادتي حتى يهجم الرجل على حنجرتي صارخا :
ـ أنا جعان ....جعان ... عاوز سمك .

وهنا خطرتْ ببالي فكرة ، أن أقدم لجثته الأسماك لعلها تهدأ في مرقدها ، لكن الأمر تطلب مني خطة جديدة ، وعليّ وحدي أن أقوم بالخطة ، فمَنْ ذا الذي أثق به لأخبره بجريمتي ؟
عدتُ إلى المنطقة الشعبية ، وبدأتُ أبحث عن مطعم ، وكان الحناوي رجلا فقيرا يملك مطعما ضيقا متسخا ، تناولتُ وجبة الغداء في المطعم ، وأخبرته بإعجابي بما يقدمه للزبائن ، سُرّ الرجل كثيرا واخبرني أنني أنا أنظف زبون دخل المطعم من قبل ، منحته ثلاثين ألف جنيها ليقوم بتجديد المطعم فقبّل الرجل يدي ودمعتْ عيناه ، أخبرته أنني أحب فعل الخير وسأقوم بشراء بعض الأسماك بشكل متكرر لأتصدق بها على رجل مسكين ، لكنني لا أريد أن يعرف هذا الفقير المسكين أن تلك الأسماك صدقة وهبه ، حتى لا أجرح مشاعره ، فتأثر الحناوي من كلامي حينما قلتُ :
ـ الدنيا لسه بخير يا حناوي ... أنا كل فترة هاجي أخد منك طلبات ... بس الراجل الغبان ده مش لازم يعرف إني أنا اللى بتصدق عليه .
حينما رأيتُ الغباء مرتسما على وجهه قلتُ موضحا :

ـ بص ... أنا هودى السمك للراجل الغلبان على إني ديليفرى ... يعني موظف عندك ...وطبعا هغيّر شكلي ...ولو في يوم من الأيام جه يسأل عني قوله أي حاجه .... المهم محدش يعرف إني أنا اللى بعمل كده ... قلتُ جملتي الأخيرة حينما بدتْ الريبة على وجه الرجل قلتُ :
ـ علشان زى ما انت عارف مش عاوز ثواب الخير يضيع .

فارتاح لما قلتُ، ووعدني بأن يظل الأمر سرا ، وأخذ يعدد مزايا الصدقة في الخفاء ، وجزاء ذلك عند الله ، ثم سألني قبل أن أغادر :
ـ هو اسمه ايه الراجل الغبان ده ؟
قلتُ وأنا أغادر :
ـ قاسم عبدالعزيز .
ثم ذكرتُ له عنوانه ، وغادرت .

حينما كانتْ تشتدّ عليّ الكوابيس وتهجم عليّ كالجاثوم كنتُ أذهب إلى شقتي بالطابق الخامس وألبس (الباروكه) وأقوم بلصق الشارب المستعار واتجه إلى الحناوي ، ثم أحمل الأسماك الى شقة قاسم ، وأقسم لكم أن الكوابيس كانتْ تختفي وقتها لمدة لا تزيد عن أسبوع ، ثم تعود من جديد فأعلم أن الجثة جائعة ، فأكرر التنكر من جديد .

سارتْ الأيام سعيدة رائعة :
ـ فأنا لم أترك خلفي دليلا واحدا على جريمتي .
ـ واختفيتُ من حياة نورا التي كان من الممكن أن تكشفني .
ـ وترددتُ على بيت قاسم بالأسماك فى غياب نورا بالجامعة .
ـ وقاسم كفّ عن السؤال واعتاد الأمر .
ـ وأقوم بإطعام الجثة بثلاثة كيلوجرامات من الأسماك كلّما جاعت .
يا لها من حياة سعيدة !
لكن من قال أن الحياة تسير على وتيرة واحدة ، جاء اليوم الذي لن أنساه ، كنتُ وقتها فى شركتي :
ـ ضبط واحضار !!!
دقّ قلبي وتذكرتُ جريمتي ونورا ، وراح عقلي ينسج الأهوال ، هل وشي بي الحناوي ؟

لكن هو لا يعرف شيئا عني ، حتي اسمي لا يعرفه ، لم يغب عنّي وقتها أن أقوم بتلفيق اسما زائفا ، ثم بدتْ لي هذه الخواطر مجرد سخافات ، وتوكلتُ على الله ، وذهبتُ إلى قسم الشرطة ، وحدث ما حدث ،
لماذا اعترفتُ وقتها ؟
باختصار لأن السد قد انهار ، عادل بيه شاب ذكي بارد الأعصاب ، ويبدو انه خطط لكل شيء :
- لا فرصة للمحامين .
- لا فرصة لدراسة القضية .
- لا فرصة لتأجيل التحقيق .
- ثم إنني ذهبتُ إلى القسم وأنا لا أعرف تهمتي .
كنتُ أظن أنها مجرد تهمة من منافس في التجارة ، وقد اعتدتُ على ذلك حتى صار لا يمثل لي أي قلق .
أثناء التحقيق وحينما دلف الحاج سعيد ثم الحاج الحناوي وصار مكتب عادل بيه سيركا علمتُ أنها مسألة وقت ، مسألة وقت وسوف ينهار السد ، وما لم تعرفوه أن التحقيق استمر سبع ساعات متواصلة ، فبعد دخول نورا إلى المكتب كنتُ أعلم أن إنكاري لن يدم طويلا ، واعترفت .
قلتُ لكم أنها مسألة وقت ، وقلتُ لكم أن عادل بيه خطط لكل شيء .
أرى أن أحدكم يريد أن يسألني عن خطتي القادمة ، طبعا سؤال ساذج إن سمحتوا لي ، لأنني أخطط للهروب ، نعم وضعتُ خطة للهروب ، وسأقوم بتنفيذها خلال شهور قليلة ، فقط في انتظار الفرصة السانحة ، لقد قضيتُ عشر سنوات هنا ، ولن أقوي على تحمل ثمانية سنوات أخريات ، ثم إن العمر يمضي ، ولن أموت هنا ، سأهرب ، وسيحدث ذلك قريبا جدا ، وقتها سأنتقم ، لكن سيكون انتقامي رهيبا شنيعا شبيها بما يحدث في الأساطير .

الفصل العشرون ـ الأخير
(نورا قاسم)
بعد مرور عشر سنوات

من قال أن الحب تقتله النهاية السعيدة ؟
من قال أن الحب ينتهي بعد الزواج ؟
الحب تتأجج ناره كل يوم وكل لحظة بجوار مَنْ تحب .
في الساعة السادسة صباحا في شقة زوجة أبي التي صارت شقتي ،
استيقظتُ على صوت زوجي الذي قال هامسا :
ـ يلا يا كسلان ... اصحي يلا وصحي مكة واجهزوا عبال ما أجهز الفطار .

قالها معتز وهو يطوى سجادة الصلاة ، فعلمتُ أنه فرغ منذ قليل من صلاته ، قلتُ مسرعة :
ـ صباح الخير يا حبيبي .
اقترب منّي وقبّلني ثم قال :
ـ عبال ما أرجع ألاقيكم لبستوا وصليتوا .
دلفتُ إلى الغرفة التي كانتْ غرفة وفاء أختي من قبل ، وأيقظتُ ابنتي مكة ، لماذا سميتها مكة ؟ يا له من سؤال !
أذكر ذلك اليوم الذي استيقظنا جميعا على صراخ والدة صديقتي مكة حينما تلقتْ خبر إصابتها في حادث سيارة ، توجهنا إلى المستشفى ، وشعرتُ من نظرتي الأولى لها أنها ستموت ، كانتْ مغمضة العينين ، وقد وُضِعتْ

قطعة من القطن على كل عين ، ودستة من الخراطيم التي تدخل وتخرج إلى ومن جسمها ، غرفة العناية المركزة الكئيبة الصامتة ، لم نتوقف عن البكاء وقتها ، ولم تمضِ إلا ساعات قليلة حتى فارقتْ روحها الحياة ، تلك الروح الطاهرة المطمئنة التي طالما كانتْ الملاك الحارس لي في مصائبي وشدتي ، ولن أنسَ منظر الفتيات الصغار اللاتي كن يحفظن القران في شقتها وهن يبكين عليها بحرقة ونحن نواريها تحت التراب في المقابر ، سيظل هذا المشهد حيا بعقلي ما حييت ، وستتردد جملتها في جدراني طوال حياتي حينما سألتها ذات يوم :

ـ مكة ... هو انتي بتاخدى مقابل لدرس القرآن ؟

أجابت وقتها :

ـ فلوس ايه ... دى حاجة بتعملها تنفعني في قبري بعد ما أموت .

وكأنها كانتْ تعلم أنها سترحل مبكرا ،

رحمك الله يا حبيبتي مكة وجعل الله قبرك روضة من رياض الجنة ، حقا إن الدنيا مزرعة للآخرة ، ومكة لم تزرع إلا الخير والابتسامة وتحفيظ القران بلا مقابل ، لذلك حينما نظرتُ إليها نظرتي الأخيرة قبل دفنها ، لم تكن ميتة ، كانتْ ملاكا نائما ، عدتُ من شرودي ، وأيقظت ابنتي مكة وارتدينا ثيابنا وأدينا الصلاة ، ثم عاد معتز وتناولنا إفطارنا في جو من البهجة والسعادة وذهب معتز إلى عمله بالمحل لأن عم حسين كان بانتظاره ، أه نسيت أن أخبركم أن معتز جعل عم حسين يعمل معه في المحل وقد وفّر له سكنا أنيقا بالطابق الرابع ، على أية حال غادرتُ أنا ومكة ابنتي إلى المدرسة التي أعمل بها ، فأنا صرتُ معلمة لغة عربية في المدرسة الابتدائية ، ويا للعجب !

في ذلك اليوم وفى الحصة الأخيرة توجهتُ إلى الصف الثاني الابتدائي ، ثم وجدتُ تلميذة جديدة نُقلتْ للتو إلى الفصل من مدرسة أخرى ، كانتْ الطفلة شاردة الذهن تنزوي بعيدا في أخر الفصل ، انه المكان المفضل لي حينما كنت تلميذة فى مثل عمرها ، كانتْ الفتاة تنظر إلى الأمام بعيون شاردة تائهة ، لا أعرف لماذا تذكرت طفولتي حينما رأيتها ، سألتها :

ـ اسمك إيه يا حبيبتي ؟

لم تتكلم ، فقالتْ إحدى التلميذات :

ـ دى البنت الجديدة يا مس .

اقتربتُ من الصغيرة وربّتُ على كتفها وقبلتها وقلتُ لها :

ـ ما تخافيش يا حبيتي .

ثم أخرجتُ من حقيبتي قطعة حلوى وقدّمتها لها وأنا أقول :
ـ يلا بقا قوليلى اسمك إيه وخدى الجايزة الحلوة دى .

لم تتحدثْ الفتاة رغم محاولاتي ، فقررتُ أن أسأل عنها مدير المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي ، بدأتُ أشرح للتلاميذ لكن وجه الطفلة الصغيرة الشاردة كان يستوقفنى كل مرة ، الفتاة رائعة الجمال لكنه جمال حزين قاتم كمَنْ قطع شوطا يركض هاربا من الجحيم ، تذكرتُ نفسي حينما كنتُ صغيرة ، كنت مثلها شاردة الذهن مشتتة الفكر لا أشعر أنني مثل زميلاتي بسبب فقري ويتمي وفقدان الترابط الأسري ، وتلك الأشياء هي ما كوّنتْ شخصيتي المهزوزة ، ولولا حبيبي وزوجي معتز ما كانتْ الحياة دبّتْ مرة أخري في نفسي الحائرة المعذبة المهزوزة ، فمعتز لم يكن زوجا فقط ، بل كان أخا وأبا وصديقا .

حينما انتهتْ الحصة ، امتلأ حوش المدرسة بأولياء الأمور ، يصحب كل منهم ابنه أو ابنته في حب ولهفة ، إلا الفتاة الصغيرة الشاردة التي خرجتْ وحيدة رغم صغر سنها ، فاعتقدتُ أنها تسكن بالقرب من المدرسة وتعرف طريق العودة ، ثم سمعتُ صوت صراخ وضوضاء خارج فناء المدرسة ، فعلمتُ أن مكروها قد وقع ، حينما هرعتُ خلف المدير ، رأيتُ الفتاة الشاردة ملقاة على الإسفلت اثر اصطدامها بدراجة أحد المارة ، حملها الفرّاش بأمر من المدير إلى حجرة مدير المدرسة ، ثم قام المدير بالاتصال بوالد الفتاة ، كدتُ أن أنسى الموضوع حينما اطمأننتُ أن إصابة الفتاة سطحية ، خرجتُ من غرفة مكتب مدير المدرسة لكني رأيت والدة الفتاة وقد دلفتْ إلى غرفة المدير واحتضنتْ ابنتها في لهفة ، وما هي إلا لحظات حتى دلف والد الفتاة الصغيرة أيضا ، طمأنهم المدير ونصحهم أن يرافق أحدهم البنت يوميا ، فهي مازالتْ صغيرة ولا تستطيع عبور الشارع بنفسها ، كنتُ أرى هذه المشهد من الطرقة الخلفية عبر نافذة صغيرة ، هنا صرخ والد الفتاة في زوجته :
ـ كله منك يا وش الفقر ... قلتلك استني البت قدام المدرسة .
ردت زوجته بعدما شعرتْ بالاهانة :
ـ أنا استأذنت من الشغل علشان اجى اخدها ... الهم والباقي عليك اللى نايم في البيت لا شغل ولا مشغلة .
قال زوجها :
ـ ومين قالك اشتغلى .. ما تترزعى فى البيت وتخلي بالك من البنت .

احتدّ الشجار بينهما لانني سمعتُ الزوجة تقول :
ـ ما هو أنا لو لاقيه راجل يصرف على البيت مكنتش طلعت اشتغل .
قال زوجها :
ـ كمان بتشتميني يا رخيصة .
قالها ثم انهال على وجهها بصفعة اهتزّ قلبي لها ، ورأيتُ المدير يقف حائلا بينهما محاولا أن يوقف الضربات واللكمات المتتالية على جسد الزوجة الباكية المنهارة ، أخفيتُ رعشتي وأسرعت إلى فصل ابنتي مكة واحتضنتها بقوة وانسللتُ إلى خارج المدرسة عائدة إلى حبيبي وزوجي معتز ، لكن كلمة رخيصة التى قالها الزوج لزوجته كان صداها مازال يتردد في عقلي ، فلم يكن الزوجان إلا حسام وشيرين .
تمت بحمد الله .